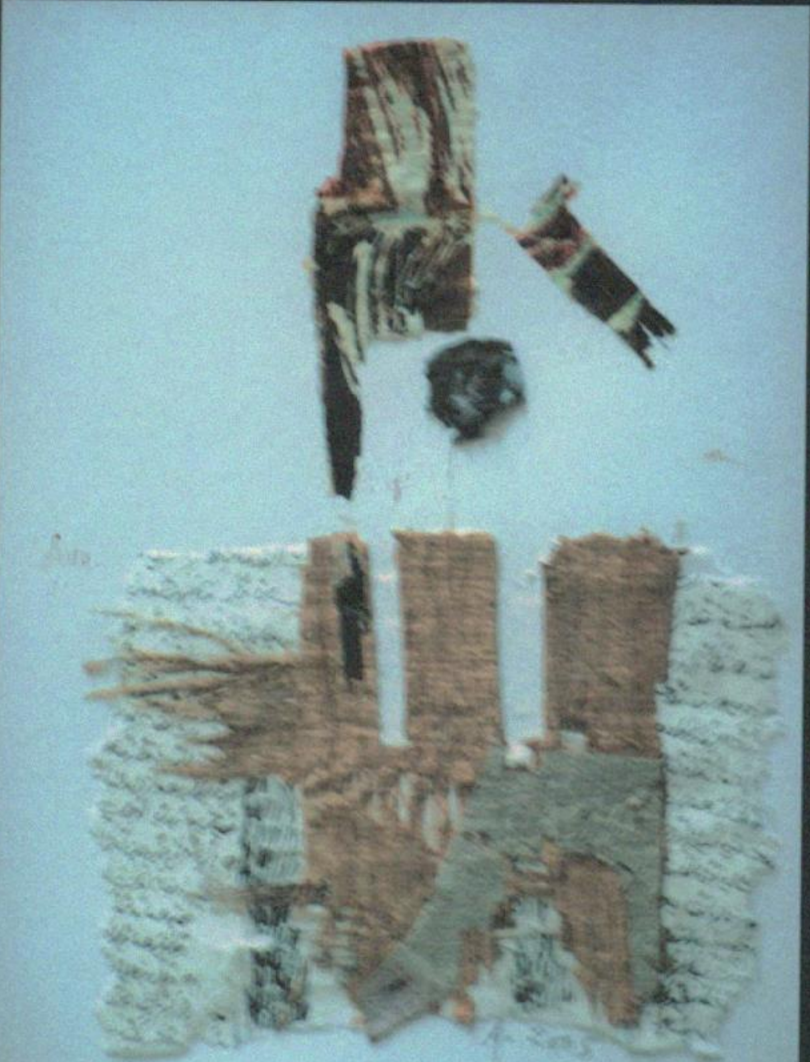
أدونيس

ديوان النثر العربي

الجزء الأول



بدايات

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى 2012

دار بدايات للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - جبلة - مجمّع الروضة التجاري

هاتف: 807826 -41- 00963

دمشق، ص.ب : 30833

البريد الإلكتروني: bidayat2007@yahoo.es

التوزيع في الوطن العربي:

دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

دمشق، هاتف: 2236468 11 00963

www.attakwin.com

info@attakwin.com

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الأول)

بدايات 2012

مدخل

-I-

أزعمُ أنّ النّثرَ العربيَّ، خصوصاً في جوانبه الفنيّة، لا يزال قارّةً شبه مجهولة.

لا يعود ذلك إلى هيمنة الشِّعر وحدها. يعود كذلك إلى سبب موضوعيّ: بنية النثر أقربُ، تاريخيّاً، إلى مفهوم الكتابة. بنية الشِّعر أقرب، تاريخيّاً، إلى مفهوم الشّفاهة. لا نستطيعُ، مثلاً، أن نضع النّثر في قوالبَ أو تَفاعيلَ تُسهِّل حفظه، وروايته، كما هي الحال في الشعر. هكذا لا نستطيعُ أن نتناقلهُ كما نتناقلُ الشّعر.

هناك مقولة راسخة في مؤسّساتنا العربية الثّقافية، تتحكّم بعقولنا وآرائنا وأحكامنا، قليلاً أو كثيراً، وتبعاً للحالة. أصوغ هذه المقولة كما يلي:«لا معنى لما يأتي من بعد، إلا إذا كان مُطابقاً لما كانَ من قبل».

هذا الديوان الذي هو استمرارٌ لما قمتُ به في هذا المجال، إنّما هو توكيدٌ آخر على ضرورة الخروج كليّاً من إسار هذه المقولة إلى نقيضها الذي أصوغه كما يلي: «لا معنى لما يأتي من بعد، إذا كان مطابقاً لما كان من قبل».

في «لسان العرب» أنّ «الدّيوان» كلمة فارسيّة معرّبة، وتعني، كما جاء فيه «مجتمع الصّحف، والدفتر الذي يُكتب فيه أسماء الجيش، وأهْلُ العطاء».

ويضيف معجم «محيط المحيط» قائلاً «الديوان الجريدة. مأخوذٌ من قولهم: دوَّن الكتب إذا جمعها. لأنّها قطعٌ من القَراطيس مجموعة. ويُقال: فلانٌ من أهل الدّيوان، أي ممّن أُثبتَ اسمه في الجريدة. ويطلق الدّيوان أيضاً على مجلس الوالي الذي يُجتمع فيه للمفاوضة في الأمور السّياسيّة. وعلى الكتاب الذي تُجمع فيه قصائد الشّاعر. وربّما أُطلق الدّيوان على كلّ مجلس يُجتمع فيه لإقامة

المصالح، أو للنّظر فيها. وسُمِّيَ الشّعر ديوان العرب، لأنّهم كانوا يرجعون إليه عند اختلافهم في الأنساب والحروب وإجراء الأرزاق من بيت المال، كما يرجع أهل الدّيوان إلى ديوانهم، عند اشتباه شيء عليهم، أو لأنه مستودع علومهم، وحافظ آدابهم، ومعدن أخبارهم».

-II-

انطلاقاً من هذا الاستشهاد الطويل، عمْداً، يمكن الزَّعْمُ أنّ في أصل كلمة «ديوان»، وفي تنوّع استخدامها ودلالاتها، ما يتيح لنا أن نستخدمها بمدلول جديد آخر: «ديوان النثر العربي»، استناداً إلى دلالة «الجمع» على الأقل.

يقدّم هذا العمل شهادةً على غِنى التراث النثريّ العربيّ، وعلى تنوّعه وعلوّه، جماليّاً ولغويّاً. وأرجو أن يدفع المعنيين إلى القيام بقراءات أخرى لهذا التراث العظيم وتقديم شهادات أخرى، من زوايا أخرى مختلفة.

يصدر النثر العربيّ، كما يبدو في هذا العمل عن ثقافة مركّبة وصفها الجاحظ بأنّها «ثقافة الأذهان اللّطيفة، والتدابير العجيبة، والعلوم الغريبة». وهو، إذاً، ظاهرةٌ مدينيّةٌ - مدنيّة.

يتّجه النثر أساسيّاً إلى القارئ. فلئن كان الشِّعر، من حيث نشأته، طبيعةً أو فطرةً، فإنّ النثر، من حيث نشأته، صناعةٌ. لكن في التطوّر، أصبح كلٌّ منهما طبيعة وصناعة في آن.

هذا العمل يُخرج النثر من سلطان الشّعر، بحصر الدّلالة، ومن معاييره، بحيث يوضع النثر والوزن على طاولة واحدة هي الكتابة. ولا يعود التّفاضل يُلتمس إلا في مُسْتوى الكتابة، نثراً ووزناً.

في النّثر، كما يقدّمه هذا العمل، ما يُنهي فكرة النّموذج. وما يقدّم الارتباط العضويّ بالحياة والتجربة، على الذاكرة. وهذا يعني أنّ النّثر ثقافة، بالمعنى العميق والواسع لهذه الكلمة. وهو ما تُشير إليه عبارة الجاحظ. هكذا لا تقوم

علاقته مع المجتمع على الحفظ، كما هي الحال في الشّعر، وإنّما تقوم على القراءة.

إلى القراءة، أدعوك، أيّها القارئ الصّديق.

-III-

أما بالنسبة الى «النثر الصُوفيّ»، فإنَّ المختارات التي انتقيتُها منه تُساعد على التحرُّرِ من الأحكام الشَّائعة عن التصوُّف. وهي إجمالاً أحكام سطحيَّة، وبخاصَّةٍ تلك التي يطلقها باسم العقلانيَّة، بعض المفكرين العرب، وتلك التي يطلقها باسم الدين، المتديّنون السَّلفيّون، وتلك التي يطلقها باسم التقدُّم بعض الكتَّاب ممن يعملُ في الحقل السياسيّ. كلا، ليس التصوّف سحراً أو شعوذةً، كما يرى أهل العقلانية، وليس كفراً أو مروقاً أو زندقة، كما يرى أهل السلفيَّةِ والأصوليات، وليس انعزالاً أو دروشة كما يرى أهلُ النضالِ والسياسةِ.

التصوّف حركة تضعُ أصحابها في حالةِ انعتاقٍ كامل، على جميع المستويات.

إنَّه في المقام الأوَّل، نظامٌ قائمٌ على التَّناغُم والحبِّ، يكتشفه كُلُّ فردٍ بنفسه، لا بالوساطةِ. وهو نظامٌ قائمٌ على رفض مبدأ السُّلطة، وكُلِّ مثال أو نموذجٍ مُسبَّقٍ جاهز. إنَّه مُناخٌ معرفيٌّ لهدم سلطةِ الخارج وبناءِ سلطةِ القلب. والمعرفةُ هنا نقيضٌ للمعرفةِ في تحديدها الوثيقِ العلاقةِ بإنتاج السُّلطة. ذلك أنَّ المعرفة، في التصوّف، إنَّما هي تجسيد للحريَّة، بينما السُّلطة تجسِّدُ الاستبداد. هكذا يعملُ التصوُّف على تغيير الحياة، بَدْءاً من تغيير الفرد. فتغييرُ الحياة ـ الموضوع، مشروط بتغيير الحياة ـ الذات.

وفي هذا الأفق، يبدو التصوُّف حركةً فنيَّةً، إلى جانبِ كونهِ حركةً معرفيَّةً ـ فكريَّة.

والإبداع الفنّيّ هو أساساً، إبداعٌ معرفيٌّ كمثلِ التصوُّف. إنَّه تجربة في المعرفةِ والكشف. وإذاً تجربة في الحريّةِ والتحرُّر. فأن نبدعَ هو أن نمنحَ حياةً

لما لم يولد بعد، فيما نتحرَّرُ من أنواعِ الإكراهات، جميعاً. هو أن نبتكر خارجَ الطرق المعروفة، وأن نفتتح طرقاً جديدة بقوَّة المخيّلة، لاكتشاف أقاليم معرفية جديدة.

ولئن كان كلُّ إبداعٍ بدايةً، فإنَّه رفضٌ بَدْئيٌّ لكُلِّ سُلطة، سواء كانت دينيَّةً أو فكريَّةً، سياسيّةً أو اجتماعيّةً. كُلُّ مُبدعٍ بادئ: لا قواعدَ ولا مسبَّقات.

في هذا الإطار، ينبغي أن نقرأ النثر الصُّوفيّ. وسوف يكتشفُ القارئ أنَّ النثر أكثر صعوبةً من الشِّعر، وأنَّه أوجُ الفن الكتابيِّ، كما يقول فلوبير، وأنَّه يمثّلُ مدى جماليَّاً، متنوِّعاً، قلَّما نعثرُ عليه في الشِّعر.

النثرُ الصوفيُّ انفجارٌ لغويٌّ داخل الكتابةِ العربيَّة. إنَّ فيه كيمياء أدت إلى ابتكار أشكالٍ من التعبير، لا نراها في الشِّعر. إنَّه كيمياء تجعلُ من النثر فضاءً مفتوحاً بلا نهاية على مجهولِ الأشياء والأشكال.

هكذا يبدو النثرُ الصُّوفيُّ كأنَّه في آن عمقٌ إحساسيٌّ، وجدَّةُ فكرٍ، وإتقانُ تحوّلٍ.

وهو في ذلك، يؤكِّدُ لنا أنَّ موزون الشِّعر العربيِّ ليس هو وحده الذي يجسِّدُ معنى الشعريَّةِ العربيَّةِ، على نحو كامل ومغلق، وإنّما يُشكِّلُ كثيرٌ من المنثور الأدبيِّ العربيّ جزءاً جوهرياً من هذه الشِّعريَّة. ولا أُبَالِغُ إذا قلتُ: إنَّ في هذا المنثورِ الصُّوفيّ شعراً لا يضاهيه إلا القليلُ مما نعرفهُ من الموزون. بل إنَّ ثمة نماذجَ من هذا المنثور يمكن أن تكونَ من الينابيع الأولى للكتابة الشِّعريَّةِ العربيَّةِ.

ونعرفُ أنَّ شعريَّة الموزون، تقومُ على مصطلح العروض. وهو مصطلح لاحق، أي أنَّ الشِّعرَ سابق عليه. وقد سادَ هذا المصطلح، طول المرحلةِ التاريخية السَّابقة لأسباب يمكن تعليلها وتأويلها، على الصعيدِ التاريخيّ الحضاريّ. غيرَ أنَّ لغلبته أيضاً سبباً ذاتياً يكمن في مطابقتهِ للواقع المعطى،

نفسيّاً واجتماعيّاً. لكن هذا المصطلح لا يستنفدُ الشعريَّة، فنيَّاً، وهو، بالتالي، لا يحولُ، تجريبياً وعلمياً، دونَ نشوءِ مصطلحٍ آخرَ يجاورهُ ويكمّلهُ.

نعرفُ كذلك أنَّ التجديدَ، إبداعاً وكشفاً، جوهر الإنسان والحياة. فهو طبيعة ثانية تلازمُ طبيعتنا الأولى. ومدارُ التجديد هو، على صعيدِ النظرة، اكتشافُ عوالم مجهولة أو ارتيادُ مناطق مجهولة في عوالم معروفة. وهو، على صعيد التعبير، ابتكارُ أشكال وبُنى جديدة، أو مزجٌ تكوينيٌّ غير مألوف.

والتاريخُ الفنيُّ لدى جميع الشعوب إنَّما هو هذه الانقطاعات وهذه المؤالفات: انقطاعاتٌ عن المعروف تكشف المجهول، ومؤالفات جديدة بين ما ألفناه وما لم نألفه. وتاريخ الإبداع الإنساني هو في هذا التفجُّر المُكتشف، المنقطع المتآلف.

-IV-

نعرفُ أيضاً أنَّ الممارسة الكتابيَّة الشِّعريَّة التي بدأت تؤسِّسُ الشعريَّة العربيَّة في النصف الثاني من القرن العشرين، تكشفُ عن القضايا التالية:

أولاً - العروضيَّةُ التي حدَّدت النَّوعَ الشِّعريَّ الذي ورثناه، تفقدُ مسوِّغاتها، ميدانياً وتجريبياً. فثمة لدى الشعراء العرب اليوم ميلٌ كيانيٌّ للكتابةِ شعريّاً بالنثر، وميل كِيانيٌّ لإهمالِ العروضيّةِ أو لتجاوزِها. بدلاً من التوكيدِ على المفهومِ التقليديّ للقصيدة، يتجهون إلى التوكيدِ على مفهومِ النص. وبدلاً من قالبيّة الوزنِ، يتجهون نحو حركيّةِ النثر.

وبَدْءاً من ذلك أخذوا يميّزون بين النَّظمِ والشِّعر، بدلاً من أن يميّزوا، مثل التقليديين بين الشِّعر والنثر. أصبحت طريقةُ استخدام اللغة المقياسَ المُمَيِّز.

ثانياً - النثرُ كما يمارسهُ هؤلاء الشُّعراء إنما هو نثرٌ آخر، ما نزال ننتظرُ الناقدَ البصيرَ الخلاقَ الذي يكشفُ لنا عن أسسهِ الفنيَّةِ وآفاقهِ الجماليَّةِ. وإذا كان بعضهم يقولُ، بإصرار، إنَّهُ ليس شِعْراً، فمن الممكن القول، باليقينِ نفسهِ، إنّه كذلك ليس نثراً عادياً، وإنَّما هو نوع كتابيٌّ جديد.

ثالثاً ـ نتاج هؤلاء الشُّعراء آخِذٌ في إرساء مصطلح جديد، هو مصطلحُ الكتابة، وهو مصطلح عربيٌّ خالص، أُهمِلَ بسبب من طغيان العروضيّةِ. والكتابةُ إنشاء، أي خلْق لا على مثال. وليست الإنشائية صفة من خارج تميّز الكتابة الشعرية، وإنما هي أيضاً صفة من داخل: أن تنشئ هو أن تكتب نصّاً تتحقّق في بنيته مجموعة من الخصائص تميّزه عن الكتابةِ العادية، وتُضفي عليه خصوصية الكتابة الفنيّة ـ الشعريّة.

رابعاً ـ هناك نتاج راهن لا أتردَّدُ في وصف بعضهِ بأنَّه شِعر. ومع ذلك لا يمكنُ إدخالهُ في الأنواع الأدبيّةِ التقليديّة: ليس نثراً كالنثر، وليس وزناً كالوزن، وإنما هو كتابةٌ مُغايرةٌ. وهذا النتاج هو، اليوم، الأكثر إثارةً للتساؤل، والأكثر انغراساً في الحقل الكتابيِّ ـ الأدبيِّ. ثم إنَّه يخلقُ عالماً جديداً من العلاقات بين اللغة والأشياء، وبين اللغة والإنسان. وبما أنَّ هذه العلاقات هي ميدان التعرُّف على حداثة النصِّ، فإنَّ الشعرَ الذي لا يخلق مثل هذه العلاقات الجديدة قديمٌ وإن يكن مكتوباً في لحظتنا الحديثة، الراهنة.

-V-

أودُّ أن أضيف إلى ما تقدَّم، هذه الإيضاحات الثلاثة:

أولاً: لقد تغيَّر مفهوم الشِّعر، وأصبحَ هذا التغيُّر بَدَهيّاً بحيث أنَّه لا يحتاج إلى برهان أو حتى إلى مناقشة ومن الطبيعيّ أن يرافقهُ تغيُّر في مفهوم الشّاعر.

فالشَّاعِرُ، اليوم غيره سابقاً، من حيث أنّه يعيش في مُشكليَّة قديمة لم يعشها الشاعِرُ القديم، بعامة: فهو إمَّا أنَّه ينحاز إلى الموضوع/إلى العالم والأشياء، مُرَكِّزاً اهتمامهُ على الخارج، بشكلٍ جديدٍ، وإمَّا أنَّه يتعمَّقُ في اكتشاف الداخِل واستقصاء أبعاده، بشكلٍ جديدٍ أيضاً، وإمَّا أنَّه يصدر عن الوحدة الجدليَّة بين الدَّاخل والخارج، بشكلٍ جديد، كذلك.

وفي ضوءِ هذا التغيُّر، يتغيَّرُ النَّظَرُ إلى موروثنا الكتابيِّ. نجد، مثلاً، صفحاتٍ كثيرةً في كتبٍ معدودةٍ نثراً خالِصاً، لا نقدر إلا أن نعدّها، على

العكس، شِعْراً خالصاً. ونجد، مثلاً، صفحاتٍ كثيرةً في كتب معدودةٍ شعراً خالصاً لا نقدر إلا أن نعدَّها، على العكس، نثراً خالصاً. من النَّاحية الأولى، مثلاً، تنقلنا «الفتوحات المكيّة» لابن عربي إلى عوالم شعريَّة أغنى، بما لا يُقاس، من العوالم التي ينقلنا إليها الشِّعرُ الأموي، مثلاً.

والحساسيَّةُ التي تكشفُ عنها إزاء الكون، والله والذَّات، أعمق وأكثر بعداً من تلك التي يكشفُ عنها الشعرُ الأموي. ونادراً ما نجد في الكتابة الموزونة العربيَّةِ ما يضاهي نثر التّوحيديّ في «الإشارات الإلهية».

ومن الناحية الثانية، قلّما نعثر على غيرِ النثرِ العاديِّ المبتذل في دواوين كثير من الشعراء نرى تعدادهم نافلاً.

كذلك نجد أنَّ اللغة الصوفيَّة تمكَّنت من تحقيق ما لم يحققه الشِّعر الموزون، أعني الخروجَ على اللغةِ الدينيَّةِ بمعناها السائد. فالله الذي يُعَدُّ «الموجود المقدَّس الأسمى» في الثقافة التقليدية، الشِّعرية منها والنثريَّة، لا يمكن الوصولُ إليه، إنسانيّاً، أو إنشاءُ أيِّ نوعٍ من الحوارِ معه، كما أنَّه يُعَدُّ ضرباً من المروق أو الكفر، الإخبارُ عنه، إلا في حدود «نصوص الدين المُوحى»؛ غير أنَّ اللغة الصُّوفيَّة تُفصِحُ عن تصورٍ جديدٍ لمعنى الألوهة حيث يصيرُ «الله» موضوعاً مباشراً للشُّعور بعد أن كانَ في لُغةِ الثقافة التقليدية ـ كما تجلّى ذلك في شعرها ونثرها ـ مفارقاً عالياً غامضاً.

والله من حيث هو موضوعٌ مباشر للشُّعور، في التجربة الصوفيَّة، يصيرُ مساوقاً لحالات هذا الشُّعور، ويمتزجُ بها في عالمِ الحياةِ اليوميّةِ للمتصوِّف، فيصيرُ كُلُّ تفصيلٍ حياتيٍّ مهما قلَّ شأنه أو زاد، مرتبطاً بجدليّة العلاقة مع الله. وعلى هذا الأساس تنعطفُ اللغةُ الصُّوفيّةُ نحو بيان أمرٍ معقّد، يتعلّقُ بإمكان الإفصاح عن كيفيَّةِ حضورِ العظمةِ الإلهيّةِ في عالم الحياة اليوميَّة.

ثانياً: يوضِّحُ تطورُ الحساسيّةِ الشعريّةِ العربيّةِ، وتطور الكتابةِ، وتغيُّر مفهوم النصِّ الشِّعْرِيِّ، أنَّ النوعَ الشِّعري، بالمعنى الموروث، لم يعد المقياس الوحيد

النهائيّ للخصوصية الشعريّة، وأنَّه يتضمّن إلى جانب الشعر الخالص، النثر العادي الخالص. ومعنى ذلك أنَّه مزيج: هو أحياناً شِعر، وهو تارة مجرَّد نظم، وهو، في الغالب نثرٌ مصبوب في قالب الوزن.

ثالثاً: إنَّ أشكالَ هذا النَّوعِ الشِّعريِّ أصبحت هرمة جداً، في عالم شِعْرِيٍّ فتيٍّ جدَّاً؛ وإنَّه لذلك أصبحَ مغلقاً في مجتمعٍ يتفتَّحُ باستمرار. لابد، إذاً، من شعر منفتحِ انفتاح الحياة.

وهذا الانفتاح ذاته يمكن أن نكتشفه في اللغةِ الصوفيَّة، فنحنُ نجدُ داخل اللغة الصوفية نفسها لغات مختلفةً، أو بالأحرى نكتشفُ في الخطابِ الصُّوفيّ عامةً خطابات متعددة تصلُ إلى حدِّ التباين والتناقض، بشكلٍ يدلُّ على حركيّةٍ تُعبِّرُ عن واقع الحياة في انفتاحها المستمر.

فنحنُ نلاحظ في هذا المنحى وجود خطاب صوفيٍّ معتدلٍ يجترحُ عوالِمَهُ الخاصَّة العميقة دونَ أن يضعَ نفسهُ في مواجهةٍ مع «ظاهرِ الشريعة»؛ بل يعدُّ نفسه تكملةً ضمنيّةً ضروريةً لها، لكن دونَ الطعن بثوابتها أو التشكيكِ بآفاقها النهائيّةِ. وهذا ما نراهُ واضحاً في نثر أوائل الزُّهاد مثل الفضيل بين عياض (مات سنة 187 هـ)، وإبراهيم بن أدهم (مات سنة 161 هـ)، وبشر الحافي (مات سنة 227 هـ) ... الخ.

ونجد أنَّ هذا الخطاب المعتدل يستمر في البقاء، وصولاً، إلى أبي القاسم الجنيد (مات سنة 297 هـ). فقد حافظ الجنيد في تصوُّفهِ على توازنٍ دقيق بين التجربةِ العرفانيةِ وثوابتِ الشريعة، حيث تُظْهِرُ لُغته ـ كما سوف يُلاحظ القارئ ـ قدرةً فائقةً على الكشفِ الحَدْسي الذي يدل بوضوح على أنَّ الحياة، بحضورها الظَّاهِرِيِّ بتجلياته كافّةً هي وهم لا طائل منه؛ لكن في الوقتِ ذاته نرى أنَّ الجنيد لا يسمح لنفسه ـ لُغويَّاً ـ على الأقل، بأن يُستهلك في شهود الربوبيَّةِ، إلى حدٍّ يُبقي شعورَهُ الحيّ المشبوب، مأسوراً، في حدودِ لغةٍ لا تخالِفُ ظاهر الشريعة.

لكن من حلقةِ الجنيد أو مدرستهِ تبزغُ إلى النور ظاهرة لغويّة تكشفُ عنها تلك التجربة التي عاشها الحلاج، (مات سنة 305 هـ).

والحقيقة أنَّ لُغة الحلاَّج أحدثت في اللغةِ الصوفيَّة عامة تحوّلاً جوهريّاً، سواء على المستوى الفكريِّ أو على المستوى الفني. فطريقةُ الحلاج في التعبير عن خوالجِ شعورهِ تتّسمُ بخصائصَ، تُضفي على خطابهِ طابعاً مغايراً لما هو سائد في الخطابات الصوفية السابقة.

فأهميَّةُ اللغة الحلاجيَّةِ تكمنُ في نوع من التّماهيِ بين الله والإنسان، لا يمكن أن يُقرأ في أفقِ الانسجامِ أو التناغم؛ وإنَّما هو في أعمق أعماقه تمزُّق في الشخصيّةِ الصوفيّةِ. فالصوفيُّ لا يستطيعُ أو لا يقدرُ أن يصيرَ إلهاً كاملاً؛ وبالمقابل لم يعد بمقدوره الرجوع إلى إنسانيته العادية. وها هي الصرخة الحلاجية المدويّة تعبِّرُ عن ذلك خير تعبير:

«يا أهل الإسلام أغيثوني.

فليس يتركني ونفسي فآنَس بها،

وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها،

وهذا دلالٌ لا أطيقه».

وكذلك نجد بالإضافة إلى خطاب الجنيدِ المتوازنِ وخطاب الحلاج الجامح خطاباً من نوعٍ خاصٍّ نكتشفه عند النِّفَّريّ (مات بعد عام 354 هـ).

تتميَّزُ لغةُ النِّفَّريِّ بأنَّها تستنفذُ الإمكانيات المعرفيّة في اللغةِ عامة. والمتعمِّقُ فيها يكتشفُ بأنَّها لغة لا تأسرها الأفكار التي تُفصِحُ عنها. فقارئ لغةِ النِّفَّريِّ ما أن يصل إلى يقين حتى يتنبَّه إلى أنَّه نوعٌ من الوهم. كأنما اليقين هو اللايقين. وكأنّ الحقيقة هي البحث الدائم عن الحقيقة. ومن هذا المنطلق تنتهي اللغة التي جاء بها النِّفَّريُّ إلى أن تثور دائما على ذاتها، بحثاً عن إمكانيات مجهولةٍ فيها. هكذا تفتحُ الموجودَ الإنساني على آفاقٍ أكثر عمقاً في العلاقة مع الألوهةِ

والوجود والحياة بتفاصيلها كلّها. يقول النِّفَّرِي: «أوقفني وقال لي: لا يعرفني الحرف ولا يعرفني ما عن الحرف ولا يعرفني ما في الحرف».

ومن هنا نلاحظ أن هذه الخطابات الصُّوفية وغيرها مما سوف يطّلعُ عليه القارئ تدل على انفتاحات كتابية تتعانق مع انفتاحات الحياة. وهذا ما يحتاج إليه الشعرُ اليوم فلا بدَّ من أن تنشأ مفهومات جديدة للكتابة الشعريّة، تجد في المتصوفين منطلقات أساسية لها.

-VI-

قد تثير هذه الأطروحة ردود أفعالٍ كثيرةً ومتنوِّعةً في دوائر الفكر العربيّ السائد. وذلك أنَّ هذا الفكر تائه في دوامة الماضي: كل ما يجابهه يرفضه إذا لم يجد له ما يسوِّغه باسم هذا الماضي، أعني الماضي بالمعنى المركزيِّ التقليدي. هكذا يعجزُ عن أن يقدم بديلاً ويكتفي بأن يقدم تنويعاتٍ على الأصول المطلقة القديمة. وبعض هذه الردود سيتم بدوافع التسيّس المؤسّسي أو بدافع «الهوية» و«الأصالة» كما تفهمها السلفية الثقافية بتنويعاتها جميعاً لكن ليس لردود الأفعال هذه أيّ مستند فني أو علمي ولذلك لا قيمة لها.

-VII-

وسوف تثيرُ هذه الأطروحةُ تساؤلات على الصعيد الفني الخالص وهذه مهمة. وربما أمكن حصرها في تساؤلات ثلاثة:

الأول: أنت هنا تقول بنوعٍ من العودة إلى الماضي، فيما تقول برفض الماضي. كيف تفسِّر ذلك؟

والجواب هو أنَّ المسألة في الواقع ليست مسألة عودة أو رفض وإنما هي مسألةُ تمييز بين مستويين للنتاج الأدبي العربي.

المستوى الأول هو الذي يشمل النتاج الذي قمعه هذا النظام ورفضته آليته التقويمية المؤسسية. والكشف عن نتاج هذا المستوى وإعادة تقويمه ليسا عودةً إلى الماضي، بل هما دخولٌ في حاضر لم يتح له أن يحضر.

إنهما إذاً دخول في الحركة وانخراط في المستقبل. إنهما بتعبير آخر كشف عن آنية ذلك النتاج وحضوره وحداثته؛ كان ذلك النتاج معزولاً سجيناً ونحن هنا نحرره ونطلقه. وكانَ مُنوَّماً ونحن هنا نوقظه.

أما الثاني، فهو: الفن/الشِّعر شكل. والقصيدة مهما تحررت تشكيلٌ وبنية. وأنت في أطروحتك تخرج من الشكل إلى اللا شكل. كيف تفسِّر ذلك؟

والجواب هو أنَّ الكتابة الشِّعريّة إعادة نظر دائمة لا في ما هو خارجها فحسب، بل في ما هو داخلها أيضاً، في الكتابة ذاتها، في لغتها، وفي فضائها معاً. إن قيمة الكتابة الشعرية الجديدة من حيث أنها تحاول أن تقول ما لم تقله الكتابة القديمة إنما هي في انشقاقاتها وتفجراتها.

التساؤل الثالث يتصل بالتراث والعلاقة بين الشاعر «الحديث» والشاعر «القديم». والجواب أنَّ هذه المسألة ليست فنية وإنما هي مدرسية ـ تاريخية تفيد في دراسة آلية التقليد. هكذا ليس «التراث» على الصعيد الإبداعي ملزماً. إذ ما المعيار الذي يجعل مثلاً طرفة بن العبد أو زهير بن أبي سلمى أكثر تأصلاً في التراثية من الأعشى أو الحطيئة؟ ليس هناك أي معيار «تراثي». المعيار الوحيد هو الإبداعية الفنية. وبهذا المعنى ليس الإبداع «تراثاً» وانما هو بداية دائمة.

من هنا لا بدّ من أن نتجاوز هذه المسألة. وفي هذا التجاوز يجب أن نؤكد على أنَّ العلاقة الوحيدة بين الشاعر الحديث والشاعر القديم هي أنهما يكتبان بلغة واحدة، وأنهما في ائتلافهما ضمن هذه اللغة الواحدة مختلفان إبداعياً. وفي هذا المستوى يتساوى الشعراء كلهم في العلاقة مع «التراث»: ما يبدو بينهم أنّه الأكثر رفضاً وما يبدو بينهم أنَّه الأكثر قبولاً.

أدونيس

(بيروت، أواخر أيلول 2011)

النعمان بن المنذر*

التفكُّرُ نورٌ، والغفلة ظلمةٌ، والجهالة ضلالَةٌ.

*

انظرْ إلى الدّهر تجده أياماً ثلاثة:

يوماً مضى لا ترجوه،

ويوماً بقي لا بدّ منه،

ويوماً يأتي لا تأمنه.

*

* من ملوك آل غسان قبل الإسلام.

عمرو بن مالك بن ضبيعة*

زائرها واقفٌ، وساكنها خائفٌ.

الشبْعَى بها نائمةٌ، والمهزولةُ ساهرةٌ جائعةٌ**.

*

---

* عمرو بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة: شاعر عاش قبل الإسلام.

** وصف بلاد.

جعادَة بن أفلح*

لا تُشْعر قلبك الجزعَ على ما فات، فيغفُلَ ذِهنُك عن الاستعداد لما يأتي.

*

لو كان الجزعُ يردُّ فانياً أو يُحيي تالِفاً، لكان فِعْلاً دنيئاً،
فكيْفَ به وَهْو مجانِبٌ لأخلاقِ ذوي الألباب؟

*

ارغبْ بنفسك عمَّا يتهافتُ عليه الأرذلون.
وصُنْ قدرك عمَّا يركبهُ المخسوسون،
وكن على ثقةٍ أن طمعكَ في ما استبدّتْ به الأيّام، ضِلَّةٌ كأحلام النيام.

*

---

* من حكماء قومه، وهو هنا يعزي ملكاً من ملوك اليمن قبل الإسلام.

هاني بن قبيصة الشيباني*

هالكٌ مقدورٌ، خيرٌ من ناجٍ فرورٍ.

*

إنّ الحذَرَ لا يُنجي من القَدر، وإنِ الصبرَ من أسبابِ الظفَرَ.

*

المنيّة ولا الدنيّة.

*

استقبالُ الموْتِ خيْرٌ من استدباره.

*

الطعنُ في ثُغرِ النُّحور، أكرمُ مِنْه في الأعجازِ والظُّهور.

*

---

* من فرسان قومه بكر بن وائل. من الشعراء الأبطال. الخطاب موجّه إلى قومه.

أسلم بن أقصى الخزاعي*

يا بَنِيَّ ... جودوا بالنوال وكفُّوا عن السؤال،
فلا تمنعوا سائلاً ولا تُماروا عالِماً أو جاهِلاً.
فإنّ العالِم يحجّكم فيغلبكم ،
وإن الجاهل يُلِحُّكم فيغضبكم.
فإذا جاء الغضب كان فيه العطب.
وإياكم والفجور بحُرَم الأقوام،
فإنه قلما انتهك رجُلٌ حُرْمةً، إلا ابتُلي في حُرمتِه.
وإيّاكم وشرْبَ الخمر، فإنها متلفةٌ للأموال، طلّابَةٌ لما لا يُنال،
وإن كان فيها صلاح البدن فإن فيها مفسدةً للعقل .
وإيّاكم والعجز والتواني، فإنهما يورثان الندامة، ويُكثران الملامة.
يا بَنِيَّ
أنتم مثل شجرة ثابتة الأركان، ملتفّةِ الأغصان، فلا تختلفوا فتذبلَ الأغصان، وتجفَّ الشجرة فتكونوا أشلاءً بكلِّ مكان.
يا بَنيَّ لقد أتت عليّ مئة سنة، ما شتمْتُ ولا شُتِمْتُ، ولا قُلتُ من لوم: ماذا صنعت.

*

* عاش قبل الإسلام. من بني الياس بن مُضَر.

قس بن ساعدة*

أقلّوا الخلاف على أمرائكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه.

واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، فتثبتوا فإن أحزم الفريقين، الركين، وربّ عجلة تعقب ريثاً.

وادّرعوا الليل فإنه أخفى للويل.

*

(...) من عاش مات، ومن ماتَ فاتَ، وكل ما هو آتٍ آت. إنّ في السمّاء لخبراً، وإنّ في الأرض لعِبراً.

مهادٌ موضوع وسقفٌ مرفوع. نجومٌ تمور، وبحارٌ لا تغور.

مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟

*

بادرُوا الأجل، ولا يغَرنّكُمُ الأمل، فكأنْ بالموتِ وقد نزل.

*

أكرمُوا الجلوسَ يعمُرْ ناديكم، وحامُوا عن الحقيقة يُرغَبْ في جواركم، وأنصفوا من آنفكم، يرفُق بكم.

وعليكم بمحاسنِ الأخلاق فإنها رفعة. وإيّاكم والأخلاقَ الدنيئةَ، فإنها تضع الشرف وتهدمُ المجد.

*

* كان خطيباً وحكيماً وأُسقفاً لنجران. مات حوالى سنة 600 م.

أيّها الناس شارفوا بأبصاركم في كرِّ الجديديْن، ثم أرجِعوُها كليلة عن بلوغ الأمل فإن الماضي عظةٌ للباقي.

ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز، فتنقطع حُجَتكم.

أيَها الناس، أمس شاهد فاحذروه، واليوم مؤدِّبٌ فاعرفوه، وغداً رسول فأكرموه .

*

سئل قس:

- ما أفضل العقل؟

- معرفة المرء نفسه.

- ما أفضل العلم؟

- وقوف المرء عند عِلمه.

- ما أفضلُ المروءة؟

- استبقاءُ الرجّل ماءَ وجهه.

- ما أفضلُ المالِ؟

- ما قُضِيَ به الحقوق.

*

من عيّرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك يجدُ من يظلمُه،

وإنْ عدلتَ على نفسكَ عَدَلَ عليكَ من فوقك،

وإذا نهيْتَ عن شيءٍ فابدأ بنفسك، ولا تجمعْ ما لا تأكلْ،

ولا تأكلْ ما لا تحتاج إليه، وإذا ادّخرتَ فلا يكونَنْ كنزكَ إلا فعلك.

ولا تشاورْ مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فَهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً.

ولا تدعْ في عنقك طَوقاً لا يمكنُك نزعُه إلا بشقِّ نفسك.

وإذا خاصمتَ فاعْدِلْ، وإذا قلتَ فاقتصدْ.

ولا تستودعنَّ سرَّك أحداً، فإنك إن فعلتَ ذلك لم تزلْ وجِلاً، وكانَ المستودَعُ بالخيار، إن جنى عليك كنت أولى به،

وإن وفى لك كان الممدوحَ دونَك.

*

الحارث بن كلدة*

- ما أصْلُ الطبِّ؟
- ضبط الشفتين والرّفق باليدين.
- فما الداء الدويُّ؟
- إدخالُ الطعام على الطعام.
- ما الجمرة التي تلتهبُ منها الأدواء؟
- التخمة التي إن بقيَتْ في الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت.
- ما تقول في شُرْبِ الدّواء؟
- اجتنب الدّواء، ما لزمَتْك الصحة. فإذا أحسَسْتَ من الدّاء بحركة فاحسِمْهُ بما يردعُهُ قبلَ استحكامه.

فإن البدنَ بمنزلةِ الأرض، إن أصلحتَها عَمرَت، وإن أفسَدْتها خَرِبَت.

*

---

* كان طبيباً. سأله كسرى عن طِبه فاخترنا بعض أجوبته.

أكثم بن صيفي*

إن وهنَ الكِبَر قد فشا في بدني،
وليس معي من حدّة الذهن ما أبتدئ به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإني إذا مرَّ بي الصواب عرفته.**

*

أكره طاعةَ العجز.
مع الكفاية العجز والبلادة، ومع الحاجة الفطنة والشهامة.

*

قد حلبْتُ الدَّهْرَ أشطرَه، فعرفتُ حُلوهُ ومُرَّهُ.

*

عَيْنٌ عرَفَتْ فذرفَتْ.

*

إنَّ أمَامي ما لا أسامي.

*

رُبَّ سامعٍ بخبري لم يَسْمَعْ بعُذري.

*

كلُّ زمانٍ لمن فيه.

*

---

* أحد حكماء العرب وفصحائهم. توفي سنة 9 هـ .

** أكثم بن صيفي مخاطباً رؤساء بني سعد.

في كلّ يَوْم ما يُكرَهُ.

*

كلُّ ذي نُصْرةٍ سيُخذَل.

*

قولُ الحق لم يَدعْ لي صديقاً.

*

أنْ أصبحَ عند رأسِ الأمر، أحبُّ إليَّ من أن أُصبح عند ذنَبهِ.

*

ويْلٌ لعالم أمْرٍ من جاهِلهِ.

*

يتشَابَهُ الأمْرُ إذا أقبَل، فإذا أدْبَرَ عرَفَهُ الكيِّسُ والأحمق.

*

لا تجيبوا في ما لم تُسْألوا عنه.

*

رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ ريْثاً.

*

أساءَ سمْعاً فأساء جواباً.

*

كثيرُ النُّصْح، يهجُم على كثيرِ الظنّة.

*

إن أفضل الأشياء أعاليها.

*

الحزْمُ مركبٌ صَعْبٌ.

*

العَجْزُ مفتاح الفقر.

*

حُسْنُ الظنّ وَرْطة.

*

شرُّ الملوكِ من خافَهُ البريء.

*

حسْبُك من شرٍّ سَمَاعُه.

*

في الجريرة تشترك العشيرة.

*

إذا قُرِعَ الفؤاد ذَهبَ الرُّقاد.

*

الحرُّ عزوف.

*

القريبُ من قرُب نفْعُه.*

*

لو تكاشفتم ما تدافنتم.

*

مُنْسَاقٌ إلى ما أنت لاقٍ.

*

* من أمثاله المشتركة مع بزرجمهر.

أكثِرِ من الباطلِ يكنْ حقاً.

*

الاعتراف يَهدِمُ الاقتراف.

*

بعضُ الجهل أبْلغُ من الحِلم.

*

الرأي نائم والهوى يقظان.

*

ربيعُ القَلبِ ما اشتهى.

*

الشباب شُعْبَةٌ من الجنون.

*

لكل ساقطةٍ لاقطة.

*

قتلت أرضٌ جاهِلها وقتل أرضاً عارفها.

*

إن بين حَيزومي وصدري بحراً من الكلم، لا أجدُ له مواقعَ غيْرَ أسماعكم، ولا مقارَّ إلا قلوبكم، فتلقّوها بأسماع صافية، وعقولٍ واعية. إنّ الهوى يقظان والعقلَ راقد والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مُهملة، والرويّة مقيّدة.

يا بني تميم! الكلمة مرْهونةٌ ما لم تنجم عن الفم، فإذا نجمت فهي نارٌ تلتهب. ورأيُ الناصح اللبيب، دليلٌ لا يجور.

*

إنّ أهل هذه الدار على سَفر لا يحلّون عقد الرِّحال إلا في غيرها.

وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك،

وارتحلَ عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معَك من سيظعَنُ عنك ويدعك.

*

الدُّنيا ثلاثةُ أيام: فأمسِ عِظة وشاهد عَدْل، فجعك بنفسه وأبقَى لك وعليك حكمته.

واليومَ غنيمة وصديق أتاك، ولم تأته،

طالتْ عليك غيبته، وستسرع عنك رِحلته،

وغدٌ لا ندري من أهلُه، وسيأتيك إن وجدك.

فما أحسَنَ الشكر للمُنعم، والتسليم للقادر.

وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاءُ الفروعِ بعد أصولها؟

*

أعظمُ مِن المصيبة سوء الخَلفِ فيها.

وخيرٌ من الخيرِ مُعطيه

وشرٌّ من الشرِّ فاعلُه.

*

قيس بن زهير العبسي*

يا معشرَ النّمِرِ عليكم بالأناة،
بها تُدرك الحاجة، وتُنالُ الفرصة.
وعليكم بالوفاء،
به يعيش النّاس،
وبإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة ومنْع من تريدون منعه قبلَ الإلحاح،
وإجارةِ الجار على الدَّهر.
وأنهاكم عن الغدر، فإنّه عارُ الدّهر،
وعن الرّهان فإنّي به ثكلتُ مالكاً أخي،
وعن البَغي فإنه قتل زُهيراً أبي.

*

* جاورَ النمر بن قاسط وتزوّج منهم ثم ارتحل عنهم مودّعاً بهذا الكلام.

حاجب بن زرارة*

رويَ زندك، وعلت يدك، وهيبَ سلطانك.

إنَّ العرب أمّةٌ قد غَلُظت أكبادها، واستحصَدت مِرَّتُها، ومُنِعَتْ دِرَّتُها، وهي لك وامقة ما تآلفتها، مسترسلةٌ ما لايَنْتَها، سامعة ما سامحتها. وهي العلقم مرارة، وهي الصابُ غضاضَة، والعسلُ حلاوة والماء الزلال سلاسةً.

نحن وفودها إليك، وألسنتُها لديْك.

ذمتنا محفوظة، وأحسابُنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة.

*

---

* من خطباء تميم. أوفده النعمان الى كسرى فخطب أمامه مدافعاً عن العرب.

وصيّة النعمان بن ثواب العبدي*

يا بُنَيَّ! الصارم ينبو، والجوادُ يكبو، والأثر يعفو، فإذا شهدْتَ حرْباً فرأيْتَ نارها تستعر، وبطلها يخطِر، وبحرها يزخَر، وضعيفها يُنْصر، وجبانَها يجْسُر، فأقلل المكث والانتظار، فإن الفِرار غير عار، إذا لم تكن طالب ثار.

وإياك أن تكون صيْدَ رماحها، ونطيح نِطاحِها.

يا بُنيَّ، كثرة الشراب تفسد القلب وتُقَلّل الكسب وتُجدُّ اللعب، فأبصر نديمك واحمِ حريمك، وأعِنْ غريمك

واعلم أن الظمأ القامح، خيرٌ من الريِّ الفاضح، وعليك بالقَصْد، فإن فيه بلاغاً.

*

---

* لا يُعرف تاريخ وفاته.

دويد بن زيد*

أوصيكم بالناس شراً، لا ترحموا لهم عَبْرةً، ولا تقيلوهم عَثَرةً.
قصّروا الأعنّة وطوِّلوا الأسنّة.
وإذا أردتُم المحاجزة، فقبل المناجزة.
المرءُ يعجزُ لا محالة.

*

لا تأسوا على فائت وإن عزّ فقدُهُ،
ولا تحِنّوا إلى ظاعِنٍ وإن أُلفَ قُربُه.

*

إذا مِتُّ فأَرْحبوا خطّ مضجعي، ولا تضنُّوا عليّ برحبِ الأرض،
وما ذلك بمؤدٍّ إليّ روحاً، ولكن حاجة نفسٍ خامَرها الإشفاق.

*

---

* وصيته لبنيه، ولا يُعرف تاريخ موته.

ذو الإصبع العدواني*

يا بُنيّ إنّ أباك قد فني وهو حيّ وعاشَ حتّى سئِمَ العيش فاحفظ عَنِّي:

ألِنْ جانِبَك لقومِك يحبّوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسطْ لهم وجهك يطيعوك.

ولا تستأثِرْ عليهم بشيء يسوّدوك، وأكرمْ صغارهم كما تُكرِم كبارهم يُكرمك كبارهم، ويكبرُ على مودّتك صغارهم.

واسمَحْ بمالك واعززْ جارك وأعِنْ من استعانَ بك وأكرم ضيفك، وصُن وجهك عن مسألةِ أحدٍ شيئاً فبذلك يتمُّ سؤددك.

*

* من كلام له في وصيةٍ إلى ابنه أُسَيْد.

أمامة بنت الحارث*

إنّ الوصية لو تركت لفضل أدبٍ تُركت لذلك منْكِ،
ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل.
لو أن امرأة استغنت عن الزوج لغِنىَ أبويْها، كنتِ أغنى الناس عنه،
ولكنَّ النساء للرجَال خُلقِنَ ولهن خُلِقَ الرجال.
إنك فارقت الجوَّ الذي منه خرجت، وخلّفت العُشّ الذي فيه درجْتِ، إلى
وَكرٍ لم تعرفيه وقرينٍ لم تألفيه،
فأصبح بملكهِ عليْك رقيباً ومليكاً، فكوني له أمَةً يكنْ لك عبْداً.
ولا تقع عينه منك على قبيح، ولا يَشمُّ منك إلا أطيَبَ ريح. والكحل
أحْسَنُ الحُسْنِ، والماء أطيَبُ الطيب المفقود.
لا تفشي له سرّاً، ولا تَعصي له أمراً.
اتقي الفَرح إن كان ترِحاً والاكتئاب عنده إن كان فرِحاً.
إنّ الخصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.
وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظاماً، يكنْ أشدّ ما يكون لكِ إكراماً، وأشدّ
ما تكونين له موافِقة يكن أطول ما تكونين له مرافِقة.
واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبّين حتى تُؤثري رضاه على رضاك،
وهواه على هواك في ما أحببتِ أو كرهْتِ.

*

* من كلام لها تُوصي به ابنتها.

عمرو بن كلثوم التغلبي*

ما عيّرتُ رجلاً قطّ إلا عُيِّرَ بي مِثْله، إن حقاً فحقاً وإن باطِلاً فباطِلاً.

ومن سَبَّ سُبَّ.

لا خَيْرَ في من لا يَغارُ لغيره كما يغارُ لنفسه.

وامنعوا القريبَ من ظلم الغريب، فإنك تذلُّ على قريبك، ولا يحلُّ بكَ ذُلُّ غريبك،

وإذا تنازعتم في الدّماء، فلا يكن حقكم للقاء، فرُبّ رَجُلٍ خيرٌ من ألف، وودٍّ خير من خُلف

وإذا خُذلتم فعُوا، وإذا حُدِّثْتُم فأوجزوا.

*

ما بكيتُ من زمان إلا دَهاني بعده زمان، ورُبما شجاني من لم يكن أمرهُ عناني.

أشجع القوم العطوف،

وخيرُ الموت تحت ظلالِ السيوف،

ولا خَيْرَ في من لا رويّة له عند الغضب، ولا في من إذا عُوتِب لم يُعْتِب.

من النّاس من لا يُرجى خيره ولا يُخاف شرّهُ.

ولا تبرِّحوا في حُبكم، فإنّه من برّحَ في حُبٍّ آلَ ذلك إلى قبيح بغض.

إني لم أمُتْ ولكن هَرِمت، ودخلتني ذِلة فسكتّ.

*

---

* من كلام له من وصية في أهله.

الحارث بن كعب*

ما صافحت يميني يمينَ غادِرٍ ولا قنِعَتْ نفسي بُخلّة فاجر،

ولا بُحْتُ لصديقٍ بسرّ، ولا طرحْتُ عن مومسةٍ قناعاً.

كونوا جميعاً ولا تفرّقوا.

بُزُّوا قبل أن تُبزّوا.

موت في عزٍّ خير من حياةٍ في ذلّ، واليوم يومان، يومُ حَبْرةٍ ويوم عِبْرة.

والدّهرُ ضرْبان: ضربُ بَلاءٍ وضربُ رخاء.

والناس رجُلان: رجُلٌ لك ورَجلٌ عليك.

*

لا راحة لقاطع القرابة.

*

المكافأة بالسّيئة دخولٌ فيها.

*

عمل السوء يزيل النعماء.

*

الإسراف في النصيحة هو الفضيحة.

*

* عاش قبل الإسلام. كان سيداً في قومه. من وصيته لقومه.

الحقد يمنع الرّفد.

*

الضغائن تدعو إلى التبايُن.

*

عامر بن الظَّرِب العدواني*

من جمع بين الحق والباطِلِ لم يجتمعا له وكان الباطِلِ أولى به.

وإِنّ الحقَّ لم يزل ينفِرُ من الباطل، ولم يزل الباطِلُ ينفِرُ من الحق.

*

لا تشمتُّوا بالذلة ولا تفرحُوا بالعزّة.

لا لكَ ولا عليك.

إذا شئت وجدت مثلك.

إنّ عليك كما أنّ لك،

وللكثرةِ الرُّعب، وللصبْرِ الغَلبة.

ومن طلب شيئاً وَجَدهُ وإِن لم يجدْه يوشك أن يقع قريباً منه.

*

* من عقلاء قومه. يخاطبهم وينصحهم.

أوس بن حارثة*

العتابُ قبل العقاب والتجلّد لا التبلّد.

*

القبر خير من الفقر.

وذهاب البصر خيرٌ من كثير من النظر.

*

الدّهر يومان: يومٌ لك ويوم عليك. فإذا كان لك فلا تبطئ، وإذا كان عليك فيستحسر. فإنما تعزُّ من ترى ويعزُّك من لا ترَى.

وكيف بالسّلامة لمن ليست له إقامة.

*

شرٌّ من المصيبة سوءُ الخَلف.

*

---

* أخو الخزرج، لم يكن له ولد إلا مالك ولأخيه خمسة. فعاتبه قومه في عدم زواجه.

أبو طالب*

إنَّ مُحمداً بن عبد الله، ابنَ أخي، مَنْ لا يُوازَنُ به فتى من قريش، إلا رجح عليه بِرّاً وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونُبلاً. وإن كان في المال قُلٌّ، فإنما المال ظِلّ زائل وعارية مُسْترجَعة. وله في خديجة بنتِ خويلد رغبة، ولها فيه مثْلُ ذلك، وما أحبَبْتُم من الصّداق فعليَّ.

*

* خطبته في زواج الرسول من خديجة.

المأمون الحارثي*

لو كُشِفت الأغطيةُ عن القلوب، وتجلّتِ الغِشَاوةُ عنِ العيون، لصرّحَ الشكُّ عن اليقين، وأفاق من نشوةِ الجهالة من استولت عليه الضلالة.

*

* عاش قبل الإسلام. وفي هذا الكلام يخاطب قومه.

قيس بن عاصم*

يـا بَنـيَّ، إذا مِـتُّ فسـوِّدوا كبـاركم، ولا تُسـوِّدُوا صـغاركم فيسـفِّهُ النـاس كباركم،

وعليكم بإصلاح المال، فإنه منْبَهةٌ للكريم، ويُستغْنَى بهِ عن اللئيم.

وإذا مُتُّ فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلّي فيها وأصوم.

وإياكم والمسألةَ فإنها آخِرُ مكاسبِ العَبْد.

أما والله لقد صَحِبْتِني سارّة، ولقد فارقتْني غير عارّة،

ولا صُحبتكِ مملولة، ولا أخلاقُكِ مذمومة، ولولا ما اخترتِ، ما فرّق بيننا إلا الموت.

*

قالت: أنبئْتُ بحَسبِك وفضلك، وأنتَ والله إن كُنْتَ إلّا الدائم المحبّة، الكثير المودّة القليلَ اللائمة، المُعْجِب الخلوة، البعيد النبوة، ولتعلمَنَّ أني لا أسكنُ بعدك إلى زوج.

فقال: ما فارقتُ شيئاً فتبعَتْهُ نفسي كما تبَعتها.

*

---

* أدرك الإسلام ودخل فيه. أما زوجته التي يتحدَّث معها فقد رفض أهلها أن تُسْلِم فأخلى قيس سبيلها.

الوليد بن المغيرة*

- يا معشر قريش! إنّه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقْدُمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضكم بعضاً.
- فأنت يا أبا عبد شمس، فقُلْ وأقِمْ لنا رأياً نقول به.
- لا، والله، بل أنتمُ، فقولوا أسْمَع.
- نقول: كاهِن.
- لا، واللهِ، ما هو بكاهِن، لقد رأيْنَا الكهَّان، فما هُو بزمزمة الكاهِن ولا بسجعهِ.
- فنقول: مجنون.
- ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقهِ ولا تخالجه ولا وسوسته.
- نقول: شاعِر.
- ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه، رجَزهُ وهَزَجَهُ وقريضهُ ومقبوضَه ومبْسُوطه، فما هو بالشِّعر.

---

* الوليد بن المغيرة المخزومي، ويُكنى أبا عبد شمس، كانَ مُسِناً في قومِه وذا رأي، وكان كيدُه شديداً للنبي، نزل به قرآن في سورة «المدثر»، الحوار بينه وبين جماعة من قريش في شأن النبي.

ـ نقول: ساحر.

ـ ما هو بساحر، لقد رأيْنا السُّحارَ وسحْرَهم، فما هو بنفثهم، ولا عَقْدهم.

ـ فما تقول يا أبا عبد شمس؟

ـ والله إن لقولهِ لحلاوة، وإنّ أصلهُ لعَذَق، وإن فَرْعَهُ لجَنَاة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطِل، وإنّ أقرَبَ القول فيه، لأن تقولوا: ساحِر جاء بقولٍ هو سحرٌ، يُفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرْء وزوجته، وبَين المرْءِ وعشيرته.

*

النثر النبوي

I. سيرة*

(...) إن حقيقة قولي وبَدْءَ شأني، أنّني دَعْوةُ أبي ابراهيم، وبُشْرى أخي عيسى بن مريم. وأنّني كنتُ بِكرَ أمّي، وأنّها حَمَلتْ فيَّ كأثقلِ ما تحمل. وجَعلت تشتكي إلى صواحِبِها ثِقَل ما تجد.

ثم إنّ أمّي رأتْ في المنام، أنّ الذي في بَطنِها نُور. قالت: فَجَعَلتُ أُتبعُ بَصَري النُّور، والنُّور يَسْبقُ بَصري، حتى أضاءَتْ لي مشارق الأرض ومَغاربها.

كنْتُ مُسترضَعاً في بني ليْث من بَكر، فبينما أنا ذاتَ يَوْم، منتبذ في أهْلي، في بطن وادٍ، معَ أتْرابٍ لي مِن الصبيان، نتقاذفُ بيننا الجلة، إذْ أتانا رهط ثلاثةٌ، معهم طستٌ من ذهب مُلِئ ثَلجاً. فأخذوني من بيْن أصحابي هُرّاباً، حتى انتهوا إلى شفير الوادي. ثم أقبلوا على الرّهط، فقالوا: ما أربُكم إلى هذا الغُلام، فإنه ليْس مِنّا. (...) فعمدَ أحدُهم، فأضجعني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شقَّ ما بَيْن مَفْرقِ صدري إلى مُنْتَهى عانتي، وأنا أنظرُ إليه، فلم أجدْ لذلك مَسّاً. ثُم أخرجَ أحشاء بطني، ثُم غَسلها، ثُم أعادَها مكانها. ثمَ قام الثاني منهم فقال لصاحبهِ: تَنَحّ، فنحّاهُ عَنيّ، ثُم أدْخَلَ يَدَهُ في جَوْفي، وأخْرجَ قلبي، وأنَا أنظر اليه، فصَدعَهُ، ثم أخرجَ مِنهُ مُضغةً سوداء، فرَمَى بها، ثُم مال بيدِه يُمْنةً مِنْه، كأنه يتناوَل

---

* رجل من بني عامر، جاءَ النبيَّ ليُسْلم، فاستخبرَهُ الرّجُل عن شأنِ نبوته في طفولته.

شيئاً، فإذا أنا بخاتمٍ في يَدِهِ من نُور، يَحَارُ الناظرونَ دونَهُ، فختم به قلبي، فامتلأ نُوراً، وذلك نورُ النبُوةِ والحكمة. ثم أعادَه مكانَهُ، فوجَدْتُ بَرْد ذلك الخاتم في قلبي دَهْراً.

ثم قال الثالِثُ لصاحبهِ: تنَحَّ عَني، فأمَرَّ يَدَهُ ما بَيْنَ مَفرِق صدري إلى مُنْتَهى عانتي، فالتأمَ ذَلِك الشقُّ، بإذنِ الله. ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً. ثم قال للأولِ الذي شقَّ بطني: زِنْهُ بعشَرةٍ من أمّتهِ، فوزنوني فرجحتهم، ثم قال: زِنْه بمئةٍ من أمتهِ، فوزنوني فرجَحْتُهم. ثم قال: زِنْهُ بألفٍ من أمتهِ، فوزنوني، فرجَحتُهم، فقال: دَعوه، فلو وزنْتُموه، بأمّتهِ كلها لرجحهم. ثُم ضَمُّوني إلى صدورهم وقبّلوا رأسي، وما بَين عينيَّ، ثم قالوا: يا حبيبُ، لم تُرَع. إنك لو تدري ما يُرَاد لك من الخَيْر، لقَرَّتْ عيْنَاك.

فلما رأى أهْلُ الحيّ مني ما رأوا، قال بعضهم: إنَّ هذا الغُلام قد أصابَهُ لممٌ، أو طائِف مِن الجنّ. فانْطلقوا إلى كاهنٍ حتى ينظرَ إليهِ ويُداويَهُ. فقلتُ: يا هذا، ما بي شيء مما تذكر. فإن آرائي سليمة، وفؤادي صحيح. فقال أبي، وهو زوج ظئري، ألا تَرَوْنَ كلامَهُ كلامَ صحيحٍ؟ إني أرجُو أن لا يكون بابني بأس.

قصُّوا على الكاهنِ قصتي، قال: اسكتُوا حتى أسمَعَ مِن الغُلام، فإنهُ أعلمُ بأمرهِ منكم. فاقتَصَصْتُ عليه أمري ما بين أولهِ وآخرهِ. فلما سمع قَوْلي، وثبَ عليَّ وضمني إلى صَدرهِ، ثم نادَى بأعلى صوتهِ، يا للعرب، يا للعرَب! اقتلوا هذا الغُلام، واقتلوني مَعَهُ، فواللاتِ والعُزَّى لئن تركتموهُ وأدْرَك، ليبدِّلنَّ دينكم، وليُسَفِّهَنَّ عُقولكم، وعقولَ آبائكم وليُخالِفنَّ أمركم، وليأتِيَنَّ بدينٍ لم تسمعوا بمثله قط. فعَمَدت ظِئري، فانتزعتْني مِن حِجْرهِ، وقالت: لأنت أعْتَهُ، وأجَنُّ، من ابني هذا. فلو عَلمِتُ أنّ هذا يكونُ من قولِك، مَا أتيْتُك بهِ، فاطلبْ لنفسك من يقتُلك، فأنا غَيْرُ قاتِلةٍ هذا الغُلام.

ثم احتملوني الى أهلي، فأصَبْحتُ مُفزَّعاً مِماً فُعِل بي. فذلك حقيقةُ قَوْلي، وبَدْءُ شأني، يا أخا بني عامر!

*

II. الأنصار*

ألم تكونوا ضُلّالاً فهداكم الله بي؟

ألمْ تكونوا خائفين فآمنكم الله بي؟

ألم تكونوا أذلاء، فأعزّكم الله بي؟ ثم قال: ومالي لا أراكم تجُيبون؟

قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: ألمْ يطردْكَ قومُك فآويناك؟ ألمْ يكذْبك قومك فصدقناك؟

فجثوا على الرُّكب، فقالوا: أنفسُنا وأموالنا لك يا رسول الله!

*

ليس خيركم من تَرك الدُّنيا للآخرة، أو الآخِرةَ للدُّنيا، ولكن خيركم من أخذَ من هذهِ وهذهِ.

*

ثلاثة، لا يخلوُ منهن أحد: الظنّ، والطيرَة، والحَسد. فإذا ظننتَ فلا تحققْ، وإذا حَسَدتَ فلا تَبْغِ، وإذا تطيرْتَ فامْضِ ولا تنثنِ.

*

III. خطبة**

(...) اسمعوا منّي أبيّن لكم فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا (...) أيُّها الناس ألا إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن

* من كلام له (ص) مخاطباً الأنصار.

** في حجة الوداع.

تلقَوا ربكم كحُرمةِ يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هَلْ بلّغت؟ اللهم اشهَدْ.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئِسَ أن يُعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رَضي أن يُطاع في ما سوى ذلك في ما تحتقرون من أعمالكم.

أيُّها الناس إنّما النّسيئ زيادةٌ في الكفر يُضل به الذين كفروا يُحِلّونَه عاماً، ويحرّمونه عاماً.

وإنّ الزّمانَ قد استدار كهيئتهِ يومَ خلق الله السموات والأرض.

*

ألا لا ترجعَنَّ من بعدي كُفّاراً يضرب بعضكم رِقابَ بعض.

فإنيّ قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتابَ الله وربّكم.

إن رّبكم واحِد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى.

*

IV. حوار*

قالوا:

يا رسول الله هذه سحابة.

ـ كيف ترَوْن قواعِدَها؟

ـ ما أحسْنَها وأشدّ تمكّنها!

ـ وكيف ترون رحاها؟

ـ ما أحسَنَها وأشدَّ استدارتها!

ـ كيف ترون بَواسِقَها؟

---

* بينما رسول الله جالس مع أصحابه إذ نشأت سحابة فجاء هذا الحوار.

ـ ما أحسنها وأشدّ استقامتها!

ـ وكيف ترون برقها أوَميضاً أم خَفيّاً أم يشقُّ شقاً؟

ـ بل يشقُّ شقاً.

ـ فكيف ترون جوْنَها.

ـ ما أحسَنَهُ وأشدّ سوادَهُ!

ـ إنه الحَيَا!

ـ ما رأينا الذي هو منك أفصح.

ـ ما يمنعني من ذلك؟ فإنما أُنْزِلَ القرآن بلساني؟

*

تجاوزوا لذوي المروءات عثراتهم، فوالّذي نفسي بيده: إنّ أحدهم ليَعْثرُ وإن يده بيد الله.

*

كادَ الحسدُ يغلِبُ القدر.

*

V. مخاطبة

لعلّك يا عَدَيّ* إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم. فوالله ليوشكِنَّ المالُ أن يفيضَ فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلّك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرةِ عدوِّهم وقلةِ عددهم. فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسيةِ على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من دُخولٍ فيه أنك ترَى أن المُلك والسلطان في غيرهم. وأيمُ الله ليوشكِنّ أن تَسْمَع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم.

*

---

* يقول عدي: إنه رأى كل ما أنبأه به رسول الله.

(...) فمن استطاع أن يقي وجههُ من النار ولو بشقّ تمرةٍ فليفعل. ومن لم يَجِدْ فبكلمةٍ طيّبة، فإن بها تُجَزى الحسنةُ عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف.

*

(...) وإنّي أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنْزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعمَ من كان قبلكم من أسباطكم المنَّ والسلوى، وأنشدكم بالذي أيْبسَ البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعونَ وعمله، ألا أخبرتموني: هل تجدون في ما أنزلِ الله عليكم أن تؤمنوا بمحمّد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلاُ كرهَ عليكم.*

*

VI. تعزية**

أما بعد، فعظّم الله لك الأجر وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر. ثم إن أنفسَنا وأهلينا ومواليِنا من مواهب الله السنيّة وعوارفه المستودعة، نُمتَّع بها إلى أجلٍ معدود، وتُقبض لوقتٍ معلوم. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى والصّبر إذا ابتلى. وكان ابنك من مواهبِ الله الهنيّة، وعوارفِهِ المستودعة متّعك به في غبطةٍ وسرور، وقبضَهُ منك بأجرٍ كثير: الصّلاة والرحمة والهدى، إن صَبْرت واحتسبت. فلا تجمعن يا معاذ عليك خصلتين، أن يُحبط جزَعُك صبْرَك، فتندمَ على ما فاتك. فلو قدِمْت على ثواب مصيبتك، قد أطعْتَ ربك، وتنجّزتَ موعودَه، عرفت أن المصيبة قد قصُرَتْ عنه. واعلم أن الجزع لا يردُّ ميّتاً، ولا يدفع حُزناً. فأحسن الجزاء، وتنجّزْ الموعود، وليذهب أسَفك ما هو نازِل بك، فكأن قَدِ...***

*

---

* من كلامه إلى يهود خيبر.

** النبي يعزي معاذ بن جبل في فقده ابنه.

*** أي فكأن قد نزل، لأنه نازلٌ لا محالة.

VII. إلى أكثم بن صيفي*

أحمد الله إليك، إن الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله، وآمُرَ الناس بها. والخلقُ خلقُ الله، والأمُر أمرُ الله، خلقَهم وأماتهم وهو يُنشرهم، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين.**

*

VIII. حوار

- ألا أنبئكم بشرار الناس.
- بلى.
- من نزل وحدَهُ، ومنَع رِفْدهُ، وجَلد عبده.
- ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟
- بلى يا رسولُ الله!
- من لا يُقيل عثرة، ولا يقبل معذرة.
- ألا أنبئُكم بشرٍّ من ذلك؟
- بلى يا رسول الله!
- من يبغض الناس ويبغضونه.

إن عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها. ولا تمنعوْها أهْلها فتظلموهم. ولا تكافئوا ظالمِاً فيبطل فضلكم.

---

* رسالة من النبيّ إليه.

** يقال: إن أكثم مات في طريقه إلى النبي طالباً الإسلام فبعث إسلامه مع من أسلم ممن كان معه.

يا بنـي إسرائيل الأمور ثلاثـة: أمرٌ تبيّن رشدهُ فـاتبعوه، وأمـر تبيّنَ غيّـهُ فاجتنبوه، وأمر اختُلِفَ فيه، فإلى اللهِ ردُّوه.

*

IX. حكم وأمثال

أيها الناس، إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم،

وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم.

إنّ المؤمن بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجل قد بقي لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه.

فليأخُذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرتـهِ ومن الشبيبةِ قبل الكبرة، ومن الحياةِ قبل الموت.

ما بعد الموْت من مُسْتَعتب، وما بعد الدُنيا من دار إلا الجنة أو النار.

*

النّاس كإبلٍ مئة لا تجد فيها راحلة.

*

إن الله قد قضى أنه من بُغي عليه لينصرُنَّه الله.

*

لا يُحيق المكرُ السيء إلا بأهله.

*

لو تكاشفتم لما تدافَنتم.

*

هلاكُ أمّتي على أيدي أُغَيْلمةٍ سفهاء.

*

ويلٌ للعرب مِن شَرٍ قد اقترب.

*

يقول الله: لولا رجال خُشَّعٌ، وصبيان رُضَّعٌ، وبهائُم رُتَّعٌ، لصببت عليكم العذابَ صبّاً.

*

إذا سادَ القبيل فاسقُهم، وكان زعيَم القوم أرذلهم، وأُكرِمَ الرَّجلُ اتقاء شرهِ فلينتظروا البلاء.

*

كلُّ أرض بسمائها.

*

لا تُغالوا في النّساء فإنّما هُن سُقيا الله.

*

إن الله يحبُّ الجوادَ من خلقه.

*

X. من الحديث النبوي

حُبُّ المال والشرف أذْهَبُ لدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا في زريبة غنم إلى الصباح، فماذا يُبقيان منها؟

*

الخيل تجري بأحسابها فإذا كان يومُ الرِّهان جَرَتْ بجدُود أصحابها.

*

أحسنُوا جوارَ نِعم الله ولا تنفِّروها، فقلّما زالت عن قومٍ فعادت إليهم.

*

أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السرِّ والعلانية،
والعَدْل في الغضب والرّضا،
والقصدُ في الفقر والغبن،
وأن أعْفُوَ عمن ظلمني، وأصِلَ من قطعني، وأعطي من حرمني،
وأن يكونَ نطقي ذِكراً، وصمتي فكراً ونظري عبرة.

*

لا نَذْرَ في مَعصية، ولا نَذْرَ للإنسان في غير ملكه.

*

لو لم تكونوا تُذنِبون خشيتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك.
قالوا يا رسول الله، وأيُّ شيء أكبرُ من ذلك؟ قال: العُجب.

*

أرأيتم لو كان لأحدكم عَسَل وله إناءان: أين كان يجعَلُ عسلهُ؟ قالوا: في أنظفهما وأطهرهما.
قال: كذلك الله تبارك وتعالى، لا يجَعلُ العلم إلا في أنظفِ القلوب وأحَبها إليه.

*

من بدا جَفَا.

*

إيّايَ والتشادُقَ.

*

أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون.

*

من رَعى حَوْل الحمِى يُوشِكُ أن يقعَ فيه.

*

الأملُ راحة لأمتي، ولولا الأمل ما أرْضَعتِ الأمُّ وَلداً، ولا غرسَ غارِسٌ شجراً.

*

إن الله يَسْأل المرْءَ عن جاهِهِ كما يسألهُ عَنْ مالهِ،
فيقول جعَلتُ لك جاهاً، فهَلْ نَصَرت بهِ مظلوماً، أو قمَعْتَ بهِ ظالماً؟
اللهم إني أعوذُ بك من نفسٍ لا تشبع، وقَلبٍ لا يخشَع، وعلم لا ينفع.

*

المُنتعِل راكبٌ.

*

الخير كثيرٌ ومن يَعْمل به قليل.

*

المُستشارُ مُؤتمن.

*

المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجرُ خِبٌّ لئيم.

*

الصبْرُ عند الصّدْمةِ الأولى.

*

التمسوا الرِّزقَ في خبايا الأرض.

*

لو دخل العُسر حُجراً، لدخل اليُسْر حتى يُخرجَهُ.

*

كفى بالمرء إثماً أن يُحدِّثَ بكلِّ ما يَسْمع.

*

الناس اثنان: عالم ومتعلم، وما عدا ذلك همج رعاع لا يعبأ بهم.

*

احثوا في وجوه المدّاحين التراب.

*

الشديد من غلب نفسه.

*

قيّدوا العِلم بالكتابة.

*

عِدَةُ المؤمن كأخذٍ باليد.

*

ترك الشرّ صدقة.

*

كادت الفاقَةُ أن تكونَ كُفْراً.

*

لم يبق من الدُّنيا إلا بلاء وفتنة.

*

إن الله يُحب العبدَ ويُبغضُ عمله، ويحب العمل ويبغض بدنه.

*

إذا غضِب الرّجل وهو قائم فليجلس، فإن ذهبَ عنه وإلا فليضطجع.

*

إنك إن فعَلت ذلك هجمت عيناك ونَفِهَتْ نفسك. إن لعينك حقاً ولأهلك حقاً ولنفسك حقاً،
فقُم ونَمْ وصُمْ، وأفِطرْ.

*

إن الصّدَقَةَ تقع في يدِ الله.

*

مثَلُ المؤمن كالنحلة تجمع في صيفها لشتائها.

*

البلاء موكّل بالمنطِق.

*

العائدُ في صدقتهِ كالكلب يعود إلى قيْئه.

*

أشدُّ الناس عذاباً للناس، أشدُّ النّاس عذاباً يوم القيامة.

*

الصّدقَةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النّار.

*

الهديّةُ تعوِّرُ عين الحكيم.

*

الهمُّ نصف الهرم.

*

ويل للأغنياء من الفقراء.

*

إذا سُئل أحدكم أهو مؤمن فلا يشك.

*

مثَلُ الفاجر كمثَل القبر المشرّف المجصّص يعجب من رآه وجوفه ممتلئ نتناً.

*

أيّما رجُلٍ صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجدْ له جزاءً إلا الثناء عليه والدُّعاء فقد كافأه.

*

لصاحب الحق اليدُ واللسان.

*

(...) حدثوا عن الجنة* بما شئتم، فلن تحدثوا عنها بشيء إلا وهي أشد منه. فمن ها هنا استجاز من استجاز صفة الجنة والنار بما لم يأت في الرواية، لأن الواصف وإن أفرط في الوصف لم يعْدُ مدى خاطر همته، وغاية معرفته ... لا يبلغ كنه ما فيها ولا بعضه، إذ لا غاية لها، ولا نهاية أبداً، أهل الجنة جُرْد، مُرْد، مكحّلون من أبناء ثلاث وثلاثين سنة ... على سن عيسى، وصورة يوسف، وقلب إبراهيم، وطول آدم، وصوت داود، ولسان محمد.

(...) إن الرجل منهم يُعطى قوة ألف رجل في الطعام والجماع. قالوا: وكيف المس، يا رسول الله؟ قال دَحْماً دَحْماً، إذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً، بذكر لا يملُّ، وفرج لا يحفى، وشهوة لا تنقطع. فقال يهود: من أكل يغوط. فقال: ولا يتغوطون، وإنما هو عرق يفيض من أعراضهم مثل المسك. فتضمر له بطونهم، وسُئل عن النوم فقال: النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون.

*

كان آدم لا يجامع امرأته في الجنة حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة. وكان كل واحد منهما ينام على حدة. وينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى، حتى أتاه جبريل فأمره أن

---

* صفات الجنة.

يأتي أهله. وعلّمه كيف يأتيها. فلما أتاها، جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة.

*

خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدرّ. وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنها الحمم. فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي. وقال للذي في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي.

*

عن عائشة، قالت: كان رسول الله، إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشرّ ما أرسلت به.

قالت: وإذا غيّمتْ السماء تغيّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرّي عنه.

XI
من غريب الحديث

يأتي على الناس زمان، يُستَحلُّ فيه الربا بالبيع، والخمرُ بالنبيذ، والبَخْس بالزكاة، والسُّحت بالهدية، والقتل بالموعظة.

*

لا يدخلُ الجنة من لا يأمَنُ جارُهُ بوائقَه.

*

إيّاكم والظنّ، فإن الظن أكذب الحديث؟
ولا تَجسَّسوا ولا تَحسَّسوا.

*

عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
يا بْنَ عَم ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك، هذا الذي يأتيك، إذا جاءك؟
قال: نعم.
قالت:
ـ فإذا جاءك، فأخبرني به.
فجاءه جبرئيل عليه السلام كما كان يأتيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة:
ـ يا خديجة، هذا جبرئيل قد جاءني.
فقالت:
ـ نعم، فقم يا بْن عم، فاجلس على فخذي اليسرى.
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس عليها.
قالت:
ـ هل تراه؟
قال:
ـ نعم.
قالت:
ـ فتحوّل، فاقعد على فخذي اليمنى.
فتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس عليها فقالت:
ـ هل تراه؟
قال:
ـ نعم.
قالت:
ـ فتحوَّلْ، فاجلس في حجري.

فتحول: فجلس في حجرها.
قالت:
ـ هل تراه؟
قال:
ـ نعم.
فتحسرّت، فألقت خمارها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، جالسٌ في حجرها. ثم قالت:
هل تراه؟
قال:
ـ لا.
فقالت:
ـ يا بْن عمَ، اثبتْ وأبْشِر، فو الله إنه لملكٌ، وما هو بشيطان.

*

عن عائشة، قالت: كانت جويرية جارية حلوة، لا يكاد يراها أحد إلا ذهبت بنفسه. فبينا النبي عندي، ونحن على الماء، إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها. فوالله، ما هو إلا أن رأيتها، فكرهت دخولها، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت.

قالت: يا رسول الله، إني امرأة مسلمة، وأنا جويرية بنت الحارث، سيد قومه، أصابنا من الأمر ما قد علمت، ووقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له، فتخلصني من ابن عمه بنخلات له بالمدينة، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان. وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك، فأعني في مكاتبتي. فقال رسول الله: أو خير من ذلك؟ فقالت: ما هو؟ قال: أؤدّي عنك كتابتك، وأتزوجك. قالت: نعم، قد فعلت. فأرسل رسول الله إلى ثابت فطلبها منه، فقال ثابت: هي لك، بأبي أنت وأمي. فأدى رسول الله ما كان عليها من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وخرج الخبر إلى الناس، ورجال بني المصطلق قد اقتسموا، ومُلكوا ووُطئ نساؤهم، فقالوا: أصهار النبي! فاعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي. قالت عائشة: فأعتق مائة أهل بيت بتزويج رسول الله إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

*

قالت جويرية: رأيت قبل قدوم النبي بثلاث ليال: كان القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري. فكرهت أن أخبرها أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله. فلما سُبينا رجوت الرؤيا.

*

- يا بْن أخي*، إنّ قومك قد جاؤوني، فأبْق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

- يا عمّاه، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته.

- اذهب يا بْنَ أخي. فقل ما أحببت، فو الله لا أَسْلِمكَ لشيء أبداً.

*

- أي ابنَ أخي**، ما بال قومك يشكونك.

يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول!

- يا عمّ، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدّي إليهم بها العجم الجزية.

- أي كلمة هي يا بْنَ أخي؟

- لا إله إلا الله.

*

---

* بين أبي طالب والنبي.

** بين أبي طالب والنبي.

(...) فأمّا الصراط فقد جاء في الحديث أنه يُنصب جسرٌ على ظهر جهنم ويُحمل الخلق عليه. فمن كان من أهل الجنة جازهُ، ومن كان من أهل النار، تهافت فيها. وقيل في صفته إنه أحدّ من السّيف، وأدقّ من الشعرة ... وفيه كلاليبُ وخطاطيفُ، والناس يجوزونه بقدْر أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح القاصف، ومنهم من يمر كالطير الهادي، ومنهم من يمر كالجواد المضمر، ومنهم من يمر عدْواً، ومنهم من يمر هرولة، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يحتضنه بكشحه وصدره.

(...) وقد جاء في بعض الأخبار أن أهل الطاعة يجوزونه ولا يشعرون به. وقيل ينزوي تحت أقدامهم .

*

وروى ابن إسحاق عن النبي أن مما خلق الله، ديكاً براثنه تحت الأرض السابعة، وعُرْفُه منطو تحت العرش، قد أحاط جناحاه بالأفقين، فإذا بقي ثلث الليل الأخير، ضرب بجناحيه، ثم قال: سبحان ربنا الملك القدوس، فيسمعها من بين الخافقين (...) وقيل دون السماء بحر مكفوف فيه مجاري الشمس والقمر والجواري الخنس ... وهذا كله جائز في حد الإمكان؛ ولا يختلف مخالفونا أن المطر قبل أن ينزل، أجزاء متفرقة لطيفة، وأنه من لطف أجزائه ممسك في السماء. فغير مستنكر أن يكون في السماء بحرٌ على هيئة أجزاء المطر.

*

أم معبد تصف النبيّ

مرَّ بنا رجلٌ مُبارك، فرأيته رجلاً ظاهرَ الوضاءة، أبلجَ الوجه، حسَن الخُلق، (...) وسيماً قسيماً (...) إن صَمتَ فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء.

أجلُّ الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنُهم وأجملهم من قريب. حُلو المنطق فَصْلٌ لا نزْرٌ ولا هذر، كأنما منطقهُ خرزات نظم يتحدّرْن.

ربعة لا يائِس من طول، ولا تقتحمه عينٌ من قِصَر.

غصن بين غُصنين، فهو أنضرُ الثلاثةِ منظراً، وأحسنهم قدْراً.

له رفقاء يحفّونه إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمرَ تبادرَوا إلى أمره، محفودٌ محشودٌ، لا عابس ولا معتدٍ.

*

أبو بكر الصِّديق*

وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينُوني، وإن رأيتموني على باطلٍ فسدِّدوني.

أطيعوني ما أطعْتُ الله فيكم، فإذا عصيْتُهُ فلا طاعَةَ لي عليكم.

إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخُذَ الحق له، وأضعفكم عندي القويّ حتى آخذ الحقَّ مِنه.

*

سترون بعدي ملكاً عضُوضاً وأمّةً شَعَاعاً، ودَماً مُباحاً. فإن كانَتْ للباطِل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر، ويموتُ لها الخبر،

فالزمُوا المساجدَ، واستشيروا القُرآنَ واعتصموا بالطاعةِ، وليكن الإبرامُ بَعْد التشاوُر، والصفقة بعد طول التناظر.

*

مهما قُلتَ: إني فاعِل، فافْعَل.

ولا تَجْعَل قولك لغواً في عَفوٍ ولا عُقوبة،

فلا تُرجَى إذا أمَّنْتَ، ولا تُخافُ إذا خَوَّفتَ. ولكن انظر متى تقول، وما تقول.

ولا تُعذِّبْ على مَعْصيةٍ بأكثر من عُقوبتها، فإنك إنْ فَعَلتَ أثِمْتَ، وإن تركتَ كذبْتَ.

*

---

* توفي سنة 13 هـ. المقطع الأول كلام قاله بعد ولايته.

(...) من كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان إنما يعبد الله وحدَهُ لا شريك له، فإن الله بالمرصاد، حيّ قيّوم، لا يموت ولا تأخذه سِنة، ولا نومٌ، حافظ لأمره، منتقِمٌ من عدوِّه بحزبه.

قد بلغني رجوعُ من رجَع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعَمِل به، اغتراراً بالله وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان.

وإني أنفذتُ إليكم فلاناً في جيشٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتِلَ أحداً ولا يقتله، حتى يدعُوَهُ الى داعية الله، فمن استجابَ له وأقَرَّ وعمِل صالحاً، قبل منه وأعانه، ومن أبى أمَرْتُهُ أن يقاتِلَهُ على ذلك،

ثم لا يُبقي على أحدٍ منهم قدر عليه، وأن يُحرِّقهم بالنيران، ويقتلهم كل قِتلة وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعَهُ فهو خيرٌ له ومن تركهُ فلن يُعجز الله.

*

ليزدْكَ* ما أنعم اللهُ به عليك خيراً،

واتقِّ اللهَ في أمرك. جُدَّ في أمر الله، ولا تَنَيَنَّ، ولا تظفَرنَّ بأحدٍ قتل المسلمين إلا قتلته، ونكّلت به غيره،

ومن أصَبْتَ ممن حادَّ اللهَ أو ضادَّه ممن ترى أن في ذلك صلاحاً، فاقتله.

*

إذا قدِمتَ** على أهل عملك فعِدهم الخير وما بعده،

وإذا وعَدت فأنجزْ. ولا تكثرَنَّ عليهم الكلام، فإن بعضه يُنْسي بعضاً.

---

* من ردٍّ له على رسالة من خالد بن الوليد.

** من وصيّة له ليزيد بن أبي سفيان.

وأصلح نفسك يصلح الناس لك. وإذا قَدِمَت عليك رُسُلُ عدوِّك فأكرم منزلتهم، فإنهُ أوّلُ خيرك إليهم. وأقللْ حبْسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك.

وإذا استشرت فاصدُق الخبر تصدَق لك المشورة،

ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك.

وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها.

واستُرْ في عسكرك الأخبار، وأَذْكِ حرسَك، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك، واصدق اللقاء إذا لقيتَ ولا تجبُنْ فيجبُن من سواك.

*

ـ أبالله* تخوِّفني؟ إذا لقيتُ ربي فسألني، قلت: استخلفْتُ عليهم خير أهلك.

ـ أعُمَرُ خير الناس؟

ـ أي والله، هو خيرهم، وأنتَ شرُّهم.

أما والله لو ولّيتُك لجعلت أنفك في قفاك، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها.

أتيتني وقد دلكتَ عينك تريد أن تفْتِنّني عن ديني وتزيلني عن رأيي، قم لا أقامَ اللهُ رِجْليك.

*

(...) عَظُمْتَ** عن الصفة، وجَلَلْتَ عن البكاء، وخصَصْتَ حتى صِرتَ مسلاة وعمَمْتَ حتى صِرنا فيك سواء. ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجُدْنا لموتك بالنفوس. ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشؤون. ولولا ما خلّفتَ من السكينة لم نُقِم لما خلّفْتَ من الوحشة.

*

* من كلام له حول خلافة عمر يخاطب بها طلحة بن عبيد الله.

** أبو بكر يخاطب رسول الله وهومسجّى.

إني* مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله.

إن للهِ عملاً بالليل، لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل،

وأنهُ لا تُقبل نافِلةٌ حتى تؤدّى الفريضة، فإنما ثَقُلتْ موازين من ثَقُلتْ موازينهُ يوم القيامة باتّباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم.

وحُقَّ لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً،

وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وخفّته عليهم.

وحُقَّ لميزان لا يُوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

*

* أبو بكر يوصي عمر.

مسيلمة *

والشمس وضُحاها، في ضوئِها ومُنجلاها،
والليل إذا عَداها، يطلبها ليغشاها، فأدركها حتى أتاها،
وأطفأ نُورَها فمحاها.

*

سَبِّح باسم ربك الأعلى، الذي يَسَّر على الحُبلى، فأخرجَ منها نسمة تسعى، من بين أحشاءٍ ومِعىَ،
فمنهم من يموتُ ويُدَسُّ في الثرى، ومنهم من يعيشُ ويَبْقى، إلى أجَلٍ ومُنتهى.
والله يعلمُ السرَّ وأخفى، ولا تخفىَ عليه الآخِرَةُ والأولى.

*

لما رأيتُ وجُوهَهم حسُنَتْ، وأبْشَارَهُم صَفَتْ، وأيْديَهم طَفِلَت قلت لهم: لا النساءَ تأتون، ولا الخمْرَ تشربون،
ولكنكم معشَرَ أبرار، تصومون يَوْماً، وتكلّفون يوماً،
فسبحانَ الله، إذا جاءتِ الحياةُ تحيوْن، وإلى مَلكِ السماءِ ترقَون،
فلو أنَّها حبةُ خردلة، لقامَ عليها شهيد، يَعْلم ما في الصُّدور.

*

---

* مسيلمة بن ثمامة بن حنيفة، ويكنّى أبا أمامة، وكان يُسمّى بالرحمان في ما رُويَ عن الزُّهري، قُتلَ في خلافة أبي بكر.

يا ضفدعُ كم تنقّين، لا الشَّاربَ تمنعين، ولا الماءَ تكدِّرين.

لنا نصف الأرض ولقُريش نصفها،

ولكن قريش قومٌ لا يعدلون.

*

سُبَيع*

يا بني حنيفة، بُعداً كما بَعُدَتْ عاد وثمود.

أمَا واللهِ لقد أنبأتكم بالأمر، قبل وقوعه، كأني أسْمَعُ جَرْسَه وأبصر عَيْنَهُ.

وكلكم أبيتم النصيحة، فاجتنبتم الندامة.

وإني لما رأيتكم تتهمون النصيح، وتسفّهون الحليم،

استشعرت منكم اليأس، وخفتُ عليكم البلاء،

واللهِ ما منعكم الله التوبة، ولا أخذكم على غِرَّة.

ولقد أمهلكم، حتى ملَّ الواعظ ووهَنَ الموعوظ،

وكنتم كأنما يُعنى بما أنتم فيه، غيرُكم،

فأصبحتُم وفي أيديكم من تكذيبي، التصديق،

ومن نصيحتي، الندامة، وأصبح في يدي من هلاككم البُكاء، ومن ذُلّكم الجزع،

وأصبَح ما فاتَ غير مردود، وما بَقي غير مأمون.

*

---

* رجل من بني حنيفة من أهل اليمامة، كان قد نصَحهُم قبل إيقاع خالد بن الوليد بهم فلم يستجيبوا له.

خالد بن الوليد*

إن أبا بكر وَلدَنا فرَقَّ لنا رِقّةَ الوالد،
وإن عُمَرَ ولدْناهُ، فعقّنا عُقوق الولد.

*

لقِيتُ كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضعُ شبرٍ، إلا وفيه ضرْبَةَ أو طعنَة أو رَمية.

ثم ها أنذا أموتُ على فراشي حَتفَ أنفي كما يموتُ البعير، فلا نامَتْ أعيُن الجبناء.

*

إنّا رُمينا في بَدْء هذا الأمر، بأمْر ثقُل علينَا حملهُ، وصَعُبَ علينا مُرْتقاه.

ثم ما لبِثنَا أن خفَّ علينا محمله، وذلّ لنا مَصْعَبُه، وعجبْنا ممن شكَّ فيه، بعد أن عجبنا ممن آمَن به، حتى أُمْرنا بما كنا نُنهي عنه، ونُهينا عما كنا نُؤمر به.

لا والله ما سُبقنا إليه بالعقول ولكنه التوفيق.
ونحن اليوم أكثر منّا أمس، ونحن أمس خير منّا اليوم.

*

---

* خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي (توفي سنة 21 هـ\642 م). صحابي وقائد عسكري، لقّبه النبي محمد بـ «سيف الله المسلول».

عمر بن الخطاب*

- أعضل بي أهل الكوفة. إذا وليت عليهم الفاجر القوي فجّروه، وإذا وليت المؤمن الضعيف هجّنوه.
- المؤمن الضعيف، له إيمانه وعليك ضعفه، والفاجر القوي لك قوته وعليه فجوره.**

I. دعاء

اللهُمَّ إنّي غليظ فليِّنّي لأهل طاعتك، بموافقة الحق ابتغاءَ وَجهك.

وارزقني الغِلظةَ والشدة على أعدائك، وأهل الدَّعارةِ والشقاق، من غير ظُلم مِني لهم، ولا اعتداءٍ عليهم.

اللهُمَّ إني شحيح فسخِّنِي في نوائب المعروف، قصْداً من غَيرِ سَرف، ولا تبذير، ولا رياء ولا سُمْعةٍ واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدّارَ الآخرة.

اللهم ارزقني خفضَ الجناح، ولين الجانب للمؤمنين،

اللهم إني كثيرُ الغَفلةِ والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكِرَ المَوْتِ في كل حِيْن.

اللهُمَّ إنيِّ ضعيف عن العَمل بطاعتِك فارزقني النشاط فيها والقُوةَ عليها، بالنيَّةِ الحسَنةِ التي لا تكون إلا بعوْنِك وتوفيقك. اللهم ارزُقني التفكر

---

* ثاني الخلفاء الراشدين ومن أصحاب الرسول محمد الملقّب بـ «الفاروق». وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة.

** حوار بين عمر بن الخطاب والمغيرة.

والتدبُّرَ لما يتلوهُ لِساني من كتابك، والفهم لـه، والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه، والعَمل بذلك ما بقيْت.

*

II. رسالة

أما بعد*، فإن للناس نُفْرةً من سُلطانهم، فأعوذُ بالله أن تُدركني وإيّاك عَمْياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواءٌ مُتَّبَعة ودُنْيا مُؤثَرة،

فأقم الحدُودَ ولو سَاعةً، من نهار.

وإذا عرَضَ لك أمران: أحدُهما لله، والآخر للدُّنيا، فآثِرْ نصيبَك من الآخرة، على نصيبك مِن الدُّنيا،

فإنّ الدُّنيا تنفَذُ والآخرة تَبْقَى.

وأخِفِ الفُسّاقَ واجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً،

وإذا كانت بين القبائل نائرة وتداعَوا: يا آل فُلان، فإنما تِلك نجوى الشيطان، فاضربهمْ بالسيف، حتى يفيئوا الى أمْرِ الله.

وقد بَلَغَ أمير المؤمنين، أنه فَشَا لك ولأهِل بيتك هيئة في لباسِك ومَطعمك ومركبك، ليس للمسلمين مِثلها،

فإيّاك يا عبد الله أن تكون بمنزلةِ البهيمة التي مرّتْ بوادٍ خصيب فلم يكن لها هِمةً إلا السِّمَن، وإنما حَتْفُها في السِّمَنِ.

*

(...) أما أنْتَ يا زبُيْر*، فوعقةٌ لقِس، ومؤمن الرِّضى، كافِرُ الغضب، يوْمٌ إنس، وَيوْمٌ شيطان.

---

* رسالة إلى أبي موسى الأشعري. وعقةٌ لقس: شرس، عيّابة.

ولعلّها إن أفْضَتْ إليك، لظَلْتَ يومَك تُلاطِمُ في البطحاء، على مُدٍّ من شعير.

أفرأيت إن أفضَتْ إليك، فمن يكونُ على النّاس، يومَ تكونُ شيطاناً، ومَنْ يكونُ، إذا غَضِبْتَ، إماماً؟ ما كانَ الله ليجمع لك أمرَ أمّةِ محمد، وأنْتَ على هذهِ الصِّفَة!

وأنْتَ يا طلحة! أقولُ أم أسكت؟ فإنَك لا تقولُ لي من الخَير شيئاً. وقد ماتَ رسول الله ساخِطاً للذي قلت يوم نزلتْ آيَةُ الحجاب.

وأنْتَ يا سَعد! فصاحِبُ قَنْصٍ وقوْسٍ، وأسهُم ومِقْنَب، من هذه المقانِب. ما أنْتَ وزُهرةَ والخِلافة، وأمورِ الناس؟

ثم أقبل على عليٍّ، فقال: لله أنتَ، لولا دُعَابَة فيك، أمَا واللهِ لو وُليتهُم، لحَملتَهُم على المحجةِ البيضاء، والحق الواضح ولن يفعلوا.

وأنْتَ يا عبد الرحمن، لو وُزِن نِصف إيمانِ المسلمين بإيمانِك لرجَحْتَ، ولكنَّ فيك ضعفاً، ولا يصلح هذا الأمر، لمِنْ ضعُفَ مِثْل ضعفِك.

ثم أقبل على عثمان فقال:

هيَها لك، كأني بك قد قلّدَتْك قُريْش هذا الأمر، لحُبِّها إياكَ فحمَلتَ بني أميّة، وبَني معَيط على رِقاب الناس، وآثَرْتهُم بالفَيء فثارَتْ إليك عِصابة من ذؤيانِ العرب فذبحوك على فِراشك ذبحا، واللهِ لئن فعَلوا، لتفعلنَّ، ولئن فَعَلتَ ليفعَلنّ. ثم أخذ بناصيتهِ، فناجاه، ثم قال: إذا كان ذاك، فاذكرْ قَوْلي هذا، فإنه كائن.

*

* كلام قاله في أهل الشورى. قال الجاحظ: روى الزهري: نظر عمر إلى أهل الشُّورى جلوساً فقال: أكلّكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فقال لهم ثانية، فأجاب الزُّبير فقال: نعم، وما الذي يُبْعدنا عنها، وقد وُلّيتها، فقُمتَ بها ولسنا دونك، فقال عمر: ألا أخبركم عن أنفسكم؟ قالوا: بلى، فإنا لو استعفيناك، ما أعفيتنا، فتكلّم عمر.

III. امرأة

أبعدها الله[*] إنها لا حُرْمة لها، ولا حقّ عِنْدهَا، ولا نَفْعَ مَعَها. إن الله أمر بالصبْر، وَهيَ تَنهى عَنْهُ،

ونَهى عن الجزع، وهي تأمرُ به.

تُريقُ دمْعتها، وتبكي شجْوَ غيرها،

وتُحزِنُ الحيَّ وتُؤذي الميْت.

*

IV. أقوال

إن العربَ لا تصلح في بلادٍ لا تصلحُ بها الإبل.

*

كل امرئٍ في بيتهِ صبيّ.

*

أيُّها الناس! إنّه أتى عليَّ حين، وأنا أحسَبُ أنهُ من قرأ القُرآن إنما يريدُ الله، وما عندَه، إلا وقد خُيِّل إليَّ، أخيراً، أنَّ أقواماً يقرؤون القرآن، يريدون بهِ ماعِنْد الناس.

ألا، فأريدوا الله بقُرآنكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم، إذ الوَحي ينزِل وإذ النبيُّ عليه السلام بين أظهُرنا، فقد رُفعَ الوَحيُ، وذهَبَ النبي، فإنما أعرفكم، بما أقولُ لكم.

إن من أظهر لنا خيراً، ظننا به خيراً، وأثنينا بهِ عليه،

وإن من أظهرَ لنا شراً، أظهرنا له شراً، وأبغضناهُ عليه.

*

---

[*] الكلام في النائحة.

المرأة البكر، تحتاج إلى خدمة، كالبُرّة تطحنُها وتعجنها وتخبزها، ثم تأكلها. والثيّب، عُجالةُ الراكب: تمرٌ وسُويقٌ.

*

من دخلَ على الأغنياء، خرج وهوَ ساخِط على الرزق.

*

أحبّكم إلينا، أحسنكمُ اسماً، فإذا رأيناكم، فأجملكم منظراً، وإذا اختبرناكم، فأحسنكم مخبراً.

*

ليْسَ قوم أكيْسَ من أولادِ السراري، لأنهم يجمعون عزّ العَرب ودَهاء العجم.

*

إنا إذا خلونا نقول ما يقول الناس في بيوتهم.

*

V. وصية*

(...) أوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً أن تعرف سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، فاقبلْ من محسِنهم وتجاوزْ عن مسيئهم،

وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم درْءُ العدوّ وجباة الفيء. وأوصيك بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادّة الإسلام. وأوصيك بأهلِ الذمة خيراً، أن تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم.

*

اجعل الناس عندك سواء، لا تُبالي على من وجبَ الحق. وإيّاك والأثرةَ والمحاباة في ما أفاءَ الله على المؤمنين فتجور وتظلم.

*

* من وصيّة للخليفة عمر لمن يأتي بعده.

لقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك واخترْتُ من دلالتك ما كنت دالاً عليه نفسي وولدي.

*

VI. حكم وأمثال

إذا رأيناكم كان أحسنُكم جهرةً أقربكم من قلوبنا،
وإذا كلّمناكم كان أحسنكم بيانا أزكاكم عندنا،
وإذا خبرناكم كانت الخِبرة من وراء ذلك.

*

أشيعوا الكُنى فإنها مَنْبَهة.

*

لساني سبُع إذا أرسلته أكلني.

*

من المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة.

*

لو كان الصبر والشُّكر بعيرين، ما باليْتُ أيُّهما أركب.

*

رَحِمَ الله امرأً أمْسَكَ فضل القول وقدّمَ فضل العمل.

*

ليتَ شِعْري متى أشفي غيظي؟ أحين أقدِرُ فيقال: هلّا عفوت، أم حين أعجز فيقال: هلّا صَبْرت.

*

من اتّقى الله وقاه*، ومن توكّل عليه كفاه، ومن شكرهُ زادَهُ ومن أقرضهُ جزاه، فاجْعَل التقوى جلاءَ بصرك، وعمادَ ظهرك، فإنهُ لا عمَلَ لمِنْ لا نيّة له.

ولا أجْرَ لمن لا حسنة له، ولا جديدَ لمن لا خَلَقَ له.

ضَعْ أمرَ أخيك على أحْسَنهِ، حتى يجيئك ما يغلبك مِنه.

لا تسأل في ما لم يكن، فإن في ما كان شغلاً عمّا لم يكن.

*

من كتم سِرَّهُ كانت الخيرة بيده.

*

إنّ الموتَ فضَحَ الدُّنيا، فما ترك لذِي لبٍّ فرحاً.

*

كلُّ عَمَلٍ كرِهْتَ من أجْلهِ الموت فاتركهُ. ثُم لا يضرُّك متى مُت.

*

إن العَمل كِبْرٌ، فانظر كيف تخرج منه!**

*

الرجال ثلاثة: رجلٌ ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصدرها، ورجلٌ متوكل لا ينظر فإذا نَزلت نازلةٌ شاوَر أهلَ الرأي، وقَبِل قولهم، ورجلٌ حائر بائر لا يأتمِر رشداً ولا يطيع مُرشِداً.

*

رحم الله امرأً أهدى إلينا عيوبَنا.

*

---

* إلى ولده عبد الله.

** كان يخاطب بهذا الكلام من يستعمله.

VII. من رسالة*

(...) القضاء فريضة محكمة، وسنّة متّبعة، فافهم إذا أُدْلي إليك، فإنه لا ينفع تكلّم بحق لا نفاذَ له،

آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك.

اعرف الأمثال والأشباه وقِس الأمور عند ذلك، ثم اعمد الى أحبِّها إلى الله، وأشبهها بالحق في ما ترى.

المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرَّباً عليه شهادةُ زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابة،

فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشُّبهات.

ثمّ إياك والقلقَ والضجر والتأذِّي بالنّاس، والتنكّر للخصوم في مواطنِ الحق.

*

قال رجل لعمر**:

ـ رأيت في المنام، كأن الشمس والقمر يقتتلان، ومع كل واحد منهما نجوم.

فقال عمر:

ـ مع أيهما كنت؟

فقال:

---

* رسالة إلى أبي موسى الأشعري في القضاء.

** رجل يحاور عمر.

ـ مع القمر.

قال:

ـ كنت مع الآية الممحوة. اذهب، فلا تعمل لي عملاً.

*

أبو ذر الغفاري*

I. حوار**

ـ إني سائر إلى ربذتك، فإن مُتّ بها فأنا طريدك،
فإذا بعثني ربي حكم بيني وبينك.
ـ إذاً أحُجُّك، إنك تبغي عليّ وتسعى.
ـ إن كنت أنت الحاكم فاحْجُجني.
إن الحاكم يومئذٍ لا يقبل الرشوة ولا بينه وبين أحد قرابة.

*

ـ أتحِبُّ أن تُحشَر في مسلاخ أبي بكر؟
ـ لا
ـ ولمَ؟
ـ لأني على ثقةٍ من نفسي، وشكٍّ من غيري.

*

II. أقوال

كان الناس ورقاً لا شوكَ فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه.

*

---

* أبو ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، وكان من كبار الصحابة. وُلد في قبيلة غفار بين مكة والمدينة. توفي بالربذة سنة 23 هـ\256 م.

** الحوار مع الخليفة عثمان.

إنكم في زمانٍ، الناس فيه كالشجرةِ المخضودة، لا شوك فيها.
إن دنوتَ منهم لاطفوك وإن أمَرتهم بمعروفٍ أطاعوك،
وإن نهيتهم عن مُنْكر لم يعادوك.

وسيأتي زمانٌ، الناس فيه كالشوك، إن دنوْتَ منهم آذوك، وإن أمرْتَهُم بمعروفٍ عصَوْك وإن نهيتهم عن منكر عادوك.

*

إنّا لا نكافئ من عَصَى الله فينا، بأكثر من أن نطيع الله فيه.

*

تأكلون خضماً، ونأكل قَضْماً والموعد الله.

*

اللهم اتبعنا بأخيارنا، وأعِنّا على شرارنا.

*

III. رواية

(...) كنت آخذاً بيد رسول الله، نتماشى جميعاً نحو المغرب، وقد طَفَلَت الشمس، فما زلنا ننظر إليها حتى غابت (...) قلت: يا رسولَ الله أينَ تغربُ؟ قال: لا تغربُ في السماء، ثمُ تُرَفع من سماء إلى سماء حتى تُرفع إلى السماء السابعة العُليا، حتى تكونَ تحت العرش، فتخر ساجدة، فتسجُد معها الملائكة الموكلون بها. ثم تقول: يا رب، من أين تأمرني أن أطلع؟ أين مغربي أمْ أين مطلعي؟ قال: فذلك قوله عزَّ وجلَّ ﴿ والشمسُ تجري لمسْتقرٍّ لها﴾* حيث تحبس تحت العرش ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم﴾**.

---

* سورة يس، الآية: 38.

** بقية الآية 38.

فيأتيها جبريل، بُحلّةِ ضوءٍ من نور العرش على مقادير ساعات النهار في طولهِ في الصيْف أو قِصَره في الشتاء أو ما بين ذلك، في الخريف والرَّبيع، قال: فتلبَسُ تلك الحُلّة، كما يَلبَسُ أحدُكم ثيابه، ثم ينطلق بها في جوّ السماء حتى تطلع مطلعها.

قال النبي: فكأنها قد حُبسَتْ مقدارَ ثلاثِ ليال، ثم لا تُكسى ضوءاً، وتؤمر أن تطلع من مَغربها، فذلك قوله عزَّ وجلَّ ﴿إذا الشمسْ كُوِّرت﴾*.

قال: والقمر كذلك في مطلعه ومجراه في أفُقِ السماء، ومغربه وارتفاعه إلى السماء السابعة العُليا ومحبسهِ تحت العرش وسجودهِ واستئذانه.

ولكن جبريل عليه السلام يأتيه بالحُلّةِ من نور الكرسي. قال: فذلك قوله عز وجل: ﴿جَعَلَ الشَمْسَ ضياءً والقمرَ نوراً﴾**.

ثُم عَدلتُ مع رسول الله فصلّيْنا المغرب.

وهذا الخبر ينبئ سببَ اختلاف حالة الشمس والقمر، إنما هو أن ضوء الشمس من كسوةٍ كُسِيتْها من ضوء العرش، وأن ضوء القمر من كسوةٍ كُسِيَها من نور الكرسي.

*

---

* سورة التكوير، آية 1.

** سورة يونس، آية 5.

عبد الله بن مسعود*

إنكم في ممر الليل والنهار، والموت يأتي بغتة،
فمن زرع خيراً، فيوشك أن يحصد رغبة،
ومن زرع شراً، فيوشك أن يحصد ندامة،
ولكل زارع مثل ما زرع.

*

لا يُسبَق بطيء بحظه، ولا يُدرك حريص ما لم يقدر له.

*

السعيد من وعظ بغيره.

*

ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى.
وشر المعذرة حين يحضر الموت.

*

خير الغنى غنى النفس، وشر العمى عمى القلب.

*

ملاك العمل خواتمه.

*

---

* سادس من أسلم، وأوّل من جَهر بالقرآن بمكة. شهد الهجرتين وبَدْراً. سيّره عمر إلى الكوفة إماماً للمسلمين، وولاهُ عُثمان عليها، ثم عزلهُ. توفي سنة 33 هـ.

شرّ الروايات روايات الكذب، وخير ما ألقي في القلب اليقين.

*

كونوا ينابيع العلم، سُرُجَ الليل، جُدَدَ القلوب.

*

الحقّ ثقيلٌ، والباطل خفيفٌ.

*

الدُّنيا كلها غموم. فما كان منها من سُرور، فهو ربح.

*

القلوبُ تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

*

كونوا ينابيعَ العلم، مصابيح الليل، جُددَ القلوب، تخْفَونَ في الأرضِ وتظهرون في السماء.

*

لأَنْ أزاحِمَ جملاً هُنِئ بالقطران، أحبُّ إليَّ من أن أزاحم امرأةً عَطِرة.

*

لا تعجلوا بحمِدِ الناس ولا ذَمهم، إلا عِندَ مَضَاجِعهم. لأن الرّجُلَ يُعجبك اليَوم، ويَسُوءك غداً، ويسوءك اليَوم ويَسُرُّكَ غداً.

*

لو علمِوا ما أُغلق عليه بابي، ما اتّبعَني رجلان.

*

لا تُعادوا نِعمَ الله، فإن الحسُودَ عَدوُّ النِعَم.

*

إنك إن أُخِّرْتَ إلى قريب، بقيت في قوم كثير خطباؤهم، قليلٍ علماؤهم، كثيرٍ سائلوهم، قليل معطوهم. يُحافظون على الحرُوف، ويطبّقون الحدود. أعمالهم تبَعٌ لأهوائهم.

*

ما الدُّخانُ على النار، بأدلَّ من الصاحب على الصاحب.

*

من كان كلامُه لا يوافِقُ فِعله، فإنما يوبِّخ نفسه.

*

إن الله جعل الروْحَ والراحَةَ في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشكِّ والسخط.

*

عليكم بالعِلم قبلَ أن يُقبض، وقبضهُ ذهابُ أهله.

*

ما قلّ وكفى، خيرٌ مما كثرَ وألهى.

*

خيرُ ما ألقي في القلب، اليقين.

*

من لا يعرف البلاء ينكره.

*

سلمان الفارسي*

الناس أربعة: أسدٌ، وذئب، وثعلب، وضأن.
فأما الأسدُ، الملوك، يَفرسون ويأكلون،
وأما الذئب فالتّجار،
وأما الثعلب، فالقُرّاءُ المخادعون،
وأما الضأن فالمؤمن ينهشُهُ من رآه.

*

إذا نافَرْتَ الناس نافَرَوْك، وإن تركتهُم لم يتركوك. فأقرِضهم من عِرْضِك، ليوم فَقْرِك.

وكفى بكَ ظالمِاً ألا تزال مُخَاصِماً.

*

اذكر الله عند همّك إذا همَمْتَ، وعند لسانك إذا حَكَمْت، وعند يدك إذا قسَمْتَ.

*

البِرُّ لا يَبْلى، والإثم لا يُنْسى.

*

إنك لن تكونَ عالماً حتى تكونَ متعلماً، ولن تكون بالعلم عالمِاً حتى تكون به عاملا.

*

---

* سلمان الفارسي: صحابي ولاه عمر بن الخطاب المدائن. كان زاهداً، شديدَ التقشُّف. لم يُذكر تاريخ وفاتِه.

أما بعد: فإنك لن تنالَ* ما تريد، إلا بتركِ ما تشتهي، ولن تنالَ ما تأمل، إلا بالصبر على ما تكره.

فليكن كلامك ذكراً، وصمتُك فِكراً، ونظرك عِبراً.

*

---

* من كتاب إلى أبي الدرداء.

عثمان بن عفان*

لكل أمة آفَة، ولكل نِعمةٍ عاهة.

وإنّ آفة هذه الأمة عيّابون طعّانون، يُظهرون لكم ما تحبُّون، ويُسرِّون ما يكرهون.

طغَام مِثلُ النعام، يتبعون أوّل ناعِق.

لقد نقَموا عليَّ ما نقموه على عُمَر،

ولكنهُ قمعَهُم ووقمَهُم

والله إني لأقْربُ ناصِراً، وأعزُّ نفراً. فمالي لا أفعل في الفضل ما أشاء.

*

والله ما تغنّيت، ولا تمنّيت، ولا زنيْت في جاهليةٍ ولا إسلام، وما تركتُ ذلك تأثّماً، ولكن تكرُّماً.

*

هو** أوّلُ منازلِ الآخرة، وآخرُ منازلِ الدُّنيا، فمن شُدِّدَ عليه، فما بَعْدَهُ أشدُّ، ومن هُوِّن عليه، فما بعده أهون.

*

إني والله، ما أتيْتُ ما أتيْتُ، وأنا أجهله، ولكن منّتْني نفسي، وأضلّتْني رشدي،

---

* توفي سنة 35 هـ قتلاً من قبل معارضيه.

** من كلام له عن القبر في رسالة إلى عليّ بن أبي طالب.

وقد سَمِعْتُ رسول الله يقول: لا تَمادُوا في الباطِل.

وأنا أول من اتعظ، فأستغفر الله، فأشيروا عليَّ، فإنَّهُ لايردُّنِي الحقُّ إلى شيء، إلا صِرتُ إليه*.

*

ما أصنع بكم إن كانت قريش لا تحبُّكم؟**

*

من كفر داويناه ببلائه،

ومن تولّى عن الجماعة، أنصفناه وأعطيناه حتى نقطع حجته وعذره.

*

ما يزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يزعُ بالقرآن،

سيجعل الله بعد عُسر يُسراً، وبعد عيٍّ بيانا، وأنتم الى إمام فعّال أحَوجُ منكم إلى إمام قوّال.***

*

قال عثمان لعلي:

- ما بالك لا تقول؟

- إن قُلت، لم أقل إلا ما تكره،

وليْسَ لك عندي إلا ما تُحِب.

*

---

* من خطاب له في أثناء محنته.

** الكلام موجّه إلى عليّ.

*** قاله في أوّل خلافته وقد صعد المنبر وأرتج عليه.

حذيفة بن اليمان*

إن الله لم يخلق شيئاً إلا صغيراً، ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنه خلقها كبيرة، ثم تصغر.

*

كن في الفتنةِ كابن اللبون: لا ظهرَ فيركب، ولا ضِرع فيحلب.

*

ـ أخشى أن أكونَ منافقاً!

ـ لو كنتَ منافِقاً لم تخش!

*

أيسرُّك أنك غلبت شرَّ الناس؟

ـ نعم.

ـ إنك لن تغلبَهُ حتى تكون أشر منه.

*

الحسدُ أهلك الجسد.

*

عشتُ على خلال ثلاثٍ: الضَّعَةُ أحبُّ إليّ من الرفعة،

والفقْرُ أحبُّ إليَّ من الغِنى،

ومن حمدني أو لامَنِي في الحق سيّان.

*

---

* حذيفة بن اليمان، صحابي، شهدَ غزوةَ أُحُد، وفتح الري والدينور. توفي سنة 36 هـ. كان من أصحاب رسول الله المقرّبين.

أبو الدرداء*

مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتقولون مالا تدركون؟

إن الذين كانوا قبلكم، بنُوا مَشِيْداً وأبلُوا بعيداً، وجمعوا كثيراً فأصبح أملهم غروراً وجمعهم بُوراً، ومساكنهم قبوراً.**

*

أحِبُّ ثلاثة، لا يُحبُّهنَّ غيري،

أحبُّ المرض تكفيراً لخطيئتي،

وأحِبُّ الفقر تواضعاً لربي

وأحبُّ الموت اشتياقاً إليه.***

*

أنصفْ أذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أذنان اثنتان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقول.

*

---

* عويمر بن زيد الأنصاري الصحابي له أحاديث كثيرة مبثوثة في بطون الكتب توفي سنة 35 هـ.

** يخاطب أهل الشام.

*** ابن سيرين يرد عليه: لكني لا أحبُّ واحدة من الثلاثة، أما الفقر فوَالله للغِنى أحبُّ إليّ منه، لأن الغنى به يُوصل الرحم ويحجُّ البيت وتُعْتق الرقاب وتُبسط اليد إلى الصدقة. وأما المرض، فوالله لأن أعافى فأشكر، أحبُّ إلي من أن أُبتلى فأصبر، وأما الموت فوالله ما يمنعنا من حبّه إلا ما قدمناه وأسلفناه من أعمالنا.

لولا ثلاثٌ لصلُحَ الناس: هوى مُتَّبع، وشحٌّ مطاع، وإعجابُ المرء بنفسه.

*

معروفُ زماننا مُنكرُ زمانٍ قد فات،
ومنكرُه معروفُ زمانٍ لم يأتِ.

*

ما لي أرى عُلماءكم يذهبون وجُهّالكم لا يتعلمون ؟

*

مَثَلُ العلماء في الأرض كمثلِ النجوم في السماء يُهتدى بها.

*

معاتبة الأخ خيرٌ من فقده.
ومن لك بأخيك كله؟
أطع أخاك ولِنْ له،
ولا تَسْمع فيه قول كاشح أو حاسد.

*

ما أنْصَفنا إخواننا، يحُبُّوننا في الله، ويفارقوننا في الدُّنيا.

*

علي بن أبي طالب*

أعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقلَ
رعايةٍ لا عقلَ روايةٍ،
فروايةُ العلم كثيرة، ورعايته قليلة.

*

إن الله داوى هذه الأمة بدواءَيْن: السوط والسّيف، لا هوادَةَ عند الإمام فيهما.

قد كانت أمورٌ، لم تكونوا عندي فيها محمودين. أما إني لو أشاء، لقلت: عفا الله عما سلف.

سبق الرجلان ونام الثالث كالغراب، همّتهُ بطنه، وَيْحَهُ لو قُصَّ جناحه وقُطعَ رأسه لكان خيراً له.

انظروا، فإن أنكرتم فأنكروا وإذا عَرفتُم فأقِرُّوا.

حقٌّ وباطِل، ولكلٍّ أهل. ولئن أمِرَ** البَاطِل، لقديماً فَعَلَ. ولئِن قَلّ الحق، لرُبّما ولعلّ.

ولقلّما أدْبَر شيء فأقبل.

*

أيُّها الناس! ما الجزَعُ مما لا بُد مِنه؟ وما الطمع في ما لا يُرجَى؟ وما الحيلة في ما سيزول؟

---

* اغتاله عبد الرحمن بن مُلجم سنة 40 هـ في مَسْجدِهِ بالكوفة.

** أمِرَ: كَثُرَ.

وإنما الشيء من أصله، وقد مضتْ قبلنا أصول، فما بقاءُ الفَرع بعد أصله؟

إنما الناسُ في هذه الدُّنيا أغراضٌ، تنتضلُ* المنايا فيهم، وهم نُصبُ المصائب. مع كل جَرْعةٍ شَرَق، وفي كلُ أكلةٍ غُصَص. لا ينالون نِعمةً إلا بفراقِ أخرى،

ولا يستقبلُ مُعَمَّر من عُمُرٍ يوماً، إلا بذمّ آخر من أجَلِهِ.

وأنتم أعوانُ الحتوفِ على أنفسكم، فأيْنَ المهرَبُ مما هو كائن؟ وإنما ينقلبُ الهاربُ في قُدْرةِ الطالب.

فما أصغَر المصيبة اليوم، مع عِظَم الفائدةِ غداً! أو ما أكثر خيْبةَ الخائب.

*

أما بعد**، فإن الجهادَ بابٌ من أبواب الجنّة، فتَحهُ اللهُ لخاصة أوليائهِ،

وَهو لباسُ التقوى، ودِرعُ الله الحصينة، وجُنّتهُ الوثيقة. فمن تركه رغبةً عنه، ألبسهُ الله ثوبَ الذُّل، وشمِلهُ البَلاء، ودُيِّثَ بالصَّغار والقماءَة،

وضُربَ على قلبهِ بالأسداد، وأديل الحق مِنه بتضييع الجهاد، وسيَم الخَسْف ومُنِعَ النصف.

ألا وإني دعوتكم لقتالِ هؤلاءِ القَوْم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم، قبل أن يغزوكم، فوالله مَا غُزيَ قوم قطُّ في عِقر دارهم إلا ذلُّوا.

فتواكلتم وتخاذلتُم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظِهريَّاً، حتى شُنّت عليكم الغارات، ومُلِكت عليكم الأوطان.

---

* تنتضلُ: تتسابق.

** خطبة الجهاد.

فيا عجباً، واللهِ، يميتُ القلب، ويجلب الهمَّ، اجتماعُ هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرُّقكم عن حقكم.

فقُبحاً لكم وتَرحاً، حين صِرتمُ غرضاً يُرمى وفيْئاً يُنهب.

يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَون ولا تَغْزون، ويُعْصَى الله وترضَون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف، قلتم: هذه حَمَارّة القيظ، أمهِلنا حتى يُسبِّخ عنا الحر.

وإذا أمرتكم بالمسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارَّةَ القُر. أمهلنا ينسلخْ عنّا البرد.

كلُّ هذا فِراراً من الحر والقر، فأنتم واللهِ من السيْفِ أفرّ، يا أشباهَ الرّجالِ ولا رجال!

*

والله لأن أبيْتَ على حَسكِ السّعدان مُسهّداً، وأُجرَّ في الأغلال مُصفداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقَى الله ورسوله، يومَ القيامةِ، ظالمِاً لبعض العباد، وغاصِباً لشيء من الحُطام.

وكيفَ أظلمُ أحداً لنَفْس يُسْرِعُ إلى البِلى قفولها، ويطولُ في الثّرى حلولها.

واللهِ لقد رأيتُ عقيلاً*، وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعاً، ورأيت صِبيانَه شُعثَ الشعُور، غُبْرَ الألوان من فقرهم كأنما سُوِّدَتْ وجوههم بالعِظلم،

وعاوَدَني مؤكداً، وكرّرَ عليَّ القوْل مُردداً، فأصغيتُ إليه سمعي فظنَّ أني أبيعُه ديني، وأتّبعُ قيادَه، مُفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتُها مِن جسمهِ، ليعتبرَ بها،

---

* أخوه عقيل، وكان قد طلبَ منه صاع بُرّ.

فضج ضجيج ذي دنَف من ألمها، وكادَ أن يحترق من مْيِسَمِها.

فقلت له: ثكِلتك الثواكل يا عَقيل، أتئِنّ من حديدة أحماها إنسانُها للِعِبه، وتجرّني الى نارٍ سَجرها جبَّارها لغضبه؟ أتئنّ من أذى ولا أفِرُّ من لظى؟

وأعجبُ من ذلك طارق طرقَنا، بملفوفة في وعائها، ومعجونةٍ شنئتها، كأنما عُجنَت بريق حيّة، أو قيئها،

فقلت: أَصِلة أم زكاة، أم صدقة، فذلك محرَّم علينا آل البيْت. فقال: لا ذا ولا ذاك، لكنها هدية.

فقلت: هبلتك الهَبُول، أعن دِين الله أتيتَني لتخدَعني؟ أمُختبط، أم ذُو جِنّةٍ، أم تهجُر؟

والله لو أعطيتُ الأقاليمَ السَّبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نَملةٍ، أسلبها جِلبَ شعيرةٍ، ما فعلت.

وإنّ دُنياكم عِنْدي لأهونُ من ورقةٍ في فم جرادةٍ تقضُمها.

ما لعليٍّ ونعيم يفنَى ولذةٍ لا تَبْقَى، نعوذ بالله من سُباتِ العقل وقُبْح الزّلل.

*

اللهم صُنْ وَجهي باليَسار، ولا تبذُل جاهي بالإقتار، فأسترزقَ طالبي رِزقك، وأستعطِفَ شرار خَلقك، فأُبتلى بمَدح من أعطاني، وأُفْتَن بذمٍّ من منعني.

*

أعجَبُ ما في هذا الانسان قلبهُ، ولهُ موادٌّ من الحكمة، وأضدادٌ من خِلافها،

فإن سَنَحَ له الرّجاء أذلّه الطمع، وإن هاجَ بهِ الطمع، أهلكهُ الحِرص،

وإن ملكه اليأس قتلهُ الأسف، وإن هاجَ بهِ الغضب، اشتدَّ بهِ الغيظ،

وإن أسْعَده الرضَى نَسِيَ التحفُّظ، وإن نالهُ الخوفُ شَغَلهُ الحُزن،
وإن اتّسعَ له الأمن، استلبتهُ العِزّة.
وإن امتُحِنَ بمصيبة نفحَهُ الجزع، وإن أفادَ مالاً، أطغاهُ الغِنى،
وإن عضّته فاقَة أضرعَهُ البلاء، وإن أجهدَهُ الجزع، أقعدَهُ الضّعْف،
وإن أفرط في الشبَع كظّتْهُ البِطنَة،
فكل تقصير بهِ مُضِرٌّ، وكلُّ إفراطٍ له مُفسد.

*

إنّهُ ليسَ شيء بشرّ من الشر إلا عِقابه، وليس شيء بخيرٍ من الخير إلا ثوابهُ،
وكلّ شيء من الدنيا سماعه أعظم من عِيَانه. وكلُّ شيء من الآخرةِ عيانُهُ أعظمُ من سماعه.
فليكفكم من العيان السَّماع، ومنَ الغَيبِ الخَبر.
واعلموا أن ما نقصَ من الدُّنيا وزاد في الآخرة، خيْرٌ مما نقصَ في الآخرةِ وزادَ في الدُّنيا.
فكم من منقوص رابح، ومن مزيد خاسر.
إن الذي أمِرْتُم به أوسع من الذي نُهيتم عنه،
وما أُحِلَّ لكم أكثر مما حُرِّمَ عليكم.
فذرُوا ما قلَّ لما كثر، وما ضاقَ لما اتّسَع.
مع أنه واللهِ، قد اعترَض الشك، ودَخِل اليقين،
حتى كأنّ الذي ضُمِنَ لكم، قد فُرضَ عليكم، وكأنّ الذي قد فُرضَ عليكم، قد وُضِعَ عنكم.

*

كنتُ قد أشركتُكَ* في أمانتي، وجَعلتُك شِعاري وبطانَتي.

ولم يكن من أهلِ بيتي رجُلٌ أوثَقُ مِنك في نفسي، بمؤاساتي ومؤازرتي، وأداءِ الأمانةِ إليَّ.

فلما رأيتَ الزمان على ابن عمك قد كلِب، والعدو قد حَرب، وأمانَةَ الناسِ قد خَزيَت وهذهِ الأمة قد فنكت وشغَرتْ**،

قلبتَ لابن عمك ظهر المجنّ، ففارقتهُ مع المفارقين، وخذلته أسوأ خِذلان وخُنتَ مع من خَان.

فلا ابْنَ عمك آسيْت، ولا الأمانَةَ إليه أدَّيْت.

وكأنك لم تكن اللهَ تُريد بجهادك، وكأنك لم تكن على بيّنة من ربك، وكأنك إنما كنْتَ تكيدُ هذه الأمة عن دُنياهم، وتنوي غِرَّتَهُم عن فيئهم.

فلما أمكنَتْك الشدةُ في خيانةِ الأمة، أسْرعتَ الكرةَ، وعاجلتَ الوثبة واختطفتَ ما قدِرتَ عليه، اختطافَ الذئب الأزلّ لدامية المِعْزى،

فحملتَهُ إلى الحجاز، رَحيبَ الصّدْر بحَملهِ، غيرَ متأثم من أخذه.

كأنك، لا أبا لغيرك، حدَرْتَ إلى أهلك تُراثَك من أبيكَ وأمِّك.

فسبحانَ الله، أوَ مَا تخافُ من المعاد؟ أو ما تخاف نقاشَ الحِساب؟

أيّها المعدود، كان عندنا من أولي الألباب، كيف تُسيغُ شراباً وطعاماً وأنتَ تعلمُ أنك تأكلُ حراماً وتبتاعُ الإماء،

وتنكحُ النساء من أموالِ اليَتَامى والمساكين، والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاءَ الله عليهم، هذه الأموال، وأحْرزَ بهم هذهِ البلاد؟

فاتّقِ الله، وارْدُدْ إلى هؤلاء القَوْم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله مِنك،

---

* الضمير يعود الى ابن عباس والرسالة موجهة إليه.

** فنكَتْ وشغرتْ: أمضتْ في الكذب وخلتْ من الصلاح.

لأعذرَنّ إلى الله فيك، ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضَربت به أحَداً إلا دخل النار.

والله لو أن الحَسنَ والحُسَيْن فَعَلا مِثلَ الذي فَعَلت، ما كانَتْ لهما عِنْدي هوادة، ولا ظَفِرا مِنيّ حتى آخُذَ الحق منهما، وأزيلَ الباطِلَ من مظلمتهما.

*

ما كلُّ ذي قلب بلبيب، ولا كلُّ ذي سمع بسميع.

فيا عجبي، وما لي لا أعجب، من خطأ هذهِ الفِرَق، على اختلافِ حُججها في دينها!

لا يقتفونَ أَثر نبيّ، ولا يقتدونَ بعمل وَصيّ،

ولا يؤمنون بغيب، ولا يعَفُّون عن عَيْب.

يعملونَ في الشُبهات، ويسيرونَ في الشهوات.

المعروفُ عندهم ما عَرَفَوا، والمُنكر عِنْدهم ما أنكروا.

وفزعُهم في المعضلاتِ إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم.

كأنّ كل امرئٍ منهم إمَامُ نفسه، قد أخذ منها، في ما يرى، بعرى ثِقات وأسبابٍ محكمات.

*

(...) ولو شئتُ*، لاهتديتُ الطريقَ إلى مُصفّى هذا العَسل، ولُبَابِ هذا القَمح، ونسائج هذا القزّ،

ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جَشعي إلى تخيُّر الأطعمة.

ولعلّ في الحجاز، واليمامَةِ، من لا طمعَ له في القرص، ولا عَهْدَ له بالشبع!

أأبيتُ مِبطاناً، وحَوْلي بطون غرثى، وأكباد حرّى؟

---

* من رسالة إلى عثمان بن حنيف وكانَ واليَهُ على البصرة.

أأمنـعُ مـن نفسـي أن يُقـال: هـذا أميـرُ المـؤمنين، ولا أشـاركهم فـي مكـارهِ الدَّهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبةِ العَيْش؟

فما خُلقْتُ، ليشْغَلني أكلُ الطيّبات، كالبهيمـة المربوطـة، همُّها عَلَفها، أو المرسلة، شُغلها تَقَمُّمُها،

تكترشُ من أعلافِها، وتلهو عما يُرَادُ بها،

أو أتْرك سُدى، وأهمَلُ عابثاً، أو أجرُّ حَبْل الضلالة، أو أعْتِسف طريقَ المتاهة؟

وكـأني بقـائلكم يقـول: إذا كـانَ هـذا قُـوْتَ ابـن أبـي طالـب فقـد قَعـدَ بـه الضعفُ عن قتالِ الأقران، ومنازلةِ الشجعان.

ألا وإنَّ الشجرةَ البريّة، أصْلبُ عوداً، والنباتات البدوية أقوى وَقُوداً، وأبطأ خموداً.

وأنا من رسولِ اللهِ كالصِّنوِ من الصِّنو والذراع مِن العضُد.

والله لو تظاهَرتِ العَرَبُ على قِتالي لما وليّتُ منها.

ولـو أمكنَـتِ الفُرصُ مِن رِقابهـا، لأسْرَعْتُ إليها وسأجتهدُ فـي أن أطهّرَ الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسْم المركوس، حتّى تخرُجَ المدَرَةُ من حبِّ الحصيد.

*

ـ ما نقمتُم عليَّ؟*

ـ نقمنا عليك ثلاثاً.

ـ ما هُنّ؟

ـ أنْتَ قاتَلت*، ولم تغنَمْ ولم تَسْبِ، فإن كانوا مسلمين، فما حل قتالهم ولا سعيهم، وإن كانوا كفاراً، فقد حَل سبيهم وَقتلهُم.

---

* حوار بين عليّ والخوارج.

ـ هذه واحدة!

ـ وحكّمت الرّجالَ في دينِ الله ، قال الله: (إنِ الحكمُ إلا لله.)

ـ ثنْتان.

ـ ومحوْتَ نفْسك من إمرةِ أمير المؤمنين، فأنْتَ أميرُ الكافرين.

ـ هذه ثلاث. أرأيتكم إن أتاكم من كتاب الله وسُنة نبيه ما يردُّ قولكم، أترجعون؟

ـ نَعَمْ.

ـ أترون أن تَسْبُوا أمكم عائشة، وتستحلونَ منها ما تستحلون من غيرها؟ فإن قُلتُم: نعم، كفرتُم، وإن قُلتمُ ليْسَتْ أمّنا كفرتم، فإن الله عز وجل قال: ﴿وأزْواجُهُ أمهاتهم﴾**.

وأما قولكم حكمتم الرجال في دين الله، فإنّ الله عزّ وجَل حكّم الرِّجالَ في أرْنب، يقتله مُحْرم، فقال: ﴿يحكم به ذوا عَدْل منكم﴾*** ولو شاء لحكم، ولكن جَعَل حُكمهُ إلى الرِّجال.

وقالَ في بُضْع امرأةٍ ﴿فإن خفْتُم شقاقَ بينهما، فابعْثا حكما من أهلهِ وحكماً من أهلها﴾****.

وأما قولكم: مَحوْتَ نَفْسَك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما صَالحَ أهْلَ الحديبيّة، قال لي: اكتُب يا علي؛ هذا ما صالحَ عليه محمد رسولُ الله.

قال له:***** لو عَلِمنا أنك رسولُ الله ما قاتلناك.

---

* الحديث عن حرب الجمل.

** سورة الأحزاب، آية: 6

*** سورة المائدة، آية: 95.

**** سورة النساء، آية: 35.

***** سُهيْل بن عَمْرو.

قال: فما تريدون؟

قالوا: اكتُب اسمك واسْمَ أبيك.

قال رسول الله: اكتُبْ يا عليّ! هذا ما صالحَ عَليْهِ محمد بن عبد الله، وامحُ «رسولَ الله». ولم يكن مَحْوُ «رسول الله» مَحْواً لنبوّة، وكذلك ليْسَ اقتصاري على اسمي، دُونَ «أمير المؤمنين». مُضيّعاً حقاً، ولا مُوجِباً باطِلاً.*

*

(...) إنّ القَوْمَ خافوك على دُنياهم، وخفتَهَم على دِينك،
فاتْرُك في أيديهم ماخافوك عليه، واهْربْ مِنهم بما خفتُهَم عليه،
فما أحْوَجَهُم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك.
لا يؤنِسنّك إلا الحق، ولا يوحِشنّك إلا الباطل،
فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضْتَ منها لأقنوك.**

*

إني واللهِ، ما أحثّكم على طاعة، إلاّ وأسبِقكم إليها،
ولا أنهاكم عن معصية، إلا وأتناهى قبلكم عنها.

*

رُبَّ قريب، أبْعَدُ من بعيد، ورُبَّ بعيدٍ أقرَبُ من قريب. والغريبُ من لم يكُنْ له حبيب.

*

مَنْ تعدَّى الحق ضاقَ مَذْهبُهُ،
ومن اقتصرَ على قَدْرِهِ، كان أبقَى له.

*

* قيل: فرجع ناسٌ كثير معهُ، وعرفوا الحقّ وأذعنوا له.

** الخطاب الى أبي ذر الغفاري عندما نفاه الخليفة عثمان إلى الربذة.

قد يكون اليأسُ إدراكاً، إذا كانَ الطمعُ هلاكاً.

*

ليْسَ كلُّ عَوْرةٍ تظهر، ولا كلُ فُرصةٍ تُصَاب.

*

رُبما أخطأ البصيرُ قَصدهُ وأصَاب الأعْمَى رُشْدَهُ.

*

أخِّر الشر، فإنك إذا شئتَ تعَجّلتَهُ.

*

قطيعةُ الجاهل، تَعْدِلُ صلة العاقل ومن أمِنَ الزمانَ خانَهُ، ومن أعظمَهُ أهانهُ.

*

ليْسَ كل من رَمَى أصاب.

*

إذا تغير السُّلطان تغيّر الزَمان.

*

إياك أن تذكر في الكلام ما يكونُ مُضِحكاً، وإن حكيْتَ ذلك عن غيرك.

*

أيها الناس لا يجرمنّكم شقاقي، ولا يستهوينّكم عصياني، ولا تتراموا بالأبصار عندما تسمعونَه منّي،
فو الذي خلقَ الحبّة، وبرأ النَّسمة، إن الذي أنبئكم به، عن النبي الأميّ، صلى الله عليه وآله،
والله ما كذب المبلغ ولا جَهِل السّامع.

لكأني أنظر إلى ضِلّيل قد نعقَ بالشام، وفحص براياتهِ في ضواحي كوفان، فإذا فغرَتْ فاغرتُه، واشتدّتْ شكيمتُه، وثَقُلت في الأرض وطأتْه، عضّتِ الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجتِ الحرْبُ بأمواجها، وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالي كدوحها.

فإذا أيْنَع زرْعُه* وقام على يَنْعِه، وهدرَتْ شقاشقهُ وبرقَتْ بوارقُه، عُقِدَتْ راياتُ الفِتَن المُعضلة وأقبلن كالليل المُظلم، والبحر الملتْطِم.

هذا وكم يخْرق الكوفة من قاصف، ويمرُّ عليها من عاصف، وعن قليل تلتفُّ القرونُ بالقرون، ويُحْصَدُ القائم ويُحطمُ المحصود.

*

لقد عُلِّق** بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجبُ ما فيه وهو القلب، وذلك أن له موادَّ من الحكمة وأضداداً من خلافها،

فإن سنح الرّجاء أذلّهُ الطمع وإن هاجَ به الطمع، أهلكهُ الحرص، وإن ملكه الياس قتله الأسف،

وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ،

وإن أسعدهُ الرّضى نسي التحفظ،

وإن غالهُ الخوف شغله الحذر،

وإن اتسع له الأمر استلبته العزة،

وإن أصابته مصيبة عضّه الجزع،

وإن أفادَ مالاً أطغاهُ الغِنى،

وإن عضّته الفاقة شغلهُ البلاء،

---

* الضمير في (زرعه) يعود الى عبد الملك بن مروان. قيل إن الإمام في هذه الخُطبة أخبر عن فِتَن ذلك الزمان وزوال مُلك بني مروان.

** الكلام على قلب الإنسان والكلام موجّه إلى ابن عبّاس.

وإن جهدَهُ الجوع قعدَتْ به الضعة،
وإن أفرط به الشبع كظّتهُ البطنة،
فكلُّ تقصير به مُضرّ، وكل إفراط له مفسد.

*

أما بعد، فإنّ المرء يسرُّه درْك ما لم يكن ليفوتَهُ، ويسوءهُ فوتُ ما لم يكن ليدركه،

فما نالك* من دُنياك فلا تكثر به فرَحا، وما فاتك منها فلا تُتْبعْهُ أسَفا.

فليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك على ما خلفت، وهمُّك فيما بعد الموت.

*

اللهم قد انصاحت جبالنا، واغبرّت أرضنا،

وهامَتْ دوابُّنا، وتحيرت في مرابضها وعجَّت عجيج الثكالى على أولادها، وملّت التردُّد في مراتعها والحنين إلى مواردها، اللهم فارحَمْ أنين الآنّة، وحنينَ الحانّةِ،

اللهم فارحَم حيرتها في مذاهبها، وأنينها في موالجها.

ندعوك حين قنطَ الأنام، ومُنِع الغمام، وهلك السّوام،

ألّا تؤاخذنا بذنوبنا،

وانشر علينا رحمتك بالسّحاب المنبعق، والرّبيع المغدق، والنبّات المُونق،

سحّاً وابلاً تُحيي به ما قد مات، وتردُّ به ما قد فات.

اللهمَّ سقياً منك مُحيية مُروية تامّة عامّة، طيبة مباركة، هنيئة مريئة مريعة،

---

* الكلام موجّه لابن عبّاس.

زاكياً نبتها، ثامِراً فرعها، ناضِراً ورقها،

تنعِش بها الضعيف من عبادك، وتحيي بها الميَت من بلادك.

اللهمَّ سقياً منك تعِشبُ بها نِجادنا، وتجري بها وهادنا، ويخصب بها جنابنا، وتُقبلُ بها ثمارنا، وتعيش بها مواشينا، وتندى بها أقاصينا، وتستعين بها ضواحينا،

من بركاتك الواسعة، وعطاياك الجزيلة، على بريّتكِ المرملة، ووحشك المهملة،

وأنزِلْ علينا سماء مُخضلة مدراراً هاطلة، يدافع الودق منها الودق، ويحفز القطرُ منها القطر،

غير خُلَّبٍ برقها، ولا جهام عارضها، ولا قزَع ربابُها، ولا شفّانٍ ذِهابُها،

حتى يُخصب لإمراعها المجدبون، ويحيا ببركتها المسنتون.

*

من خطبه

(...) فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخْفَ على المرتادين،

ولو أن الحق خلص من الباطِل، انقطعت عنه ألسن المعاندين.

ولكن يؤخَذُ من هنا ضغث ومن هذا ضغث فيُمزجان،

فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحُسْنى.

*

إن كنت جازعاً على ما تفلّتَ من يديك فاجزعْ على كلّ ما لم يصل إليك.

*

قد أرعدوا وأبرقوا، ومع هذين الأمريْن الفشل، ولسْنا نُرعدُ حتى نوقع ولا نسيلُ حتى نمطر.

*

ألا لا يعدلن أحدُكم عن القرابةِ يرى بها الخصاصة، أن يسُدَّها بالذي لا يزيُدهُ إن أمسكه، ولا ينقصُهُ إن أهلكه.

*

أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به،

وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيدهِ الإخلاصُ له، وكمال الإخلاص له نفيُ الصفات عنه

بشهادة كل صفةٍ أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة.

فمن وصفه فقد قرنَهُ، ومن قرَنَهُ فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزأه، ومن جزّأهُ فقد جَهَلَهُ، ومن جهلهُ فقد أشار اليه،

ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّهُ فقد عدّه، ومن قال: فِيمَ، فقد ضمّنُه، ومن قال: علامَ فقد أخلى منه.

كائن لا عن حدث، موجودٌ لا عن عدم،

مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء، لا بمزايلة.

فاعِل لا بمعنى الحركات والآلة،

بصير إذ لا منظور إليه من خلقه،

متوحد إذ لا سكنَ يستأنِسُ به، ولا يستوحش لفقده،

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً بلا رويّةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا هَمَامَةِ نفس اضطربَ فيها،

أحال الأشياء لأوقاتها، ولاءمَ بين مختلفاتها، وغرّزَ غرائزها وألزمَها أشباحها،

عالِماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

*

(...) والذي بعثه بالحق لتُبَلبَلنَّ بلبَلة، ولتغُربَلنَّ غربلة، ولتساطُنَّ سوط القِدْر، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم،

وليستبقَنَّ سابقون كانوا قصروا وليقصرنَّ سبّاقون كانوا سبقوا. واللهِ ما كتمتُ وشمة، ولا كذبتُ كذبة،

ولقد نُبِّئت بهذا المقام وهذا اليوم،

ألا وإن الخطايا خَيْلٌ شُمس، حُمِلَ عليها أهلها، وخُلِعت لجمُها فتقحمت بهم في النار،

ألا وإن التقوى مطايا ذُلل حُمل عليها أهلها فأوردتهُم الجنة.

*

(...) وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جُهال، وأضاليلَ من ضُلال،

ونصبَ للناسِ أشراكاً من حبائل غرور، وقول زور،

قد حَملَ الكتابَ على آرائه وعطف الحق على أهوائه،

يُؤمنُ الناس من العظائم، ويُهوِّن كبير الجرائم، يقول: أقِفُ عند الشبهات وفيها وقع.

ويقول: أعتزِل البدَع وفيها اضطجع.

فالصورة صورة إنسان، والقلب قلبُ حيوان.

*

إنكم معْشَرَ العرب، أغراضُ بلايا قد اقتربت،

فاتّقُوا سكراتِ النعمة، واحذروا بوائق النقمة،

وتشبّثُوا في قتام العِشوة، واعوجاجِ الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قُطبها ومدارِ رحاها،

تبدوُ في مدارجَ خفية، وتؤول إلى فظاعةٍ جَلية.

شبابُها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السِّلام،

تتوارثُها الظَّلَمةُ بالعُهود، أوّلهم قائِد لآخرِهم، وآخرهُم مُقتدٍ بأوّلهم. يتنافسون في دُنيا دنيّة، ويتكالبون على جيفةٍ مريحة*، وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع والقائدُ من المقود،

فيتزايلون بالبغضاء ويتلاعنون عند اللقاء،

ثم يأتي بعد ذلك طالعُ الفتنة الرّجوف، والقاصمةُ الزّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة وتضِل رجال بعد سلامة، وتختلف الأهواءُ عند هجومها، وتلتبسُ الآراء عند نجومها،

من أشرف لها قصمته، ومن سَعى فيها حطمتهُ. يتكادمُون فيها تكادُمَ الحمُر في العانة. قد اضطرب معقودُ الحبل، وعَمِي وجه الأمر. تفيض فيها الحكمة، وتنطقُ فيها الظلمة. وتدقّ أهلَ البدْوِ بمسحلها، وترضّهم بكلكلها، يضيعُ في غبارها الوُحدان ويهلك في طريقها الركبان.**

*

(...) وأرديتَ*** جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك،

تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشُّبهات، فجارُوا عن وجِهتهم، ونكفوا على أعقابهم، وتولّوا على أدبارهم وعوّلوا على أحسابهم. إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من مؤازرتك، إذ حملتهم على الصعب، وعدَلتَ بهم عن القصد.

*

---

* مريحة: ذات ريحة منتنة.

** الكلام موجّه إلى عرب ذلك الزمان.

*** الكلام موجّه إلى معاوية.

(...) أبعد* إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله، أشهد على نفسي بالكفر،

لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين.

فأوبوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب.

أما إنكم ستلقون بعدي ذُلاً شامِلاً، وسيفاً قاطعاً، وأثَرة يتَّخذها الظالمون فيكم سُنّةً.

*

أيها الناس كلُّ امرئ لاقٍ ما يفرُّ منه في فراره،

الأجل مَساقُ النفس والهرب منه موافاتُه.

كم أطردْتُ الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى اللهُ إلا إخفاءه.

هيهات علم مخزون أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليومَ عبرة لكم، وغداً مُفارقكم.

غفر الله لي ولكم.

*

أما والله لقد تقمّصها** ابن أبي قحافة،

وإنه ليعلَمُ أنّ محلّي منها محلّ القُطب من الرَّحى ينحدِرُ عنّي السيل ولا يَرْقَى إليَّ الطير.

فسدَلتُ دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً. وطفِقتُ أرتئي بين أن أصُول بيدٍ جذَّاء، أو أصْبِرَ على طخيةٍ عمياء

يهرمُ فيها الكبير، ويشيبُ فيها الصغير، ويكدَحُ فيها مؤمن حتى يلقى ربّه،

---

* يخاطب قوماً خرجوا عنه في صفّين.

** تقمّصها: أراد الخلافة.

فرأيْتُ أن الصبرَ على هاتا أحجى. فصبرت وفي العين قذى، وفي الحَلْق شجا. أرى تُراثي نهباً.

فيا عجباً بينا هو يستقبلها في حياته،

إذ عقدها لآخر بعد وفاته.

لشدّ ما تشطّرا ضَرعيها، فصيّرها في حوزةٍ خشناء يغلظُ كلمها، ويخشَن مسُّها، ويكثُر العثار فيها، والاعتذارُ منها، وصاحبُها كراكب الصّعبة، إن أشفق لها خرَم، وإن أسلس لها تقحّم.*

*

لو أمْرتُ به لكنت قاتلاً، أو نهيْتُ عنه لكنت ناصِراً.

غير أنّ من نصرهُ لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خيرٌ منه.

ومن خذله لا يستطيع أن يقول من نصره هو خيرٌ مني

وأنا جامِعٌ لكم أمْرهُ. استأثر فأساءَ الأثَرَةَ، وجزعْتم فأسأتُم الجزع،

ولله حكم واقعٌ في المستأثرِ والجازع.**

*

ألا وإنّ اللسان بضْعة من الإنسان فلا يُسعدهُ القول إذا امتنع، ولا يمهلهُ النُّطقُ إذا اتسع،

وإنّا لأمراءُ الكلام، وفينا تنشَّبتْ عروقه، وعلينا تهدّلتْ غصونه،

واعلموا رحمكم الله أنكم في زمانٍ، القائلُ فيه الحق قليل، واللسانُ عن الصّدق كليل، واللازمُ للحق ذليل.

*

الكريمُ لا يلين على قسر، ولا يقسو على يُسر.

*

---

* من الخطبة المسماة بالشقشقيّة.

** الكلام في مقتل عثمان.

الحاجة مسألة، والدُّعاء زيادةٌ، والحمدُ شكرٌ، والندمُ توبة.

*

الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صدَقَها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودارُ غِنى لمن تزوّدَ منها.

*

يأتي على الناس زمان لا يُقرَّبُ فيه إلا الماحِل، ولا يُظرّفُ فيه إلا الفاجر، ولا يُضَّعفُ فيه إلا المُنْصِف.

يتّخذون الفيء مغنماً، والصَّدقة مَغْرَماً، وصِلة الرحِم منّاً، والعبادة استطالة على الناس.

ثلاثة لا يُعرفون إلا في ثلاث: لا يُعرف الشجاع إلا في الحرب، ولا الحليمُ إلا عند الغضب، ولا الصّديق إلا عند الحاجة.

*

القلب إذا أُكرهَ عَمِيَ.

*

لا يوحِشنّكم طريق الحق وإن قلَّ سالكوه.

*

اعلم أنك لا تكسبُ من المال شيئاً فوق قوتك، إلا كنت خازناً لغيرك.

*

كلُّ صمت ليس فيه فكر فهو سَهو، وكلُّ نظر ليس فيه اعتبار فهو لهو.

*

إذا كنتَ بطِناً فعُدَّ نفسك زَمِناً.

الأدبُ حليٌ في الغِنىَ، كنزٌ عند الحاجة، عون على المروءة، صاحبٌ في المجلس، مؤنِس في الوحدة. تعمرُ به القلوبُ الواهية، وتحيا به الألباب الميْتة، وتنفذُ به الأبصارُ الكليلة، ويدرك به الطالبون ما يحاولون.

*

من أمرَ بالمعروف شدّ ظهر المؤمن،
ومن نَهى عن المُنكر أرغَم أنفَ المنافق،
ومن صدَقَ في المواقف فقد قضى الذي عليه.
أحببْ حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغِض بغيضَك هوْناً ما، عسَى أن يكون حبِيبَك يوماً ما.

*

ما أنقض النوم لعزائم اليوم.

*

اللهم اجعل نفسي أوّلَ كريمةٍ تنتزعها من كرائمي، وأوّلَ وديعة ترتجعها من ودائع نِعمك عندي.

*

من صارعَ الحق صرعَهُ.

*

لا تجعَلنَّ ذرَبَ لسانك على من أنطقك، وبلاغةَ قولك على من سدّدك.

*

الدُّنيا تعزُّ وتغرُّ وتمرُّ.

*

كفاكَ من عَقلك ما أوضحَ لك سبَب غيّك من رشدك.

*

الحِلم غِطاء ساتر، والعقلُ حسامٌ قاطع،
فاستُر خَلَلَ خُلقْك بحلمك، وقاتلْ هواك بعقلك.

*

اذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات.

*

العَدْلُ يضعُ الأمور في مواضعِها، والجودُ يُخرجها من جهتها. والعَدْل سائس عام، والجودُ عارضٌ خاص، فالعدْل أشرفهما وأفضلهما.

*

الناس أعداء ما جهلوا.

*

إذا كان في رَجُلٍ خلّةٌ رائقة فانتظروا أخواتها.

*

من كرُمَتْ عليه نفسه هانت عليه شهواتُه.

*

زهدك في راغبٍ فيك نقصانُ حظ،
ورغبتك في زاهدٍ فيك ذُلُّ نفس.

*

إعادةُ الاعتذار، تذكيرٌ بالذنْب.

*

النُّصْح بَيْن الملأ تقريع.

*

الشفيعُ جناحُ الطالب.

*

إذا طِرتَ فقَعْ قريباً.

*

لا يَرْضَى عنكَ الحاسِد، حتى يموُتَ أحدُكما.

*

التواضُعُ، سُلّمُ الشرَف.

*

من سَاسَ نفسَه بالصبر على جَهْلِ الناس، صَحّ أن يكونَ سَائِساً.

*

العَقْلُ يأمرُك بالأنفع، والمروءةُ تأمُرك بالأجْمل.

*

الأدبُ حُلل جُدُد.

*

البشاشةُ فخُّ المودة.

*

اتّقوا الذنوبَ في الخلواتِ، فالحاكمُ فيها هو الشاهِد.

*

الفُرصَةُ تمرُّ مَرَّ السّحاب.

*

خُصِصنا بَخمس: فَصاحةٍ وصَباحةٍ وسَماحةٍ ونجدةٍ وحُظوةٍ عند النساء.

*

اعرِف الحق تعرف أهْلهُ.

*

النذالةُ هي الجرأةُ على الصّديق، والنُكول عن العدو.

*

اتّقوا الله الذي إن قُلتُم سَمِع، وإن أضمَرْتُمْ عَلِم.
واحذروا الموْت الذي إن أقمتُمْ أخذكم، وإن هربتُمْ أدرككم.

*

الأمَلُ على الظنّ، آفَةُ العَمَل على اليقين.

*

التجاربُ لا تنقضي، والعاقِلُ منها في زيادة.

*

كنْ في الناسِ وسَطاً، وامشِ جانِباً.

*

نومٌ على يقين خَيْر من صَلاةٍ على شكّ.

*

لسِانُ الإنسانِ سيْفٌ يخطرُ عَلى جوارحه.

*

من أكثرَ النظرَ في العَواقب لم يشجُع.

*

إزالةُ الرّواسي أيْسَرُ من تأليف القلوب.

*

ما أضْمرَ أحد شيْئاً، إلا ظهرَ في فلتَاتِ لِسانهِ، وصفحاتِ وجهه.

*

يا أسْرَى الرِّغبةِ أقْصِروا، فإن المعرِّجَ على الدُّنيا، لا يروعُه إلا صريفُ أنياب الحِدْثان.

*

الغيبة جهد العاجز.

*

الدّنيا خُلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها.

*

من تجرّأ لك، تجرأ عليك.

*

الناس رجلان:
واحد لا يكتفي
وطالب لا يجد.

*

كُلّما كثر خزّان الأسرار،
زادتْ ضياعاً.

*

القلب مصحف البصر.

*

الحلم عشيرة.

*

ليس بلدٌ بأحقّ فيكَ من بلد،
خيرُ البلاد ما حملك.

*

عمرو بن العاص*

لا مَلَلَ عندي،
لدابّةٍ ما حملت رحلي،
ولا لامرأتي ما أحْسَنت عِشرتي،
ولا لصديقي ما حفِظ سِرّي.
إنّ الملل من كواذبِ الأخلاق.

*

إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم** فيه، ليس بأوَلِ أمر قادَهُ البلاء،
وقد بلغ الأمر بنا وبكم ما ترى، وما أبقت هذه الحربُ حياء لنا ولا صَبْراً،
ولسْنَا نقول: ليتَ الحربَ عادت! ولكننا نقول: ليتَها لم تكن كانت.
فانظر في ما بَقيَ، بغَير ما مضى، فإنَّك رأسُ هذا الأمر بعد عَليّ.
وإنما هو أميرٌ مُطاع ومأمورٌ مُطيع ومُشَاوَرٌ مأمون، وأنت هُوَ.

*

ليس العاقِلَ الذي يَعْرف الخَيْر من الشر، ولكنهُ الذي يَعْرفُ خَير الشرَّيْن.

*

من كثر إخوانُه كثُر غرماؤه.

*

---

* توفي عمرو بن العاص سنة 43 هـ عن تسعين عاماً.

** يخاطب ابن عَبْاس.

أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار.

*

مِصر* قرية غبراء، وشجرة خضراء. يكتنفها جبل أغبر، ورمْل أعفر. يخط وسطها نيلٌ مُبارَك الغدوات، ميمون الرّوحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر.

له أوانٌ يدِرُّ حلابُه ويكثر فيه ذبابُه،

تمدُّه عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا تعظمت أمواجه فاضَ على جانبيه.

فإذا تكامل في زيادته نكصَ على عقبيه كأول ما بدأ في جرْيتهِ، وطما في درَّته،

فعند ذلك تخرج أهل أمةٍ محقورة وذمةٍ مخفورة**، يحرثون الأرض ويبذرون بها الحب، ويرجون بذلك النماء من الرب.

فإذا أحدق الزّرع وأشرق، سقاه النّدى، وغذاهُ من تحته الثرى. فبينما مِصر يا أميرَ المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فإذا هيَ عنبرةٌ سوداء، فإذا هي زمُرّدة خضراء، فإذا هي ديباجةٌ رقشاء.

*

البحر*** خَلقٌ عظيم، يركبُه خلقٌ صغير.

---

* من كتاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيه مصر.

** أراد أن شعب مصر كان مستعبداً لدى الرومان ومحتقراً لا يقبل منه رأي ولا شهادة وكلُّ ما يَغله كان يذهب إلى روما.

*** من كتاب للخليفة عمر في وصف البحر. وكان جواب الخليفة عمر: لا والذي بعث محمّداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

إن رَكُن خَرق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول.

يزدادُ فيه اليقين قِلّةً والشكُّ كثرة. ليس إلا السماء والماء، وإنما هم فيه كدُود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق.

*

إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها،

فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها، فارْم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النّواحي.*

*

(...) وقد عَلمِتُ أنَّ إقامةَ المقيم لا تقرِّبه من أجلِه وأنَّ هرَبَ الهارب لا يُباعدهُ من أجَلِه.**

*

(...) فاقبضْ عملك فإن الله قد نزّهني عن تِلك الطعم الدنيّة والرغبة فيها،

بعد كتابك الذي لم تستبقِ فيه عرْضاً، ولم تُكرِم فيه أخاً،

والله يا بْنَ الخطاب: لأنا حيْن يُراد ذلك مني أشدُّ لنفسي غضباً ولها إنزاهاً وإكراماً،

وما عمِلتُ من عَمَلٍ أرىَ عليّ فيه متعلقاً، ولكنني حفِظتُ ما لم تحفظ، ولو كُنْتُ من يهودِ يثربَ ما زُدْتَ. وسكتُّ عن أشياءَ كنتُ بها عالمِاً، وكان اللسان بها مني ذلولاً،

ولكن اللهَ عظّمَ من حقك ما لا يُجهل.***

*

---

* رسالة إلى الخليفة أبي بكر.

** من رسالة إلى الخليفة عمر.

*** من رد على الخليفة عمر وكان اتهمَه بأكل أموال ليسَتْ من حَقه في مصر.

ـ كيف تَجدِك يا عَمْرو؟

ـ أجدُ السماء كأنها مُطبقة على الأرض وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفّس من خَرْتِ إبرة.

اللهُمَّ أمرْتَ فعَصِينا، ونهيْتَ فركبنا،

فلا بريء فأعتذر، ولا قويٌّ فأنتصر.*

*

---

* عبد الله بن عمر يسأل عمرو بن العاص في مرضه.

عُتبة بن أبي سفيان*

(...) ليكن أوّلَ ما تبدأ به إصلاحَ بَنِيّ، إصلاحُ نَفسك،
فإن أعيُنَهم معقودَة بعينك،
فالحَسَنُ عندهم ما استحسنتَ، والقُبْحُ عندهم ما استقبحْتَ. وعلّمهم كتابَ الله، ولا تُكرههُمْ عليه فيملّوه، ولا تَتركهم منه فيهجروه،
ثم رَوِّهم من الشِّعْر أعَفَّهُ ومن الحديث أشْرفَهُ.
ولا تُخرْجْهم من عِلم إلى غيره حتى يُحكموه،
فإنّ ازدحام الكلام في السمْع مَضلةٌ للفَهم.
وتَهدّدْهم بي وأدِّبْهمُ دوني،
وكن لهم كالطبيب الذي لا يُعجِّلُ بالدّواء، قبل معرفة الداء؟
وجنّبهم محادثة النساء، ورَوِّهِمْ بِسِيَر الحكماء واستزدْني بزيادتك إياهُم أزِدْك.
وإياك أن تتّكل على عُذْرٍ مِنيّ لك. فقد اتّكلتُ على كفايةٍ مِنك، وزِدْ في تأديبهم، أزِدْك في بِرِّي.**

*

يا حاملين*** ألأمَ أنوفٍ، رُكِّبَتْ بَيْن أعيُن،

---

* هو أخو معاوية. حضرَ معركة الجمل، وعُيّنَ والياً على مصر. توفي سنة 44 هـ. 664 م. رثاه معاوية فقال: «لو أنّ الدنيا بُنيتْ على نسيان الأحبة، ما نسيتك أبداً». ودُفن بالإسكندرية.

** وصّيته لمؤدّب أولاده.

*** يخاطب أهل مصر.

إنما قلّمْتُ أظفاري عنكم، ليلينَ مسّي إياكم،
وسألتكم صلاحَكم لكم، إذ كانَ فسادُكم راجعاً عليكم.
فأمَّا إذْ أبَيْتُم إلا الطعْنَ في الوُلاة والتنقُّصَ للسّلف، فواللهِ لأقطِّعَنَّ على بطونكم ظهورَ السياط.
فإن حسَمْتُ داءكم وإلا فالسّيف من ورائكم.
فكم من موعظةٍ مِنا لكم مجّتْها قلوبكم، وزجْرةٍ صَمتتْ عَنْها آذانكم،
ولسْتُ أبْخَلُ عليكم بالعقوبةِ، إنْ جُدْتُم لنا بالمعصية،
ولا أوئسكم من مراجعةِ الحُسْنَى، إن صرْتُم إلى التي هِيَ أبَرُّ وأبْقَى.

*

- إنك* سلّطْتَ السّيف على الحق، ولم تُسلّط الحقَّ على السّيف، وجئت بها عَشْوَةً خفية.
- كذبتُم، بلْ سَلّطتُ الحق وبهِ سُلّطتُ، فاعرفوا الحق تعرفوا السيْف،
فإنكم الحاملون له، حيثُ وضعُهُ أفضل، والواضعون له، حيثُ عَملهُ أعْدل، ونَحْنُ في أولِ زمانٍ لم يأتِ آخِرهُ وآخِرِ دهرٍ قد فات أوّله، فصارَ المعرُوف عندكم مُنْكراً والمُنكرُ مَعروفاً.

*

أيُّها النّاس! إنا قد وَلِيْنَا هذا الموضع، الذي يضاعِفُ الله فيهِ للمِحُسنِ الأجر، وعلى المُسيء الوِزْر،
فلا تمدُّوا الأعناق الى غيرنا فإنها تنقطع دُونَنا.
وربَّ متمنٍّ حَتْفُهُ في أمُنيته.
اقبلوا العافية ما قِبلناها منكم وفيكم، وإيّاكم و«لو» فقد أتْعبَت من كان قبلكم،

---

* حِوار بين عُتبة والقُرّاء.

ولن تُريَح مَنْ بعدكم.

*

ـ أيُّها الخليفة!

ـ لسْتُ بهِ، ولمْ تُبْعِدْ.

ـ فيا أخاه!

ـ أسْمَعْتَ فقُلْ.

ـ والله لئن تُحْسِنوا وقد أسأنَا، خيرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحْسنَّا، فإن كان الإحسان لكم، فما أحقكم باستتمامه، وإن كان لنا فما أحقكم بمكافأتنا.

*

اعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم،

فأصلحوا لنا ما ظهر، فنكلكم إلى الله في ما بطن،

وأظهروا خيراً إن أضمرتُم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون.*

*

قد وَليكُم من يقول ويفعل ويفعَلُ ويقول،

فإن ردَدْتم ردّكم بيده، وإن استعصيتم ردّكم بسيفه، ثم رجا في الآخِرِ، ما أمّل في الأوّل.

إن البيعة مُشايَعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل، فأيّنا غدر فلا ذِمّة له عند صاحبه.

*

وأيمُ الله لا أداويكم بالسيف، ما صلحْتُم على السّوط، ولا أبلغ السَّوط ما كفتني الدرّة، ولا أبطئ عن الأولى، ما لم تسرِعوا إلى الأخرى.

* الكلام موجه إلى أهل مصر.

وإياكم قال ويقول قبل أن يُقال فعلَ ويفعل،
وكونوا خير قوسٍ سهماً، فهذا اليوم الذي ليْسَ قبله عقاب، ولا بعده عقاب.

*

تقدّمت منّي إليكم عقوبات قد كنت أرجو الأجر يومئذٍ فيها، وأنا أخاف اليَوم الوزْر عليّ منها،
فليتني لا أكون أصلحْتُ دُنياي بفسادِ مَعادي،
وأنا أستغفرُ الله منكم، وأتوبُ إليه فيكم، وقد أصبحتُ أخاف ما كنتُ أرجو، ندماً عليه، وأرجو ما كنت أخاف اغتباطاً به.*

*

* الكلام أيضاً لأهل مصر.

المستورد التَّيمي*

إذا أفضيْتُ بسرِّي إلى صديقي فأفشاه، لم ألمه،
لأني كنت أولى بحفظه.

*

كن أحرصَ على حِفظ سرِّ صاحبك منك على حقنِ دمك.

*

المالُ غير باقٍ عليك، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك.

*

بذلُ المال في حقه استدعاء للمزيد من الجود.

*

لو ملكتُ الأرض بحذافيرها، ثم دُعِيْتُ إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فَعَلت.

*

---

* قُتل في ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة. قتله معقل بن قيس الريّاحي، يُقال تبادلا ضربتين بالسيف فقتل كل منهما الآخر.

المغيرة بن شعبة*

ملكتُ النساءَ على ثلاثِ طبقات: كنتُ أرضيهنَّ في شبيبتي بالباه، فلما شِبْتُ أرضيتُهن بالمُداعبة والمفاكهة،

فلما كبِرْتُ أرضيتُهنَّ بالمال.

*

كانَ لهُ عَقلٌ يمنعُهُ من أن يُخْدَع، ودينٌ يمنعُه من أن يَخْدع.**

*

ـ إن كنت تتخلّلين من طعام البارحة،

فإنك قذرة.

وإن كان من طعام اليوم فإنك لنَهمة. كنُتِ فَبُنْتِ.

ـ ما فرحْنا إذْ كنا،

ولا أسِفنا إذ بِنّا.

وما هو بشيء مما ظننت. ولكني استكْتُ فأردتُ أن أتخلّل للسواك.***

*

أوّلُ ما عرفني العربُ به من الحزم والدَّهاء، أني كنت في ركب من قومي، في طريقٍ لنا إلى الحيرة.

---

* أحد دُهاةِ العرب. أسلم وشهد فتوح الشام والعراق. ولّاهُ عُمرَ البَصرة ثم الكوفة. توفي سنة 49 هـ.

** الكلام في عمر.

*** بين المغيرة وزوجته وكانت سيّدة من ثقيف فتزوجها يوسف بن أبي عقيل فولدَت له الحجاج.

فقالوا لي: قد اشتهينا الخمرَ وما معنا إلا درهم زائف.

فقُلتُ: هاتُوا وهلمُّوا زقّيْن.

فقالوا: وما يكفيك لدرهم زائف زقّ واحد؟

فقُلت: أعطوني ما طلبتُ وخلاكم ذمٌّ. ففعلوا وهم يهزؤون بي. فَصَبَبْتُ في أحد الزّقين شيئاً من ماء، ثم جئتُ إلى خمّار،

فقُلتُ له: كِلْ لي ملء هذا الزقّ، فملأه، فأخرجتُ الدّرهم الزائف، فأعطيته إياه،

فقال لي: ما هذا؟ ويحك أأنت مجنون؟

فقُلت: ما لك؟

قال: إنّ ثمن هذ الزّق عشرون درهماً جياداً، وهذا درهمٌ زائف.

فقُلتُ: أنا رجُل بدويّ، وظننتُ أن هذا يصلحُ كما ترى، فإن صَلح، وإلّا فخذ شرابك.

فاكتالَ مني ما كاله، وبقي في زِقّي من الشراب بقدْر ما كان فيه من الماء، فأفرغتُه في الزقِّ الآخر، وحملتهما على ظهري وخرجتُ وصَبْبتُ في الزقِّ الأول ماءً.

ودخَلتُ إلى خمّارٍ آخر، فقُلت: إني أريدُ مِلءَ هذا الزقّ خمراً، فانظر إلى ما معي منه فإنَ عندك مِثلهُ فأعطِني. فنظر إليه، وإنما أردْتُ أن لا يستريِبَ بي إذا ردَدْتُ الخمر في الزقِّ الذي فيه الماء، ثم دفعتُ إليه الدرهم الزائف،

فقال لي مثل قول صاحبه.

فقُلت: خذْ خمرك. فأخذ ما كان كالهُ لي، وهو يَرى أنّي خلطتُه بالشراب الذي أريته إياه وخرجتُ فجعلته مع الخمر الأول.

ولم أزل أفعل ذلك بكل خمّارٍ في الحيرة، حتى ملأتُ زِقّي الأول وبعض الآخر.

ثَمَّ رجعتُ إلى أصحابي، فوضَعتُ الزقّين بين أيديهم، وردَدْتُ درهمهم. فقالوا لي: وَيْحك، أيّ شيء صنْعتَ؟

فحدثتُهم فجعلوا يعجبون، وشاع لي الذكرُ في العرب بالدَّهاء حتى اليوم.

*

النساء أربع، والرجال أربعة: رجُل مذكّر وامرأة مؤنّثة، فهُو قوّام عليها.

ورجُل مؤنّث وامرأة مذكّرة، فهي قوّامة عليه.

ورجل مذكر وامرأة مذكرة فهما كالوعليْن ينتطحان.

ورجُل مؤنث وامرأة مؤنثة، فهما لا يأتيان بخير ولا يُفلحان.

*

تزوّجْتُ ثلاثاً وتسعين امرأةً، منهنّ سبعون بكراً،

فوجدْتُ اليمانيةَ كثوبِكَ، أخذْتَ بجانبه فأتْبعكَ بقيّته،

ووجَدْتُ الرَّبَعْية* أمَتك: أمَرْتَها فأطاعَتْكَ،

ووجدْتُ المُضَرية قِرْناً ساورْتَهُ فغلبتَهُ أو غلبك.

*

* نسبة إلى ربيعة.

زياد بن أبيه*

أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيَّ الموفي بأهلهِ إلى النار،

ما فيه سفهاؤكم، ويَشتمِلُ عليه حلماؤكم، من الأمورِ العظام، ينبتُ فيها الصغير، ولا يتحاشىَ عنها الكبير.

كأنكم لم تقرؤوا كتابَ الله، ولم تَسمعُوا ما أعَدَّ اللهُ من الثوابِ الكريم، لأهل طاعته، والعَذابِ الأليم لأهل مَعصيتهِ، في الزّمنِ السرمديّ الذي لا يزول.

أتكونون كمن طرفَتْ عينيه الدُّنيا، وسدّتْ مسامِعَهُ الشهوات. واختارَ الفانيةَ على الباقية؟

ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَثَ الذي لم تُسْبقُوا إليه: من تَرْكِكم الضَعيفَ يُقْهَر ويُؤخذُ ماله؟

ما هذه المواخيرُ المنصوبَةُ، والضعيفةُ المسلوبة، في النهار المبُصِر والعدَدُ غيرُ قليل؟ ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلج الليل وغارة النهار؟

قرّبتُم القرابَة، وباعَدْتمُ الدين.

---

* هو زياد بن أبي سفيان، بعد أن ادعاهُ معاوية أخاً، كان والياً لعلي، قبل معاوية، ثم انضم للأخير وسميت خطبته هذه «البتراء» لأنه لم يحمد الله فيها. خطبها في البصرة. مات بالكوفة سنة 53 هـ وقيل سنة 67 هـ.

تعتذرونَ بغيرِ العُذر، وتعفون عن المختلِس.

كلّ امرئ منكم يذُبُّ عن سفيههِ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة، ولا يَرْجو معاداً.

ما أنتم بالحُلماء، وقد اتبعتم السُّفهاء فلم يزل بكم ما ترونَ من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرَمَ الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانِس الرِّيب.

حرام عليَّ الطعامُ والشراب، حتى أسوِّيها بالأرضِ هَدْماً وإحراقاً. إنّي رأيتُ آخِرَ هذا الأمر، لا يَصلحُ إلا بما صَلحَ بهِ أولهُ:

لِيْنٌ في غَيْر ضَعْف، وشدّةٌ في غير عُنف.

وإني أُقْسِمُ بالله، لآخذَنَّ الوليّ بالموْلى، والمقيمَ بالظّاعن، والمُقْبِلَ بالمدْبر، والمطيعَ بالعاصي، والصحيحَ منكم في نفسهِ بالسقيم،

حتى يَلقَى الرَّجُلُ منكم أخاه، فيقول: انجُ سَعْد، فقد هلكَ سعيد، أو تستقيمَ قناتكم.

وإيايَ ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانَه.

وقد أحدثتمُ أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبة.

فمن غرّق قوماً غرّقناه، ومن أحرق على قوم أحرقناه، ومن نقَب على قوم بيْتاً نقبنا عن قلبه. ومن نبشَ قبراً دفناهُ فيه حياً. كُفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفُّ عنكم يدي ولساني،

ولا يظهر من أحدكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربتُ عُنقه.

إني لو عَلِمتُ أن أحدكم قد قتلهُ السِّلُّ من بُغضي لم أكشف عنه قناعاً ولم أهتِك له ستراً.

فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ومسرور لقدومنا سيبتئس.

واعلموا أني مهما قصّرتُ، فلن أقصِّر عن ثلاث: لسْتُ محتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً بليل،
ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه ولا مجمِّراً لكم بعثاً.
(...) وأيْم الله إن لي فيكم لصَرْعى كثيرة، فليحذَرْ كل امرئ أن يكون من صرعاي.

*

أتاني كتابُك في فاسق يُؤويه الفساق، من شيعتك وشيعةِ أبيك، وأيمُ اللهِ لأطلبُنَّهم، ولو بين جلدك ولحمك،
وإنّ أحبّ لحم إليّ آكلهُ، لحمٌ أنت منه.*

*

لو أنّ لي ألفَ ألفِ درهم، ولي بعير أجْرب، لقُمتُ عليه قيام من لا يَمْلك غيره،
ولو أن عندي عشرة دراهم لا أملِك غيرها، ولزِمني حقٌّ لوضَعتُها فيه.

*

كيف لي باطّراح رَجُل** هو يُسَايرني منذ دخَلتُ العراق،
لم يَصْككْ ركابيَّ ركاباهُ، ولا تقدمني فنظرْتُ قفاهُ، ولا تأخر عني فلوَيْتُ عُنُقي إليه،
ولا أخذ عليَّ الشمْسَ في شتاء قط، ولا الرَّوْح في صَيْفٍ قط. ولا سألتُه عن عِلمٍ، إلا ظننته لم يُحْسِن غيرَهُ.

*

---

* كلام كتبهُ إلى الحسن بن علي.

** يتكلم عن صديق هو الحارثة بن بَدْر الغداني، وكان الشرابُ قد غلبَ عليه فعوُتِبَ فيه زياد.

لا يمنعكنّم سوء ما تعلمون مِنا، أن تنتفعُوا بأحسَن ما تسمعونَ منا.

*

إن تـأخير جزاء المحسن لـؤم، وتعجيل عقوبـةِ المسيئ وفـادة، والتثبـت فـي العقوبة ربما أدى إلى سلامةٍ منها،

وتأخيرَ الإحسان رُبما أدّى إلى ندم لم يمكن صاحبه أن يتلافاه.

*

عليك بالحجاب، فإنما تجرأت الرّعاةُ على السّباع بكثرة نظرها إليها.

*

ألا رُبّ مسرور بنا لا نسرُّه، وخائفٍ ضدنا لا نضرُّه.

*

أحسنوا إلى أهل الخراج، فإنكم لا تزالون سماناً ما سَمِنُوا.

*

ما قرأتُ كتابَ رجلٍ قط إلا عرفت عقله فيه.

*

لو كان يدري ما الزّمان لضرْبت عنقهُ. إن الزّمان هو السلطان.*

*

بلغني** ما كنت تفعله بالمغيرة فيحتمله منك،
وإني والله لا أحتملك على مثل ذلك أبداً.
أرأيتَ ما كنتَ تعرفني به من حُبّ عليٍّ وَودِّه.

---

* قال ذلك عن رجل سمعه يسبُّ الزمان.

** يخاطب حُجْراً بن عديّ. وقد كان زياد صديقاً لحُجر وقد جمعت له الكوفة والبصرة بعد المغيرة.

فإن الله قد سلّمه من صدري، فصيّره بغضاً وعداوة.

وما كنت تعرفني به من بُغض معاوية وعداوتهِ فإن الله قد سلخه من صدري وحوّله حُباً ومودّة.

وإني أخوك الذي تعهد، إذا أتيْتني وأنا جالس للناس فاجلس معي على مجلسي. وإذا أتيتَ ولم أجلس للناس، فاجلس حتى أخرَجَ إليك.

ولك عندي في كلّ يومٍ حاجتان: حاجةُ غُدوةٍ وحاجةُ عشية. إنك إن تستقِم تسلمْ لك دنياك ودينك،

وإن تأخُذْ يميناً وشمالاً تُهلِك نفسك وتُشِطْ دمك.

إني لا أحِبُّ التنكيل قبل التَقدمة، ولا آخذُ بغير حُجة.

*

كفى بالبخل عاراً أن اسمَه لم يقع في حمدٍ قط، وكفى بالجود مجداً أنَّ اسمه لم يقع في ذمٍّ قط.

*

ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر ألا يقع فيه.

*

ما أتيت قطّ مجلساً إلا تركت ما لو أخذته لكان لي،

وتركُ مالي أحبُّ إليَّ من أخذِ ما ليس لي.

*

أبو هريرة*

ـ كنت** صائماً فدخَلتُ داراً فأطعموني، ولم أدْرِ.

ـ الله أطعمكَ.

ـ ثم دخَلت داراً أخرى، فسقوني ولم أدْرِ.

ـ الله أطعمك وسقاك.

ـ دخَلتُ داري، وجامَعْتُ ولم أدْر.

ـ ليسَ ذا فِعلَ من تعوَّدَ القيام.

*

إني لأرُفُّ شفتيها وأنا صائم.***

*

ـ إني أستشيرك، فأشِرْ عليَّ.****

ـ ضعي فاكِ حيثُ وضعَ رسولُ الله فاهُ.

*

---

* أبو هريرة بن عامر. سماه الرسول في الإسلام: عبد الرحمن. أكثرُ الصحابةِ حديثاً. استعمله عمر على البحرين. مات سنة 57 هـ.

** حوار مع رجل.

*** سئل عن تقبيل الصائم لزوجته فكان هذا الجواب.

**** طلب يزيد بن معاوية إلى أبي هريرة أن يخطب عليه هند ابنة سهيل بن عَمْرو، فقالت له لقد طلبني الحسن، فأجابها بالكلام أعلاه فتزوّجت الحَسَن.

عائشة*

يا رسول الله أنا ناعيةٌ إليك أحْظى أحبابك، وذاكرة لك أكرم أودّائِك عليك.

قُتل والله حبيبكُ المُجتبى، وصفيُّك المُرتَضى.

قُتِلَ واللهِ من زوّجْتَهُ خيرَ النساء.

قُتِل والله من آمَنَ ووفَى، وإني لنادبةٌ ثكلى، وعليهِ باكية حَرَّى، ولو كُشِفَ عنك الثرى لقُلت: إنه قُتِلَ أكرمهم عليك، وأحظاهم لدَيْك.**

*

(...) فإني أخبرك أن علياً قد نزلَ ذا قار، وأقام بها مرعوباً خائفاً، لما بلغه من عُدّتنا وجماعتنا،

فهو بمنزلةِ الأشقر، إن تقدّمَ نُحر، وإن تأخّر عُقِر.***

*

كان أفلجَ الأسنان، أشنبها، وكان سهل الخدَّين، صلْتهما، فعْمَ الأوصال،

وكان أكثرُ شيبه في فودَي رأسه،

وكان إذا رضي وسُرّ فكأن وجهَهَ المرآة،

---

* زوج النبي، تزوجها ابنةَ سبع وقبضَ عنها وهي ابنة ثماني عشرة. شهدت حرب الجمل ضِدّ علي. توفيت عام 58 هـ .

** ترثي بهذا الكلام علياً.

*** رسالة منها إلى حفصة بنت عمر.

وكان فيه شيء من صَوَر، يخطو تكفُؤاً، ويمشي الهوينا،

يبذُّ القومَ إذا سارع الى خير، أو مشى به، ويَسُوقهم إذا لم يسارع إلى شيء بمشيه الهوينا.*

*

---

* وصفها لعلي بن أبي طالب.

الحطيئة*

ـ يا أبا مُليْكة ألك حاجة؟

ـ لا، والله، ولكن أجزَعُ على المديح الجيِّد، يُمدح به من ليْس له أهلاً.

ـ فمن أشعرُ الناس؟

ـ أنا. وأومأ بيده إلى فِيهِ. هذا الحُجيْر إذا طمع في خير.

ـ ما تقول في عبيدك وإمائك؟

ـ هم عبيدٌ قِنٌّ ما عاقَبَ الليلُ النهار.

ـ أوصِ للفقراء بشيء.

ـ أوصيهم بالإلحاح بالمسألة فإنها تجارةٌ لا تبور.

ـ فما تقولُ في مالك؟

ـ للأنثى من ولدي مِثْلُ حظ الذكر.

ـ ليس هكذا قضى الله عز وجل.

ـ لكني هكذا قضيت.

ـ فما توصي لليتامى؟

ـ كلوا أموالهم ونيكوا أمهاتهم.

ـ فهل شيء تعهَدُ فيه غير هذا؟

ـ نعم، تحملونني على أَتان، وتتركوني راكباً حتى أموت. فإن الكريمَ لا يموت على فراشه. والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط.

*

---

* جرول بن أوس. مخضرم. والكلام أعلاه حوار جرى بينه وبين قوم.

قيس بن سَعد*

(...) فإنما أنت وثنيٌّ ابن وثنيّ، دخَلتَ في الإسلام كُرْهاً، وخرجْتَ منه طوْعاً.

لم يقدُم إيمانك، ولم يَحْدُث نفاقُك، وقد كان أبي، وَتَرَ قوسَهُ، ورَمَى غرضَهُ، وشغِبَ عليه من لم يبلغ كعْبَه، ولم يُشقّ غبارهُ. ونحن أنصارُ الدّين الذي خرجتَ منه، وأعداء الدّين الذي دخَلْتَ فيه.

*

(...) أتسومُني الخروج عن طاعةِ أولى الناس بالإمرة، وأقربهم للخلافة وأقولهم للحق،

وتأمرني بالدُّخول في طاعتك، طاعةِ أبعد الناس عن هذا الأمر وأقولهم للزُّور، وأضلهم سبيلاً،

وأبعدهم من الله عزّ وجل وسيلة،

ولدِ ضالّين مُضلّين طاغوتٍ من طواغيت إبليس**.

*

---

* من رسالة إلى معاوية، كان والياً لعلي على مصر، حاول معاوية استدراجَهُ، فتكاتبا في ذلك، فأشيع أن قيْساً انحاز إلى معاوية. فعزَله، قبل التثبت، كما يقول بعض المؤرخين. بقيَ ملازماً لعلي. توفي سنة 60 هـ. (قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري).

** من رسالة أخرى الى معاوية.

الحسن بن علي*

(...) إن الله لا يطاع استكراهاً** ولا يُعصى لغَلبَة،
لأنه المليك لِما ملَّكهم، والقادرُ على ما أقْدرَهم عليه.
فإن عَمِلوا بالطاعةِ، لم يحُل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عَمِلوا بالمعصية، فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا،
فإن لم يفعلوا، فليس هو الذي أجبرهم على ذلك.
فلو أجبر الله الخلق على الطاعةِ، لأسقط عنهم الثواب ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العِقاب.
ولو أهملهم لكانَ عَجْزاً في القُدرةِ.
ولكنّ له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم،
فإن عَمِلوا بالطاعات، كانَت له المِنّةُ عليهم،
وإن عملوا بالمعصية، كانت له الحجة عليهم.

*

- أنت ابن أبي طالب؟
- أنا ابن ابنه.
- فبك، وأبيك، أسبّهما.
- أحسبُك غريباً.
- أجَلْ.

---

* الحسن بن علي بن أبي طالب، توفي عام 61 هـ.

** رسالة إلى أهل البصرة في موضوع الجَبْر.

ـ فمِلْ بنا، فإن احتجْتَ إلى منزلٍ أنزلناك، وإلى مَالٍ آسيْناك، أو إلى حاجةٍ عاونّاك.*

*

إن خير ما بذلتَ من مَالِك ما وَقيتَ به عِرْضَك. وإن من ابتغاء الخير اتقاءَ الشر.

*

أيها الناس إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا. وإن لهذا الأمر مُدة والدُّنيا دُوَل.

يا أهل الكوفة لو لم تُذهل نفسي عنكم إلا لثلاث خصال لذُهِلت: مقتلكم لأبي وسلبكم ثقلي، وطعنكم في بطني.

وإني قد بايَعتُ معاوية فاسمعوا لي وأطيعوا.**

*

لقد قُبِض هذه الليلة رجُل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولم يدركه الآخرون بعمل.

أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي وأنا ابن الوصيّ، وأنا ابن البشير النذير.

فو الذي بعث محمداً بالحق، لا يُنقص من حقنا أحد، إلا نقصَهُ اللهُ من عمله، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين.***

*

---

* حوار مع رجل يبغض علياً وآله، قال الرجل: انصرفت عَنْه والله ما على الأرض أحب إليَّ مِنه، وقد كان أبغضَ أهل الأرض إلي.

** قال هذا الكلام يوم بايع معاوية وكان قد اعترضه قوم من أنصار أبيه، احتجاجاً على بيعته فسلبوا متاعه وطعنوه فِي بطنه.

*** يوم مقتل أبيه.

معاويـة بن أبي سفيان*

ـ يا أبَت، ما أدري: أنخدعُ الناسَ،
أم يخدعونَنا بما يأخذون منّا؟
ـ يا بُنيّ، مَن خَدَعكَ فانَخدعْتَ له، فقد خدعته.**

*

ـ ما بلغ من دهائك؟
ـ ما دخلتُ في أمرٍ إلا عرفتُ كيف الخروج منه.
ـ لكني، ما دخلتُ في أمرٍ قط وأردتُ الخروج منه.***

*

(...) إن غَلَبَ أحبّ الفريقين إليكَ، عَزلَك واستبدلَ بك. وإن غلبَ أبغضهُما إليك، قَتَلك وَمَثّل بِك. قد كانَ أبوك فَوّق سهمَه، ورمَى غرضه، فأكثرَ الحَزَّ، وأخْطأ المَفْصِل، حتّى خَذله قومه، وأدركه يومه، فمات غريباً بِحَوْران.****

*

أعُنْتُ على عليٍّ بثلاثِ خصال: كان رجُلاً يُظهرُ سرّهُ، وكنت كتوماً لِسرّي،

---

* توفي سنة 61 هـ.

** حوار بين معاوية وابنه يزيد.

*** حوار بين معاوية وعمرو بن العاص.

**** من رسالة إلى قيس بن سعد، وهو والي مصر لعليّ.

وكانَ في أخبَثِ جُنْدٍ وأشدِّهِ خِلافاً، وكنت في أطوعِ جُنْدٍ وأقلّهِ خِلافاً، وخلا بأصحاب الجمل، فقلت: إن ظفِرَ بهم، اعتددْتُ بهم عَليْه، وَهْناً في دينه، وإن ظفروا بهِ كانُوا أهونَ شوكةً عليَّ مِنه. وكنتُ أحبَّ إلى قريش مِنه فكم شتيتٍ جامعٍ إليَّ، ومفرَّقٍ عنه.

*

- أتجد نعتي في شيء من كُتُبِ الله؟*

- إني واللهِ، لو كُنْتَ في أمّةٍ، لوضعْتُ يدي عليك من بينِهم.

- فكيف تجدني؟

- أجدُك أوّلَ من يُحوِّلُ الخِلافةَ مُلكاً، والخُشْنةَ لِيْناً. ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم. لاتقبل هذا مني، ولكن من نفسك فاجْتبِ هذا الخبر.

- ثم يكون ماذا؟

- يكونُ منك رجُلٌ شرّاب للخمر، سفّاك للدّماء، يحتجنُ الأموال، ويصطنعُ الرجال، ويجنُبُ الخيول، ويُبيح حُرْمة الرسول.

- ثم ماذا؟

- تكونُ فِتنة، تتشعبُ بأقوام، حتى يُفْضي الأمرُ بها إلى رَجُل** أعرِفُ نَعْتَه، يبيعُ الآخِرةَ الدائمة، بحظ من الدُّنيا مخسوس،

فيجتمع عليه من آلِك، وليس منك، لا يزالُ لعدوهِ قاهِراً وعلى من ناوأهُ ظاهِراً، ويكونُ له قرينٌ مُبيرٌ لعين.***

- أتعرفه إن رأيته؟

---

* من حوار بينه وبين رجل مُتكهِّن.

** عبد الملك بن مروان.

*** الحجاج بن يوسف.

ـ شدّ ما.*

*

العِيالُ إرَضَةُ المال.

*

لا تُفسِدِ أدبَك بتأديب غيرك.

*

لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت،
إن شدّوا أرْخيت وإن أرْخوا، شدَدْت.

*

عجبتُ لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدِر عليه بالحُجة،
ولمن يَطلبه بِخُرْق وهو يقدرُ عليه برفق.

*

ما وجدتُ شيئاً ألذَّ عندي غِبّاً من غيظٍ أتجرَّعُه ومن سفهٍ بالحِلم أجمعهُ.

*

أفضل ما أُعطي الرجل، العقل والحِلم،
فإذا ذُكِّر ذَكَر، وإذا أساء استغفر،
وإذا وعد أنجز.

*

مرحباً بكم يا معشر العرب*

---

* قيل: وجه معاوية الرجل مع جماعة ثقة إلى المدينة، فعرفَ عَبْد الملك بن مروان من بين الناس، وأشار إليه.

أما والله لئن فرّقت بينكم الدَّعوة، لقد جمعتكم الرّحِم،
إنّ الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم،
ثم حَفِظ عليكم نسبكم بأن تخيّركم بلاداً تُجتاز عليها المنازل، حتى صفّاكم من الأمم كما تُصفى الفضّةُ البيضاءُ من خبثها. فصونوا أخلاقكم، ولا تدنسوا أنسابكم وأعراضكم.
فإن الحسَن منكم أحسْنُ لقربكم منه، والقبيح منكم أقبحُ لبعُدكم عنه.

*

ما رأيت تبذيراً قط إلا وإلى جَنبِه حقٌّ مضيّع.
أنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.
أولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة.

*

احتجاجك** عليَّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك،
فاحْمدْ رباً صرف هذا الفضل عنك وجعلهُ لغيرك،
فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا.
فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمَّ له ما وعدَهُ وأظهر دعوته، وأثلج حُجته وقبضه الله إليه، صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقه وخالفه على أمره، على ذلك اتفقا واتّسقا. ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكّأ عليهما، فهمّا به الهموم، وأرادا به العظيم،

---

* معاوية يرحب بوفد من أهل العراق.

** رسالة من معاوية إلى محمد بن أبي بكر الصديق.

ثم إنه بايع لهما وسلّم لهما،
وأقاما لا يُشركانه في أمرهما، ولا يطلعانِه على سرّهما، حتى قبضهما الله.
ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما،
فعبتَهُ أنت وصاحِبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل وأظهرتما عداوتكما حتى بلغتما فيه مُناكما.
فخذْ حِذرك يا بْنَ أبي بكر، وقِس شِبرك بفترك يقصُر عن أن توازي أو تساوي من يزنُ الجبال بحِلمه،
لا تلين عن قسرٍ قناتُه ولا يدرك ذو مقال آفاته، أبوك مهدَ مهاده، وبَنَى لملكه وساده،
فإن يك ما نحنُ فيه صواباً فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه. ولولا ما فعل أبوك من قبل، ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلّمنا إليه.
ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله،
فعِب أباك بما بدا لك أو دَع ذلك والسّلام على من أناب.

*

واللهِ ما أتقدّم حتى أرى التقدّمَ غُنماً ولا أتأخّر حتى أرى التأخّرَ حزماً.

*

أجملوا في الطلب، فرُبّ رافع لقمةٍ إلى فيهِ، تناولها غيره.

*

مهما كان في الملك فإنه لا ينبغي أن يكون فيه أربعُ خصال: الكذِب، فإنه إن وعَدَ خيْراً لم يُرْجَ وإن أوعَدَ شراً لم يُخَفْ، والبخل، فإنه إذا بَخِلَ لم ينصحهُ أحد، ولا تصلحُ الولايةُ إلا بالمناصحة والحسد، فإنه إذا حسد، لم يَشْرُف أحد في دولته، ولا يصلحُ الناس إلا على أشرافهم.

والجبن، فإنه إذا جَبَن اجترأ عليه عدوُّهُ، وضاعَتْ ثغُوره.

*

طلب عليٌّ الدُّنيا فجمحَتْ به، وإنّي طلبتُ الدنيا فنلْتها.

*

ـ جئتُ أسألك بالرحم التي بيني وبينك.
ـ أمِن قريش أنت؟
ـ لا.
ـ فأيّةُ رحم بيني وبينك؟
ـ رَحِم آدم.
ـ رَحِمٌ مجفوَّة، واللهِ لأكوننّ أولَ من وصلها.

*

من المروءةِ احتمالُ الجريرة.

*

النُّبلُ، الحِلمُ عند الغضب.

*

أولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة.

*

إصلاح ما في يدك أسْلمُ من طلب ما في أيدي النّاس.

*

(...) انظر* إلى أهل الحجاز، فهم أصلك وعترتك.
وانظر الى أهل العراق فإن سألوك عزْلَ عاملٍ لهم في كل يوم فاعزلهُ عنهم،

* وصية معاوية إلى ابنه يزيد.

فإن عزل عامل أهونُ عليك من سلّ مئة ألف سيف، ثُم لا تدري على ما أنتَ عليه منهم.

ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهُمْ الشِّعار دُون الدّثار، فإن رابك من عدوِّك ريب فارمهم بهم.

فإن أظفرك الله بهم، فاردُد أهل الشام إلى بلادهم ولا يُقيموا في غير بلادهم فيتأدّبوا بغير أدبهم.

لسْتُ أخاف عليك غير عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وحسين بن علي. فأما عبد الله بن عمر فرجلٌ قد وقذهُ الورع،

وأما الحسين، فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه،

وأما ابن الزبير، فإنه خِبّ ضَبّ.

*

ـ ما أشدَّ حُبّك للمال! *

ـ لم لا أحبّه وأنا أستعبدُ به مثلك، وأبتاعُ به مروءتك ودينك.

*

أظهرنا للناس حِلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقد.

*

المودّة بْينَ السّلف ميراثٌ في الخلف.

*

ـ ما أنصفك عليّ. قتل أولادك وبَقّى أولاده **.

ـ وما أنصَفْتَ عليّاً إذْ قُتِل وبَقيْتَ بعده.

ـ إما إنه قد بقيَت قطرة من دَم عثمان ما يمحوها إلا دمُ شريفٍ من أشراف اليمن.

---

* معاوية يحاور رجلاً.

** حوار مع عدي بن حاتم: قتله معاوية وقتل معه جماعة في عدرا، شرقي دمشق.

ـ واللهِ إن قلوبَنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنَيْتَ لنا من الغدر فِتْراً، لنُدنِيَنَّ إليك من الشرّ شبراً. وإن حزّ الحلقوم، وحشرجَةَ الحيزوم لأهون علينا من أن نسمعَ المساءة في عليّ، فسلّم السَّيف يا معاوية لباعثِ السيف.

ـ هذه كلماتُ حِكم فاكتبوها.

*

ـ يا أهل الشام ما ظنّكم برجُلٍ لم يصلْح لأخيه؟

ـ يا أهل الشام إن أخي خيرٌ لنفسه وشرٌّ لي، ومعاوية شرٌّ لنفسه وخَيْرٌ لي*.

ـ يا أهل الشام إن عمّ هذا أبو لهب.

ـ يا أهل الشام إن عمّة هذا حمّالةُ الحطب!

*

النّاس أعطونا سلطاناً وأعطيناهم أماناً. وأظهروا لنا الطاعة تحت حِقد، وأظهرَنا لهم حلماً تحت غَضَب.

*

* حوار بين معاوية وعقيل بن أبي طالب.

صعصعة بن صوحان*

ـ ممن الرجل؟

ـ من نزار.

ـ ومن كان نزار؟

ـ كان إذا غزا نكس، وإذا لِقَي افترس، وإذا انصرفَ احترس.

ـ فمن أي أولادهِ أنت؟

ـ من ربيعة.

ـ وما كان ربيعة؟

ـ كان يطيل النّجاد، ويطولُ العباد، ويضرب ببقاع الأرض العماد.

ـ فمن أي أولاده أنت؟

ـ من جديلة.

ـ وما كان جديلة؟

ـ كان في الحرب سيفاً قاطِعاً، وفي المكرماتِ غيثاً نافِعاً وفي اللقاء لهباً ساطعاً.

ـ فمن أيِّ أولادهِ أنت؟

ـ من عبد القيس.

ـ وما كان عبد القيس؟

ـ كان خصيباً، أبيضَ وهّاباً، لا يَسْأل عما فقد، كثير المرَق، طيّبَ العرق، يقوم للناس مقام الغيْثِ من السماء.

---

* كان مع الإمام علي، وكان خطيباً فصيحاً، من رجال علي البارزين، حوار بينه وبين معاوية.

ـ ويحك يا بن صوحان، فما تركت لهذا الحي من قريش مجداً ولا فخراً.
ـ بلى والله، تركت لهم ما لا يصلح إلّا بهم، ولهم تركتُ الأبيض والأحمر، والأصفَر والأشقر والسريرَ والمنبر، والمُلك إلى المحشر. وأنَّى لا يكون ذلك كذلك، وهم منارُ الله في الأرض ونجومه في السماء.
ـ صدقت يا بْنَ صوحان.
ـ ليْسَ لك ولا لقومك.
ـ فلمَ ذلك ويلك.
ـ الويْلُ لأهل النار، ذلك لبني هاشم.

*

أسرعُ الناس إلى فتنة، وأضعفهم عنها، وأقلُّهم غَنَاءً فيها، غيرَ أنّ لهم ثباتاً في الدين، وتمسّكاً بعُروةِ اليقين، يتّبعون الأئمة الأبرار، ويخلعون الفسَقةَ الفجّار.*

*

البصرة واسطة العرب، ومنتهى الشرف والسؤدُد. وهُم أهل الخِطط في أول الدّهر وآخره وقد دارت بهم سرواتُ العرب، كدوران الرَّحَى على قطبها.

*

ـ ما السُّؤدُد فيكم؟**
ـ إطعام الطعام وليْنُ الكلام، وبذْلُ النَوال، وكفُّ المرءِ نفسَه عن السُّؤال، والتودُّدُ للصغير وللكبير، وأن يكون النّاس عندك شرعاً.
ـ فما المروءةُ؟

---

* صعصعة يصف أهل الحجاز.
** حوار بين صعصعة وابن عباس.

ـ أخوان اجتمعا، حارسهما قليل وصاحبُهما جليل، يحتاجان إلى صيانة مع نزاهةٍ وديانة.

ـ فمن الفارس فيكم؟

ـ الفارسُ من قصُر أجله في نفسه، وضغم على أملهِ بضرسه، وكانت الحربُ عليه أهونَ من أمس.

ذلك الفارسُ إذا وقدَتِ الحروب، واشتدّت بالأنفُسِ الكروب.

ـ زدْني.

ـ الفارسُ كثيرُ الحذر، مديرُ النظر، يلتِفت بقلبه، ولا يُديرُ خرزاتِ صُلبهِ.

*

حارثة بن بدر الغداني*

ركبتُ فرساً أشقر** فحملني حتى صَدمَ الحائط.

*

---

* تابعيّ من أهل البصرة (.. – 64 هـ). قيل أدرك النبي محمد (ص).

** يقصد النبيذ.

الحسين بن علي*

ثلاثَةٌ تذهبُ ضياعاً:

دينٌ بلا عقل،

ومالُ بلا بَذل،

وعشقٌ بلا وَصْل.

*

ـ ما وراءك يا أبا فِراس!**

ـ أصدقُك؟

ـ الصدقَ أريد.

ـ أما القلوبُ فمعك، وأما السُّيوف فمع بني أميةٍ عليك. والنصر من عند الله.

ـ ما أراك إلا صدقت. إن الناسَ عبيدُ المال، والدِّينُ لغو على ألسنتهِم. يحوطونَه، ما دَرَّتْ به معايِشهُم، فإذا فُحِصُوا للابتلاء، قلَّ الديّانون.

*

نظر إلى سائل يبكي، فقال: لو أنّ الدنيا في يد هذا، ثم سقطت منه ما كان ينبغي أن يبكي عليها.

*

---

* استشهد في كربلاء سنة 64 هـ، وكانت ولادته سنة 38 هجرية.

** هو الفرزدق وقد لقيَ الحُسين في طريقهِ إلى الكوفة.

ـ لم أُوتم النبيّ من أبويه؟

ـ لئلا يوجب عليه حقّ لمخلوق.

*

ـ من أعظم الناس خطراً؟

ـ من لم ير في الدنيا خطراً لنفسه.

*

ـ كيف أصبحت؟

ـ أصبحنا خائفين برسول الله، وأصبح جميع أهل الإسلام آمنين به.

*

إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس.

*

الكريم يبتهج بفضله، واللئيم يفتخر بملكه.

*

محمد بن الحنفية*

لئنْ عزّتْ حياتُك، فقد هَدّت وفاتُك،
ولنِعْم الرُّوح، رُوح تضمنه كفنك،
ولنِعمَ الكفنُ كفن تضمّن بَدَنك.
وكيف لا تكون هكذا، وأنتَ عقبةُ الهدى، وخَلفُ أهل التقوى، وخامِسُ أصحابِ الكساء.
غذتك بالتقوى أكفُّ الحق،
وأرضعَتْكَ ثُدِيُّ الإيمان،
ورُبِّيْتَ في حِجر الإسلام، فِطبتَ حياً وميتاً، وإن كانَت أنفُسنا غيرَ سخيّةٍ بفراقِك.**

*

من كرُمَتْ نفسُه عليه، هانَتِ الدُّنيا في عَيْنيَهِ.

*

ليس بحكيم من لم يُعاشر بالمعروف، مَنْ لم يجد، من معاشرتهِ بُداً.

*

ـ لم كان عليٌّ يُقحمُكَ في المآزق، ويولجك في المضايق، دونَ الحَسن والحُسَين؟

---

* توفي سنة 64 هـ.

** رثاء لأخيه الحسن بن علي بن أبي طالب.

- لأنهما كانا عيْنيْهِ، وكنتُ يَديه، فكانَ يتّقي بيديه عن عينيه.

*

قد يدفع اللهُ باحتمالِ المكروه، مكروهاً أعظم منه.

*

إني اعتزلت الأمة عند اختلافها،

فقعدتُ في البَلد الحرام الذي من دخلهُ كان آمِناً لأحْرزَ ديني، وأمنعَ دمي، وتركتُ الناس.

وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك، ونحن عصابة من أمتنا لا نفارق الجماعة،

وقد بعثت إليك منا رسولاً، ليأخذ منك ميثاقاً،

ونحن أحق بذلك منك، فإن أبيْتَ فأرض الله واسعة والعاقبة للمتقين.*

*

* رسالة محمد بن الحنفية الى عبد الملك بن مروان عند ولايته

عبد الله بن عمرو بن العاص*

ـ السؤدد؟**

ـ اصطناع العشيرة، واحتمالُ الجريرة.

ـ الشرف؟

ـ كفُّ الأذى، وبَذْلُ النّدى.

ـ المروءة؟

ـ عِرفان الحق، وتعهُّد الصنيعة.

ـ السناء؟

ـ استعمالُ الأدب، ورعايَةُ الحسب.

ـ المجد؟

ـ حَمْلُ المغارم، وابتناء المكارم.

ـ الحِلم؟

ـ كظمُ الغيظ، ومِلكُ الغَضَب.

ـ الحزم؟

ـ تنتظر فريستك، ولا تُعاجل حتى يمكنك.

ـ السماحة؟

ـ حبُّ السائِل، وبَذْلُ النائل.

---

* صحابي. أسلم قبل أبيه. أكثر الصحابة حديثاً عن النبي. مات بالشام سنة 65.

** أبوه يَسْأل وهو يجيب.

ـ الغِنى؟

ـ قِلةُ تمنّيك، والرضى بما يكفيك.

ـ الجود؟

ـ أن ترى نعماك زائدة، والعطيّة فائدة.

ـ الفقر؟

ـ شَرَهُ النفس، وشدّةُ القُنوط.

ـ الجهل؟

ـ سُرعةُ الوثاب، والعِيُّ بالجواب.

*

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان*

إن أمير المؤمنين** كان حَبْلاً من حبالِ الله، مدّهُ ما شاء أن يمُدَّهُ، ثم قطعه حين أراد أن يقطعَه.

كانَ دُون من قَبْلهُ، وخيراً مما يأتي بَعده، ولا أذكيهِ عند رَبّه، وقد صَار إليه،

فإن يَعفُ فبرحمته، وإن يُعاقِبْهُ فبذنبه.

وقد وُلِّيتُ بعده الأمر، ولسْتُ أعتذرُ من جَهل، ولا أَنِيْ عن طلبِ عِلم، وعلى رِسْلكم. إذا كرِهَ الله شيئاً غيّرهُ، وإذا أحَبّ شيئاً يَسّرَهُ.

*

الجودُ إعطاء المال من لا تعرف، فإنه لا يصل إليه حتى يتخطى من تعرف.

*

---

* توفي سنة 66 هـ.

** خطبة خطبها في مَوْتِ أبيه.

أسماء بن خارجة*

يـا بنيّـة! الأمهـاتُ، يُـؤدِّبْنَ البنـات، وأمُّـك هلكـت، وأنـتِ صـغيرة. فعليـك بأطيب الطيب، الماء، وأحسَنِ الحُسْنِ، الكحل.

وإياكِ وكثرةَ المعاتبة، فإنـها قطيعة للفرد.

وإياكِ والغيرة فإنها مفتاحُ الطلاق.

*

لا أشَاتِمُ رجلاً، ولا أردّ سائلاً.

*

* أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري (... – 66 هـ) تابعي من رجال الطبقة الأولى. من أهل الكوفة بالعراق.

عبد الله بن عباس*

كفى بكَ ظالماً أن لا تزال مخاصِماً،
وكفى بك آثماً أن لا تزال ممارياً،
وكفى بك كاذباً أن لا تزال محدثاً.

*

(...) إنّ السماء الدنيا من رخام أبيض. وإنما خضرتها من خضرة جبل قاف. وروي أن السماء موج مكفوف. واختلف، القدماء فيه، فزعم بعضهم أن جوهر السماء من حديد، وزعم بعضهم أنه جوهر صلب جمد بالنار حتى صار مثل الجليد. ومنهم من يزعم أنه جوهر ناري، وبعضهم يراه جوهراً مركباً من حار وبارد. وبعضهم يراه جوهراً خارجاً من مزاج الطبائع.

*

المجرّةُ بابُ السمّاء الذي تنشق عنه الأرض.
وقوس قزح أمانٌ لأهل الأرض مِن الغَرَق.

*

ما بلغني عن أخٍ مكروهٌ قط، إلا أنْزلتُه إحدى ثلاث منازل:
إن كان فوقي، عَرفْتُ له قَدْرَه.
وإن كان نظيري تَفضلتُ عليه.

---

* ابن عم النبي. من أولادهِ عليّ، أبو الخلفاء العباسيين، كان مفسراً للقرآن، وعالماً بالسُّنة، أديباً، بليغاً، محدثاً. له مكانة مرموقة عند الجميع. توفي سنة 69 هـ.

وإن كان دوني، لم أحفَلْ به.

هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها، فأرض الله واسعة.

*

كانت السماوات رَتْقاً لا تُمطر،

وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنْبت،

فَفتقَ هذه بالمطر، وفَتَقَ هذه بالنّبات.

*

تَشتمني وفِيَّ ثلاث خِصال:

إنيّ لآتي على الآية من كتاب الله، فوددتُ أن جميعَ الناس يعلمون منها ما أعلم،

وإني لأسمعُ بالحاكم مِن حُكام المسلمين يعدل في حكمهِ، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً،

وإني لأسمعُ أنّ الغيثَ قد أصابَ بلداً من بلدان المسلمين، فأفرحَ ومالِيَ به مِن سائمة.

*

خُذ الحكمة مِمن سمعت، فإنَّ الرجل ليتكلم بالحكمة وليس بحكيم، فتكون كالرمية خرجت من غير رامٍ.

*

فَرحُك بالذنْب إذا عملته أعظم من الذنْب.

*

ـ ما نقمتم على أمير المؤمنين؟*

---

* حِوار مع نافع بن الأزرق من الخوارج.

ـ كان للمؤمنين أميراً، فلما حكم في دينِ الله، خرجَ من الإيمان، فليتب بعد إقراره بالكفر، نَعُد لهُ.

ـ ما ينبغي لمؤمنٍ لم يَشُبْ إيمانَهُ شك، أن يُقِر على نفسهِ بالكفر.

ـ إنهُ قد حكّم.

ـ إن الله عز وجل، قد أمرنا بالتحكيم في قَتل صَيد، فقال: «يحكم به ذوَا عدْلٍ مِنْكُم»* فكيف في إمامةٍ أشكلت على المسلمين؟

ـ إنه قد حُكمَ عليه فلم يَرضَ.

ـ إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسقَ الإمام، وجبَتْ معصيتُه، وكذلك الحكمان، لما خالفا نُبذِت أقاويلهما.

*

ـ أرأيتَ نبيّ الله ، سليمان، مع ما خوّله الله وأعطاه، كيف عُنِي بالهدهد، على قِلته وضؤولته؟

ـ إنه احتاج إلى الماء، والهدهد قنّاء. الأرضُ له كالزُجاجة يرى باطنها من ظاهرها، فسألَ عَنْه لذلك.

ـ قِف يا وقاف! كيف يُبْصَرُ ما تحتَ الأرض، والفَخُّ يُعطى له بمقدار إصبع، من تراب، فلا يُبْصِره، حتى يقع فيه.

ـ ويْحَك يا بْنَ الأزرق! أما علِمت، أنهُ إذا وقع القدر، عَشي البصر.**

*

يا عَمْرو*** إنّك بعت دينك من معاوية، فأعطيت ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره،

---

* سورة المائدة: 95.

** حوار بين نافع بن الأزرق وابن عباس، والبادئ بالكلام ابن الأزرق.

*** خطاب إلى عمرو بن العاص.

فكان الذي أخذ منك، فوق الذي أعطاك،

وكانَ الذي أخذتَ منه، دون الذي أعطيته. وكلٌّ راض بما أخذ وأعطى.

فلما صارت مصرُ في يدك تتبعكَ فيها، بالعَزْل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها، لألقَيْتها إليه.

*

لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، ويد لا تقبضها عن شر.

ووجهان: وجه مؤنس، ووجه مُوْحِش. ولعمري، إن من باعَ دينه بدُنيا غيرِه، لحريّ أن يطول حُزْنُه على ما باع واشترى.

لك بيان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدرٌ وفيك حسد فأصغَرُ عيب فيك، أعظم عيب في غيرك.

*

أما والله، لو بَعثني مكانَه، لاعترضت مدارجَ نفسه* ناقِضاً لما أبْرَم، ومُبْرماً لما نقض. أسِفّ إذا طارَ، وأطيرُ إذا أسفّ.

ولكن مَضى قدَر، وبَقي أسف، ومع اليوم غد.

*

الكوفةُ مَثلها، مَثَلُ اللهاة في البَدن، يأتيها الماء ببرودتهِ وعذوبتهِ والبَصرةُ مثلها، مثل المثانةِ، يأتيها الماءُ بعدَ تغيُّرهِ وفساده.

*

(...) قُلتَ.. إني أفتي الناس بالجهل، وإنما يُفتي بالجهل من لم يعرف من العِلم شيئاً، وقد آتاني اللهُ من العِلم، ما لم يؤتِك. وذكرت أن حِلمَك عَني، واستدامتك فيئي، جرّأني عَليك.

---

* يشير في كلامه إلى عمرو بن العاص.

متى رأيتني لعُرامِك راهباً، وعن حدك ناكِلاً؟

وقلت: لئن لم تكفُفْ، لتجدَنّ جانبي خشِناً. فلا أبقىَ الله عليك إن أبقَيتَ، ولا أرعى عليك إن أرعيْتَ.

فـو اللهِ لا أنتهـي عـن قـولِ الحـق، وصـفةِ أهـلِ العَـدْلِ والفَضْـل، وذمٍّ الأخسَرِين أعمالاً.

*

(...) أتـأمرون* النـاس بـالتقوى، وبكـم ضـل المتّقـون، وتنهـون عـن المعاصي، وبكم ظهر العاصون؟

يـا أبنـاءَ سـلفِ المقـاتِلين، وأعـوانَ الظـالمين، وخُـزان مسـاجدِ الفاسـقين، وعُمّار سلفِ الشياطين،

هل منكم إلا مُفترٍ علـى الله، يُحمِّل أجرامَـهُ عليـه، وينسبُها علانيـةً إليـه؟ وهَل منكم إلا مَن السّيفُ قِلادتُه، والزُّورُ على اللهِ شهادتُه؟

أعلى هذا تواليْتُم، أم عليهِ تماليْتُمْ؟

حظكم منه الأوفر ونصيبكم مِنهُ الأكبر.

عمدتُم إلـى موالاةِ من لم يدَع للهِ مـالاً، إلا أخذه، ولا منـاراً إلا هَدَمـهُ، ولا مـالاً ليتيم إلا سرقَهُ، أو خانَـهُ، فـأوْجَبْتُم لأخبـثِ خلـق الله، أعظـمَ حـق الله. وخذلتُم أهلَ الحق، حتى قلوا وذلوا، وأعنتم أهلَ الباطِل، حتـى عزُّوا وكثروا، فأنيبوا إلى اللهِ، وتوبوا.

*

العاقل الكريم صديق كل أحد إلا من ضرّه، والجاهل اللئيم عدوٌّ كل أحد إلا من نفعه.

*

---

* رسالة إلى مُجبرةِ الشام (الذين يقولون بالجبر).

مع أعرابي

ـ يا بن عم رسول الله أفتني.

ـ فبماذا؟

ـ أتخافُ عليَّ جنُاحاً أن ظلمني رجل فظلمته وشتمني فشتمته وقصّر بي فقصرت به.

ـ العفوُ خير .. ومن انتصرَ فلا جُناح عليه.

ـ يا بن عمِّ رسول الله، أرأيْتَ امرأ أتاني فوعدني، وغرني ومناني، ثم أخلفني واستخفّ بحرمتي، أيسعني أن أهجُوَهُ؟

ـ لا يصلح الهجاء، لأنه لابُد لك بذلك من أن تهجو غيره من عشيرتِه فتظِلم من لم يظلِمك، وتشتُم من لم يشتِمك،

وتبغي على من لا يبغي عليك. والبغي مرتعه وخيم. وفي العفو ما قد علمت من الفضل.

ـ صدقت.*

*

العِلمُ أكثرُ من أن يؤتى على آخرهِ، فخذوا من كلِّ شيء أحسنه.

*

الخط لِسانُ اليد.

*

لا كبيرةَ مع توبةٍ واستغفار، ولا صغيرة مع لجاجةٍ وإصرار.

*

لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرميهُ بطرفي إذا أقبل، وأوسعَ له إذا جلس، وأصغي اليه إذا حدث.

*

---

* المحاور الحطيئة متنكّراً في زيّ أعرابي وكان ابن عباس قد كفّ بَصرُه.

(...) بينما ابن عباس ذات يوم جالس إذ جاءه رجل فقال:

- يا بْن عباس سمعت العجب من كعب الحبْر يذكر في الشمس والقمر، قال: وكان متكئاً فاحتفز ثم قال:

- وما ذاك؟

- زعم أنه يُجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيُقذفان في جهنم.

قال الرجل واسمه (عكرمة) فطارت من ابن عباس شَفَةٌ ووقعت أخرى غضباً. ثم قال: كذبَ كعب. كذب كعب، كذب كعب، ثلاث مرات. بل هذه يهودية يريد إدخالها في الاسلام. الله أجل وأكرم من أن يعذب على طاعته. ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿وسخّر لكم الشَّمسَ والقمر دائبين﴾* إنما يعني دؤوبهما في الطاعة، فكيف يُعذب عبدين يثني عليهما أنهما دائبان في طاعته؟ قاتل الله هذا الحبْر، وقبح حبريته!

ما أجرأهُ على الله وأعظمَ فِرْيتهُ على هذين العبدين المطيعين لله. قال: ثم استرجع مراراً وأخذ عويداً من الأرض، فجعل ينكتهُ في الأرض، فظل كذلك ما شاء الله، ثم إنه رفع رأسه ورَمَى بالعُويد، فقال:

ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله يقول في الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما؟ فقُلنا: بلى رحِمك الله، فقال:

إن رسول الله سُئِل عن ذلك. فقال: إن الله تبارك وتعالى لما أبرم خلقه إحكاماً، فلم يبق من خلقه غير آدم، خلق شمسين من نور عرشه. فأما ما كان في سابق عِلمه أنه يدَعُها شمساً. فإنه خلقها مثل الدُّنيا، ما بين مشارقها ومغاربها. وأما ما كان في سابق علمه أنه يطمسها ويحُوِّلها قمراً، فإنه دون الشمس في العِظم، ولكن إنما يُرى صِغَرهما من شدةِ ارتفاع السماء وبُعدها من الأرض.

* سورة إبراهيم، آية:33.

قال: فلو ترك الله الشمسين كما كان خلقهما في بَدء الأمر، لم يكن يُعرف الليل من النهار ولا النهارُ من الليل. وكان لا يدري الأجيرُ إلى متى يعمل، ومتى يأخذ أجْره. ولا يدري الصائمُ إلى متى يصوم، ولا تدري المرأة كيف تعتد، ولا يدري المسلمون متى وقتُ الحج ولا يَدْري الدُّيَّان متى تحل ديونهم، ولا يدري الناس متى ينصرفون لمعايشتهم، ومتى يسكنون لراحةِ أجسادهم.

وكانَ الربُّ عز وجل أنظرَ لعباده وأرحمَ بهم، فأرسل جبريل عليه السلام فأمرَّ جناحَه على وجه القمر، وهو يومئذ شمس، ثلاث مرات، فطمس عنه الضوء، وبَقي فيه النور، فذلك قوله عز وجل. ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبصرة﴾*. قال: فالسواد الذي ترونه في القمر شبه الخطوط فيه، فهو أثرُ المحوِ. ثم خلق الله للشمس عجلة من ضوء نور العرش، لها ثلاثمائة وستون عُروة ووكل بالشمس وعجَلتِها ثلاثمائة وستين ملكاً من الملائكة، من أهل السماء، قد تعلق كلُّ ملك منهم بعروة من تلك العُرى.

ثم قال: وخلق الله لهما مشارق ومغاربَ في قُطري الأرض وكنَفَيْ السماء، ثمانين ومئة عين في المغرب، طينة سوداء، فذلك قوله عز وجل ﴿وجَدَها تَغربُ في عين حمئة﴾**. إنما يعني حمأة سوداء من طين، ومئة وثمانين عيناً في المشرق، مثل ذلك، طينة سوداء، تفورُ غلياً كغلي القِدر، إذا ما اشتدّ غليها. قال: فكل يوم، وكل ليلة، لها مطلع جديد ومغرب جديد، ما بين أولها مطلِعاً، وآخرها مغرباً، أطوَلُ ما يكون النهار في الصيف ومن آخِرها مطلعاً وأولها مغرباً، أقصر ما يكون النهار في الشتاء، فذلك قوله

* سورة الإسراء، آية:12.

** سورة الكهف، آية: 86

تعالى ﴿ربُّ المشرقين ورَبُّ المغربين﴾*. يعني آخرَها هاهنا، وآخِرُها ثَمَّ. وترك ما بين ذلك من المشارق والمغارب، ثم جمعهما فقال: ﴿برب المشارق والمغارب﴾** فذكر عِدة تلك العيون كلها. قال: وخلق اللهُ بحراً فجرى دون السماء مقدارَ ثلاث فراسخ، وهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله، لا يقطر منه قطرة. والبحارُ كلها ساكنة. وذلك البحرُ جارٍ في سُرعةِ السهم ثم انطلاقُهُ في الهواء مستوياً كأنه حبل ممدود، ما بين المشرق والمغرب، فتجري الشمس والقَمَرُ والخُنَّسُ، في لجة غَمْرِ ذلك البحر، فذلك قوله تعالى ﴿كلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾*** والفلك دوران العجلة في لجة غَمْرِ ذلك البحر. والذي نفس محمد بيده، لو بَدتِ الشمس من ذلك البحر لأحرقت كل شيء في الأرض، حتى الصخور والحجارة، ولو بدا القمر من ذلك لافْتُتِنَ أهلُ الأرض حتى يعبدوه من دون الله، إلا من شاء اللهَ أن يَعصِمَ من أوليائه.****

*

* سورة الرحمن، آية: 17.

** سورة المعارج، آية: 40.

*** سورة الأنبياء، آية: 33.

**** الحديث بين عكرمة وابن عباس.

علي بن عبد اللّٰه بن عبّاس*

مَن لم يجد مسَّ الجهل في عقله، وذلَّ المعصية في قلبه، ولم يَسْتبن موضع الخلّة في لسانه، عند كلال حدّه عن حدّ خصمه،

فليس ممّن ينزع عن ريبة، ولا يكترث لفصلٍ ما بين حجّة وشُبهة.

*

---

* علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (40- 118 هـ)، جدّ الخلفاء العبّاسيين، ومن أعيان التابعين.

الأحنف بن قيس*

ـ بم سُدْتَ قومَك؟

ـ بتركي من أمركَ ما لا يَعنيني،

كما هناكَ مِن أمري ما لا يعنيك.**

*

ـ أيّ المجالس أحبُّ إليك؟***

قال:

ـ ما سافرَ فيه البَصرُ، واتّدَعَ فيه البدَنَ.

*

رأس سياسة الوالي خِصالٌ ثلاث: اللينُ للناس، والاستماع منهم، والنظر في أمورهم. ورأس مروءة الوالي خصالٌ ثلاث: العلم والعلماء ورحمة الضعفاء، والاجتهاد في مصلحة العامة.

*

إن الكرمَ مَنْعُ الحُرَم.

*

---

* من البصرة، كان محكماً في قومِهِ، وذا بلاغةٍ وحكمة. له دور سياسي في العصر الأموي. توفي سنة 69 هـ.

** حوار بين الأحنف ورجل.

*** سؤال وُجِّه للأحنف.

ما أقربَ النقمةَ من أهلِ البَغْيِ.

*

لن يَهلِكَ من قَصَدَ.

*

خيرُ القول، ما صدقَهُ الفِعْلُ.

*

احتملوا لمن أدَلّ عليكم، واقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم.

*

لا تكونَن على الإساءةِ، أقوى مِنك على الإحسان.

*

لا تكونَن خازِناً لغيرك.

*

إعرف الحقَّ لمن عرفه لك، واعلمْ أنَّ قطيعة الجاهِل تَعْدِل صِلةَ العاقِل.

*

أسرعُ الناس إلى الفتنةِ، أقلهم حياءً مِن الفِرار.

*

(...) كن لهم * أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة.
وإن سألوك فأعطِهم، وإن استعتبوك فأعتِبْهُم،
ولا تمنعهم رفِدك فيَملّوا قربَك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك.

*

رُبّ رجلٍ لا تُملّ فوائدهُ وإن غاب.

*

---

* يتحدث عن الأولاد.

سهرتُ ليلة في كلمة أرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي، فما وجدتُها.

*

ليتَ طول حِلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك.

*

لست بحليم ولكن أتحالم.

*

وجدت الحِلمَ أنصَرَ لي من الرّجال.

*

استميلوا النساء بحُسنِ الأخلاق وفُحش النكاح.

*

لا صديق لمَلوُل، ولا وفاءَ لكذوب، ولا راحةَ لحسود ولا مروءة لبخيل، ولا سؤدُدَ لسيء الخلق.

*

ما بعد الصواب إلا الخطأ.

*

كانَتِ المودّةُ قبل اليوم محضاً، فليتها تكونُ اليومَ مذقاً.

*

- بأي شيء سُدت تميماً؟ فواللهِ ما أنتَ بأجودِهم ولا أشجعهم، ولا أجملهم ولا أشرفهم.
- بخلافِ ما أنت فيه.
- وما خِلاف ما أنا فيه؟
- تركي مالا يعنيني من أمور الناس، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.*

*

---

* حوار مع رجل.

مصعب بن الزبير*

إن الحرب صعبة مُرّة، وإن السلم أمْنٌ ومسرة.

وقد زبنتْنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألِفناها،

فنحن بنوها وهي أمنا، فاستقيموا، على سُبل الهدى، ودَعُوا الأهواءَ المُردية ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً.

ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة.

- أيها الأمير، ما أقبحَ أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذهِ الحسنة، ووجهك هذا الذي يُسْتضَاء به، فأتعلق بأطرافك وأقول: أيْ ربّ، سل مُصعباً لماذا قتلني؟

- أطلقوه.

- أيُّها الأمير اجْعل ما وهبْتَ لي من حياتي في خفض عيش.

- أعطوُه مئة ألف درهم.

- أشهدُ الله تعالى أني جَعلت لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفَ درهم.

- ولِمَ؟

- لقوله: إنما مصعب شهاب من الله تجلتْ عن وجههِ الظلماء.

- فيك موضِع للصنيعة. (وأمرهُ بملازمته).**

*

---

* قُتِل مصعب عام (7) هـ، وهو أخو عبد الله بن الزبير.

** بينه وبين رجل حارب مع المختار الثقفي ضد مصعب.

كلامهُ في عمر بن أبي ربيعة

راقَ عمر بن ابي ربيعة الناس، وفاق نظراءه،

وبرَعَهَم بسهولةِ الشعر وشدة الأسر، وحُسْنِ الوصف ودقة المعنى، وصواب المصدر،

والقصد للحاجة، واستنطاقِ الربع، وانطاق القلب وحُسْنِ العزاء، ومخاطبة النساء، وعِفةِ المقال، وقِلةِ الانتقال،

وإثباتِ الحجة وترجيح الشك موضعَ اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونَهجَ العِلل.

وعَطفَ المساءة على العُزّال، وأحسَن التفجُّع، وبخّلَ المغازِل، واختصر الخبر، وصدَق الصفاء.

إن قدَحَ أوْرَى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تشكى أشجى، وأقدم عن خِبرة ولم يعتذر بغرَّة.

وأسَرَ النوم وغمّ الطير، وأغذّ السير. وحيّرَ ماء الشباب، وسهل وقوّل وقاسَ الهوى فأربى، وعَصَى وأخلى، وحالف بسمعِهِ وطرفهِ، وأبرمَ نَعْتَ الرُّسل وحذّر

وأعلن الحبّ وأسرّ وبطن به وأظهر وألحّ.

أسفّ وأنكح النوم وجَنى الحديث. وضربَ ظهرَهُ لبطنه، وأذلَّ صعبهُ، وقنعَ بالرَجاء من الوفاء وأغْلى قاتله واستبكى عاذِلهُ، وكان بعد هذا فصيحاً.

*

عبد الله بن الزبير*

(...) بلغني أنك** تجلس في الطائفِ العَصرين***، فتُفْتِيهم بالجهل تعيبُ أهلَ العَقلِ والعِلم.

وإن حِلمي عليك، واستدامتي فيئكَ جرّآك عليَّ.

وإني أقسم، لئن لم تنتهِ عما بَلغني عنك، لتجدَنَّ جانبي خشِناً ولتجدنِّي إلى ما يردعُك عَني عَجِلاً، فإن أشفَى بك شقاؤك على الرّدى، فلا تَلُمْ إلا نفسك.

*

إنه أتانا خبر من العراق، أحزننا وأفرحنا، وهو قتلُ مصعب، فأما الذي أحزننا من ذلك، فإن لفراق الحميم لوعةً يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي بعد ذلك إلى كريم الصبر وجميل العزاء.

وأما الذي أفرحنا، فإن القتل له شهادة ويجعلُ الله لنا وله في ذلك الخيرة.

أما واللهِ إنا لا نموت حتْفاً كميتة آل أبي العاص، وإنما نموت قعصاً بالرّماح، وقتلاً تحت ظلال السيوف.

ألا وإن الدُّنيا عارية، من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يتبدل،

* تولى الخلافة منشقاً عن بني أمية لفترةٍ من الزمن حتى قُتِل وصُلب في عَهد عبد الملك بن مروان على يَدِ الحجاج، قُتِل عام 73 هـ .

** رسالة الى ابن عباس وقد ردَّ عليها ابن عبّاس في مكانهِ من الكتاب.

*** العصْران: الغداة والعشيّ لأنهما طرفا النهار.

فإن تُقبْل الدُّنيا علي لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تُدبِر لا أبكي عليها بُكاء الحزين المهين.*

*

* الكلام في مقتل مصعب أخيه.

شُرَيح*

إني أصابُ بالمصيبة، فأحْمدُ الله عز وجل أربعَ مرات:

أحمدَهُ إذ لم تكن أعظم مما هي،

وأحمدهُ إذ رزقني الصبر عليها،

وأحمدُهُ إذ وفّقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب،

وأحمدهُ إذ لم يجعلها في ديني.

*

* أبو أميّة، شريح بن الحارث القاضي من أبناء الفرس الذين كانوا في اليمن استقضاه عمر على الكوفة ثم عثمان وأقرّه علي، وكان يقول له: أنت أقضى العرب.

قطري بن الفُجاءة*

كتبت إلي** تذكر أني أعرابيٌّ جلف، أمّيّ، لا أستطعِمُ الكِسْوَةَ، ولَعَمْري يا بن أم الحجاج، إنك لميتٌ في جُبتك، مطلخِم، واهٍ في وثيقتك،
لا تعرف الله ولا تخرج من طريقتك،
يئستَ واستيأسْتَ من رَبك، فالشيطان قرينُك، لا تجاذِبُه وثاقك، ولا تنازِعهُ خِناقك.
فالحمد لله الذي لو شاءَ لأبْرزَ لي صفحتَك، وأوضَح لي طلعتَك.
فوالذي نَفْسُ قطريٍّ بيدهِ، لعَرفْتَ أن مُقَارعَةَ الأبطال ليْسَت كتصوير المقال، مع أني أرجُو أن يدْحَض اللهُ حُجتك، وأن يمنحني مُهجتك.

*

إن جاءكم المهلب، فهو من قد عَرَفْتُموه.
إن أخذتُم بطرف ثوب، أخذ بطرفهِ الآخر،
يمدُّه إذا أرسلتموُه، ويرسلهُ إذا مدَدْتموه،
لا يَبْدؤكم، إلا أن تبدؤوه. إلا أن يرى فُرصَةً فينتهزَها.
فهو الليْث المُبِر والثعلب الروّاغ والبلاء المقيم.

*

* من زعماء الخوارج. كانت له حروب وخطوب مع المهلب بن أبي صُفرة. قتله سَودة بن أبجر الدّرامي. كانَ خطيباً بليغاً وشاعِراً مجيداً. مات بطبرستان سنة 79 هـ.

** رسالة إلى الحجاج.

(...) فإني أحذّركم* الدُّنيا فإنها حلوة خضرة، حُفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحُلِّيت بالآمال، وتزينتْ بالغرور.

لا تدوم حبرتها ولا تُؤمنُ فجعتُها. غرّارة ضرّارة، خوّانة غدارة، وحائلة زائلة، ونافعة بائدة.

أكالة غوّالة، بذالة نقّالة، لا تعدو إذا هي تناهَت الى أمنية أهل الرّغبة فيها والرّضا عنها.

(...) مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يَلْقَ من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها ظهراً، ولم تطله غيثة رخاء، إلّا أهطلت عليه مُزْنةَ بلاء. وحريٌّ إذ أصبحتْ له منتصرة، أن تُمسي له خاذلةً متنكرة.

وإن أتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نِعماً أرهقَتْهُ من نوائبها نقماً. ولم يُمس منها امرؤ في جناح آمن، إلا أصبحَ منها على قوادم خوف.

غرورٌ ما فيها، فانٍ ما عليها.

من أقلّ منها استكثر مما يؤمّنه، ومن استكثر منها استكثرَ مما يوبقهُ، ويُطيل حُزنَه ويُبكي عينيه.

كم واثق بها قد فجعَتهُ، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي احتيال فيها قد خدعتهُ.

وكم من ذي أبّهة فيها قد صيّرته حقيراً وكم من ذي نخوةٍ قد رَدّتهُ ذليلاً، وكم من ذي تاجٍ قد كبّتهُ لليدين وللفم. سلطانُها دُول وعيشها رنَق وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام وقطافها سَلع. حيّها بِغَرض موت، وصحيحها بغرض سَقَم، ومنيعُها بغَرَض اهتضام.

---

* يخطب على منبر الأزارقة من الخوارج وهم أتباع نافع بن الأزرق.

مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجائعها محروب.

ألستُم في مساكن من كانوا أطولَ منكم أعماراً، وأوضحَ آثاراً، وأعدَّ عديداً، وأكثفَ جنودَاً وأعندَ عنوداً؟

تعبّدوا للدُّنيا أيّ تعبّد وآثروها أي إيثار وظعنوا منها بالكره والصَّغار،

فهل بلغكم أن الدُّنيا سمحَتْ لهم نفساً بفدية، أو أغنَت عنهم في ما أهلكتهم بخطب،

بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتْهم بالمصائب،

وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها، وأخلد إليها حينَ ظعنواعنها لفراق الأبد، إلى آخرِ المُسند.

هل زوّدتهم إلا الشقاء وأحلّتهم إلا الضنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة أو أعقَبتهم إلا الندامة؟

أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إليها تطمئنون؟

حُمِلوا إلى قبورهم، فلا يُدعون رُكباناً، وأنزلوا فلا يُدعون ضيفاناً، وجُعِل لهم من الضرع أجنان، ومن التراب أكفان.

فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً،

إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن أقحطوا لم يقنطوا.

(...) جمعٌ وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد،

متناؤون لايزورون ولا يُزارون،

حلماء قد ذهبَتْ أضغانهم، وجُهلاءُ قد ماتت أحقادُهم.

لا يُخْشى فجعُهم، ولا يُرجى دفعهم. استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسّعةِ ضيقاً، وبالأهل غُرْبة، وبالنور ظلمة.

*

شيخ من الكوفة*

أملقتُ، وبلغت بي الحال أن نقضْتُ منزلي. فلما اشتد عليّ الأمر، وتجرّد عيالي من الكسوة، جاءتني الخادمةُ، فقالت:

ما لنا دقيق، ولا معنا ثمنه، فما نعمل؟ فقلت: أسرجي حماري، وقد كانَ بقيَ لي حمار.

فقالت: ما أكل شعيراً؟ منذ ثلاث، فكيف تركبه؟

فقلت: أسرجيه على كل حال. فأسرجته، فركبته، أدبُّ عليه، هارباً مما أنا فيه، حتى انتهيتُ إلى البصرة. فلما شارفتُها إذا أنا بموكبٍ مُقبل. فلما انتهوا إليّ، دخلت في جملتهم، فرجعتِ الخيلُ تريد البصرة، فسِرْتُ معهم حتى دخلتها. وانتهى صاحب الموكب إلى منزله، فنزلَ ونزل الناس معه، ونزلتُ معهم. دخلنا، فإذا الدّهليزُ مفروش والناس جلوس، مع الرّجل، فدعا بغداء، فجاؤوا بأحسنِ غداء، فتغدَّيْتُ مع الناس ثم وضّأنا، ودعا بالغالية، فغلفْنَا بها.

ثم قال: يا غِلمان هاتوا سفطاً. فجاؤوا بسفط أبيض مشدود، فَفَتحه فإذا فيه أكياس، في كل كيس ألف درهم فبدأ يُعطي من على يمينه، فأمَرَّها عليهم. ثم انتهى إليَّ وأعطاني كيساً، ثم ثنى وأعطاني آخر، ثم ثلّث وأعطاني آخر، وأخذتِ الجماعة.

---

* شيخ من الكوفة يروي حكايته مع عبيد الله بن أبي بكرة واسمه حاتم، بصري، تابعي، جواد توفي سنة 79 هـ. وَليَ إمارة سجستان ثم ولي قضاء البصرة.

وبَقيَ في السفط كيس واحد، فأخذهُ بيده وقال: هاكَ يا هذا الذي لا أعرفه. فأخذتُ أربعة أكياس وخرجتُ، فقُلت لإنسانٍ: من هذا؟ قال: عُبَيْدُ الله بن أبي بكرة.

*

غيلان بن مسلم الدمشقي*

أبْصَرْت يا عُمر** وما كِدْتَ، ونظرْتَ ما كدْتَ.

اعلم يا عُمر أنك أدْركتَ مِن الإسلام خلقاً بالياً، ورسماً عافِياً، فيا ميتُ بين الأموات!

لا ترى أثراً فِتَتَّبِعُ، ولا تَسمْعُ صوتاً فتنتفع،

طُفِئ أمر السُّنة وظهرت البدعة،

أخيف العالم فلا يتكلم، وَلا يُعطى الجاهِلُ فيُسأل، وربما نجتِ الأمةُ بالإمام،

ورُبما هلكت بالإمام، فانظر أيُّ الإماميْن أنت،

فالله تعالى يقول: ﴿وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا﴾*** فهذا إمام هُدى ومن اتبعَه شريكان وأما الآخر، فقال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار ويومَ القيامةِ لا يُنْصَرون﴾****.

ولن نجدَ داعياً يقول: تعالوا إلى النار، إذا لا يتَبعُه أحد، ولكن الدُّعاة إلى النار، هم الدُّعاةُ إلى معاصي الله.

فهل وجَدْتَ يا عُمر حكيماً يعيبُ ما يَصْنَع، أو يصنع ما يعيب أو يُعذِّب على ما قضى، أو يقضي ما يُعذِّبُ عليه؟

---

* قيل: كان مَوْلى لعثمان بن عَفان. قتله هشام بن عبد الملك سنة 80 هـ.

** الرسالة موجهة إلى عمر بن عبد العزيز وفيها ما يدل على مذهبه في حرية الإرادة.

*** سورة الأنبياء، آية: 73.

**** سورة القصص، آية: 41.

أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضلّ عنه؟
أم هل وجدت رحيماً يُكلِّف العباد فوق الطاقة، أو يعذّبهم على الطاعة؟
أم هل وَجَدتَ عَدْلاً يحْمِلُ الناس على الظلم والتظالم؟
وهَل وجَدْتَ صادِقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم؟
كفي ببيانِ هذا بَياناً، والعَمى عَنْه عَمى.

*

يزعُم هؤلاء أنهم لا يسقوننا حتى نشربَ من الزقوم. ولعَمري لئن كانوا صدَقوا، فإنّ الذي نحن فيه يسير في جنب ما نصيرُ إليه بعد ساعةٍ، من عذاب الله.

ولئن كانوا كذبُوا، فإنَ الذي نحن فيه يسير، في جنب ما نصير إليه بعد ساعةٍ، من رَوْح الله. فاصبِر يا صالح.

*

قاتلهم الله! كم من حق قد أماتوه، وكم من باطلٍ قد أحيوه، وكم من ذليلٍ في دين الله أعزّوه، وكم من عزيز في دين الله أذلّوه.*

*

* قال هذا الكلام بعد أن قُتل زميله صالح وصلى عليه. نقل الناس كلامَه إلى هشام بن عبد الملك فأرسل إليه من قطع لِسانه قبل موتِه.

المهلب بن أبي صُفرة*

إن لم آت الموت مسترسلاً، أتاني مستعجلاً.

*

صاحب الحرب إذا نام، نام قلبه.

*

اتقوا زلّة اللسان، فإن الرجل تزلّ رجله فينتعش، ويزّل لسانه فيهلك. وعليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة.

*

القتال إذا وقع، وقع القضاء، وبطل الخيار.

*

ذكرتَ** أني أُجِمُّ القوم، ولابدَّ من راحةٍ يستريحُ فيها الغالب ويحتالُ فيها المغلوب. وذكرْتَ أن في ذلك الجمام، ما يُنسي القَتْلىَ وتبرأ منه الجراح، وهيهاتَ أن يُنسى ما بيننا وبينهم. تأبى ذلك قَتْلىَ لم تُجَن وقروح لم تتعرَّف. نحن والقوم على حالةٍ وهم يرقبون منا حالات.

إن طَمعُوا حاربوا، وإن وَلوا وقفُوا، وإن يئسوا انصرفُوا.

وعلينا أن نقاتِلهم إذا قاتلوا، ونتحرز إذا وقفُوا، ونطلبُ إذا هربُوا،

فإن تركتني والرأيَ، كانَ القَرْن مقصوماً، والدّاء بإذنِ اللهِ محسوماً،

---

* قائد مشهور من قُواد الدولة الأموية، عُرِف واشتُهر بحربهِ الخوارج. توفي سنة 83 هـ.

** من رسالة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي.

وإن أعجلتني، لم أطِعك ولم أعص، وجَعلتُ وجهي إلى بابك.

*

عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

*

العيشُ كله في الجليس الممتِع.

*

العجبُ أن يكون الرأي لمن يملكهُ دوُنَ من يُبصره.

*

عبد الملك بن مروان*

ـ اطلبوا معيشة لا يقدر سلطان جائرٌ على غصبها.

ـ ما هي؟

ـ الأدب.**

*

ـ بلغني أنك شربت الطلاء؟

ـ أي، والله، والدماء! عجباً للسلطان كيف يحسن، وإذا أساء وجد من يزكيه ويمدحه!***

*

قال عبد الملك بن مروان لرجلٍ:

ـ إيّاكَ أن تمدَحني، فإني أعْرَفُ بنفسي منك،

أو تكذبَني، فإنّه لا رأيَ لكذوب،

أو تَسعى بأحدٍ إليّ.

وإن شئتَ أن أقيلكَ، أقلتُك.

ـ أقِلني.

*

---

* توفي سنة 86 هـ.

** حوار بين عبد الملك ورجل.

*** حوار بين الزهري وعبد الملك بن مروان.

(...) إنك عبد طمت بك الأمورُ فطغيت[*]، وعَلوْتَ فيها حتى جُزتَ قدْرك، وعدوْتَ طوْرك.

وأيمُ اللهِ، يا بن المستفرمة بعَجم زبيب الطائف، لأغمِزَنك كبعض غمزات الليوثِ الثعالب ولأركُضَنّك ركضةً، تدخلُ منها في وِجارك.

أُذكر مكاسِبَ آبائك بالطائف، إذ كانوا ينقلون الحجارةَ على أكتافِهم، ويحفرون الآبار والمناهِر بأيديهم،

فقد كنت نسيتَ ما كنت عليه أنت وآباؤك، من الدّناءةِ واللؤم والضراعة.

وقد بلغَ أميرَ المؤمنين استطالة مِنك على أنَسِ بن مَالك، خادم رسول الله، جُرْأةً منك على أمير المؤمنين، وغِرّةً بمعرفةِ غيرَهِ ونقَماتهِ وسطواتهِ على من خالفَ سبيله، وعَمَد إلى غَير محجتهِ، ونزلَ عند سخطتهِ.

وأظنك أردت أن تروزهُ بها، لتعلم ما عِنْدهُ من التغيير والنّكير فيها. فإن سُوِّغتها مضيْتَ قُدماً، وإن غصِصْتَ بها وليْتَ دُبُراً. فعليك اللعنة من عَبْدٍ أخفشِ العينين، أصك الرِّجلين ممسوخِ الجاعِرَتين.

وأيمُ الله لو أن أميرَ المؤمنين، علم أنك أجرمْتَ مِنهُ جُرْماً، وانتهكتَ له عرضاً، لبعَثَ إليك من يسحبك ظهراً لبطن، ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك.

*

الهديةُ، السِّحرُ الظاهر.

*

اللحنُ في المنطق أقبحُ من آثار الجدري في الوجه.

*

---

[*] رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج وكان قد آذى أنس بن مالك.

من صغّر مقتولاً فقد أزرى بقاتِلِهِ.

*

(...) لك عهدُ الله وميثاقه، أن لا تُهاجَ في سلطاننا، غائباً ولا شاهِداً، ولا أحد من أصحابك ما وفُوا ببيعتهم،
فإن أحبَبْت المقام بالحجاز فأقم، فلن ندَع صِلتك وبرك،
وإن أحبَبْت المقام عندنا فاشخص إلينا، فلن ندع مواساتك. ولَعَمْري لئن ألجأناك الى الذهاب في الأرض خائفاً، لقد ظلمناك وقطعنا رحمك. فاخرُج إلى الحجاج فبايع،
فإنك أنت المحمودُ عندنا دينا ورأياً، وخير من ابن الزبير وأرضى وأتقى.*

*

إن الله حدَّ حدوداً، وفرض فروضاً، فما زلتُم تزدادون في الذنب ونزدادُ في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السّيف.

*

لا تُوَلِّينَّ الأحكام بين الناس جاهِلاً بالأحكام، ولا حديداً طائشاً عند الخصام، ولا طمِعاً هَلعاً، يُقرِّبُ أهلَ الغِنى، ويَبَشُّ بأهل السعة.
يكسرُ بذلك أفئدةَ ذوي الحاجة ويقطع ألسنتَهُم عن الإفلاحِ بالحجة، والإبلاغ في الصفة.
واعلم أن الجِاهل لا يعلم والحديد لا يفهم، والطائِشَ لا يعقل، والطَّمِعَ الشَّرِهَ لا تنفع عنده الحجة ولا تغني فيه البيّنة.**

*

---

* من رسالة إلى محمد بن الحنفية.

** من كتاب إلى الحجاج.

(...) يا شَعْبيُّ لا تُسَاعِدني على ما قبُح، ولا تردّ عليَّ الخطأ في مجلسي. ولا تكلّفني جوابَ التشميْت والتهنئة، ولا جوابَ السؤال والتعزية. ودَع عنك كيف أصبحَ الأميرُ وكيف أمسى.

وكلمني بقدر ما أستطمعك، واجعل بدل المدح لي، صوابَ الاستماع مِني.

واعلم أن صوابَ الاستماع أكثر من صواب القول.

وإذا سمعتني أتحدثُ فلا يَفوتَنّكَ منه شيء. وأرني فهمك في طرفِك وسَمْعك. ولا تجهَد نفسك في تطرية جوابي ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي.

فإن أسوأ الناس حالاً من استكدَّ الملوك بالباطل. وإن أسوأ حالاً منهم من استخفَّ بحقهم.

واعلم يا شعبي أن أقلَّ من هذا يذهب بسالفِ الإحسان، ويُسقِط حق الحُرمة،

فإن الصّمْتَ في موضعه، رُبما كان أبلغَ من المنطق في موضعه.*

*

التعلّم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤةُ الحكمة.

*

مهلاً مهلاً**، إنكم تأمرون، ولا تأتمرون،

وتنهون ولا تنتهون، وتعظون، ولا تتعظون. أفنقتدي بسيرتكم في أنفُسِكم أم نطيع أمركم بألسنتكم؟

---

* الشعبي فقيه ومحدث.

** كان عبد الملك يخطب فلما وَصَل إلى موضع العظة من خطبته، قام إليه رجلٌ من آلِ صَوْحان من الكوفة واعترضه بهذا الكلام.

فإن قُلتم: اقتدوا بسيرتنا فأنى وكيف؟ وأين المفرّ من الله عز وجل، في الاقتداء بسيرةِ الظلمةِ، الخونَة، الذين اتخذوا، مال اللهِ دُولاً، وعبادَه خولاً؟

وإن قُلتم: أطيعوا أمْرنا، واقبلوا نصيحتنا، فكيف ينصَح غيرَهُ من يغشُّ نفسه؟ وكيف تجب الطاعَةُ لمن لم تثبُت عدالتُهُ؟

وإن قلتم: خُذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة مِمن سمعتموها. فعلامَ قلدناكُم أزِمّةَ أمورنا، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا، وأدياننا؟

وتعلمون أن فينا من هُو أفصَحُ بفنونِ اللغاتِ، وأعرَفُ بوجوهِ الكلام منكم. فتحلحلوا لهم عَنْها، وإلا فأطلقوا عِقالها، وخلّوا سبيلها* ليبتدرَ إليها من شردتموه في البلاد، وقتلتموهُ في كل واد.

*

- ليس من أحدٍ إلا وهو يعرف عيبَ نفسه، فَعِبْ نفسك.
- أعْفِني يا أمير المؤمنين.
- لتَفعلنّ!
- أنا لجوجٌ، حقودٌ، حسود.
- ما في الشيطان شرٌّ من ذلك.**

*

---

* الضمير في «خلّوا سبيلها» يعود إلى الخلافة.

** حوار بين الحجّاج وعبد الملك بن مروان.

الحجاج بن يوسف الثقفي*

(...) إني لأحْتمِل الشرَّ بحِمْلهِ، وأحذوهُ بنَعلهِ، وأجزيهِ بمثلهِ. وإني لأرى رؤوساً قد أيْنعَتْ وحَانَ قِطافها، وإني لصاحبُها. وإني لأنظر الى الدِّماءِ تَرْقَرقُ بين العمائم واللحى.

يا أهلَ العِراق (...)

إن أمير المؤمنين نثر كنانته، بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أصلبها عُوداً وأمرَّها مَكسِراً، فرماكم بي.

فإنكم طالما أوضعتُم في الفِتن، واضطجعتُم في مَراقدِ الضلال، وسننتُم سُنَنَ الغيّ.

أما والله، لألحوُنَّكم لحو العَصا، ولأعصبنَّكم عَصْبَ السلمة، ولأضربنَّكم ضرْبَ غرائب الإبل.

*

- لو كان رجل من ذهب لكنْتُهُ**.
- كيف ذلك؟
- لم تِلدني أمَة، بيني وبينَ آدم، ما خَلاَ، هَاجر.
- لولا هاجر لكنْتَ كلباً من الكلاب.

*

---

* يَدُ عبد الملك بن مروان، ومعينهُ الأكبر، ولاّهُ العِراق. تُوفي سنة 95 هـ.

** حوار بينه وبين عبد الملك.

ـ أما والله* لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لِنَسبك، ولا لبلدك، ولا لِذاتِ نَفسك، فدَعْ ما يُبعدهم عَنك إلى ما يُقرِّبُهم إليك، والتمِس العَافيةَ ممن دونك، تُعْطها مِن فوقِك، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وَعدك.

ـ إني والله، ما أرى أنْ أرُدّ بني اللكيعة إلى طاعَتي، إلا بالسيّف.

ـ إن السيف، إذا لاقَى السيْف، ذهَب الخِيَار.

ـ الخيارُ يومئذٍ لله.

ـ أجل، ولكن لا تدري، لمِنْ يجعلهُ الله.

ـ والله لهَمَمْت أن أخلع لسانَك فأضِرب به وجهك.

ـ إن صدقناك أغضبناك، وإن غشَشْناك أغضبنا الله.

ـ أجل.

*

ـ يا شقيُّ بنَ كَسِيْر**، أما قدِمْتَ الكوفَة، وليْسَ يؤمُّ بها إلا عربيٌّ، فجعلتُك إماماً؟

ـ بلى.

ـ أفما، وليَتك القضاء، فضج أهلُ الكوفة، وقالوا: لا يصلح القضاء، إلّا لعربيّ، فاستقضيْتُ أبا بُردة بن أبي موسى الأشعري وأمرتُه ألا يقطع أمراً دونك؟

---

* حوار الحجاج مع جامع المحاربي، شيخ صالح خطيب لسن عاش زمنَ الحجاج وله معه حكايات.

** حوار بين الحجاج وسعيد بن جُبيْر المعروف بورعه وزُهده. ندم الحجاج على قتله كثيراً حيث وقع به داء شديد إثرَ قتله.

- بلى.

- أو ما جَعلتُك في سُمّارِي وكلهم من رؤوسِ العرب؟

- بلى.

- أو ما أعطيتُك مائة ألفِ درهم، لتفرقها في أهلِ الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها؟

- بلى.

- فما أخرجَك علي؟

- بيْعة كانت لابن الأشعث في عُنقي.

- أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنُقك قبل؟ يا حرسي اضِربْ عُنقَه.

*

يا أهل مكة، بلغني إكباركم واستفظاعكم قتلَ ابن الزُّبير.

(...) كانَ من أخيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازعَ فيها أهلها، فخلع طاعة الله واستكنَّ بحرَم الله.

ولو كان شيء مانِع للعُصاة لمنعَتْ آدَمَ حُرمةُ الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحهِ، وأسْجدَ له ملائكتهُ، وأباحَه جَنته فلما أخطأ أخرجَهُ من الجنةِ بخطيئتهِ. وآدَم على الله تعالى أكرم من ابن الزبير، والجنةُ أعظمُ حرمةً من الكعبة، فاذكروا الله يذكركم.*

*

علِّمْ وَلَدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون من يكتُب عنهم، ولا يجدون من يَسبَح عنهم.**

*

* كلام قاله الحجّاج في مقتل عبد الله بن الزّبير.

** كلام قاله لمعلم أولاده.

البُخْلُ على الطعام أقبَحُ من البَرص على الجسد.

*

(...) إنّ نيرانَ العراق قد علا لهبُها، وكثُر حطبها، فجمرها ذاكٍ وشهابُها وارٍ. فهل من رُجلٍ ذي سلاح عنيد وقلبٍ شديد، يُندب لها؟

ـ أنا يا أميرَ المؤمنين.

ـ ومن أنت؟

ـ الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عامِر.*

ـ اجلسْ، وكيف تصنع إن ولّيْتك؟

ـ أخوض الغمرات، وأقتحمُ الهلكات. فمن نازعني حاربته، ومن هربَ طلبتُه، ومن لحقتُه قتلته. أخِلطُ عجلة بتأنٍ، وصفواً بكدر، وشدة بلين، وتتبيهاً بازدراء، وعطاءً بحرمان وما على أمير المؤمنين إلا أن يجرّبني.

ـ من تأدب وجد بغيته. اكتبوا كتابه.

*

والله لطاعتي أوجَبُ عليكم من طاعة الله تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فجعَلَ فيها مثنوية، وقال: ﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ فلم يجعل فيها مثنويّة ولو قلت لرجُلٍ منكم: ادْخُل من هذا الباب فلم يدخُل لحُل لي دمه وقتله.**

*

إني أيْقظتُ رأيي، وأنَمْتُ هوايَ، وأدْنَيْتُ السيد المطاع في قومه ووَلّيْتُ الجلدَ الحازمَ في أمره.

---

* عندما اشتدت شوكة أهل العراق على عبد الملك بن مروان خطب الناس.. وكان الحجاج صاحب الردّ خلال الخطبة.

** مثنوية: استثناء، والآية الأولى: سورة التغابُن: 16 والثانية: سورة النساء: 59. الحجاج يخاطبُ قوماً.

وقلدْتُ الخراج المؤْثِرَ لأمانته، وجَعَلتُ لكلّ خَصْم من نفسي خصماً يُعطيه حظاً من نظري، ولطفِ عنايتي،
وصَرفتُ السيف إلى المسيء، فخاف المريبُ صولة العِقاب، وتمسّك المُحسنُ بحظّهِ من الثواب.

*

يا أهلَ العراق، ويا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق، وعبيدَ العصا، وأولادَ الإماء،

إني لأسمعُ تكبيراً، ما يُرادُ الله به، إنما يُرادُ به الشيطان.

... فإن النفاق قد فرّخ بيضهُ في العراق، وشبّ فيها وأشْيَبَ، وَكرَّ فيها وفرّ، وأوطن عِقرَ دارها، ونَفَثَ حُمّتَهُ على أهلها. فلكلّ ناعقٍ مجيب، ولكل داعٍ مُلبٍّ. فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لي في اجتثاث هذه العروق الناجمة، واستئصال هذه المقادح الناشبة فَعَلَ، فإن في ذلك صلاحَ جُندهِ ودهمائه.

*

يُدعى: حيَّ على الصلاة فلا تجيبون،
أما والله لو دُعيَ: حيَّ على أربعة دراهم، لغصّ المسجدُ بأهلهِ.

*

- ما النعمة؟*
- الأمن، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش.
- زدني.
- الصّحة، فإني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش.
- زدني.
- الشباب، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش.

---

* الحجّاج يسأل رجلاً اسمه الجوهريّ.

- زدني.

- الغِنى فإنِّي رأيت الفقيرَ لا ينتفع بعيش.

- زدني.

- لا أجدُ مزيداً.

*

إن أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا: مات الحجاج. فمَهْ؟ واللهِ ما أرجو الخيرة، إلا بَعْد الموت، وما رضيَ الله الخلود لأحدٍ من خلقهِ في الدُّنيا إلا لأهونهم عليه وهو إبليس. يا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني بكل حي ميْتاً، وبكل رطب يابساً، وقد نُقِل كل امرئ إلى حفرته فأكلت الأرض لحمه ومصّت من صديده ودمه،

وانقلب الحبيبان يقتسِمُ أحدهما صاحبه: حبيبهُ من ولدهِ يقتِسم حبيبه من ماله. أما الذين يعلمون فسيعلمون.

*

أما والله لو أمرتُ الناس أن يدخلوا في هذا الشعب فدخلوا في غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً،

عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب.

أما واللهِ لو أدركته لضربت عنقه، عذيري من سليمان بن داوود يقول لربه: ﴿ربِّ اغفرْ لي وهبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾* كان واللهِ في ما علمت عبداً حسوداً بخيلاً.

*

- أراك يا غضبان سميناً.

- أيها الأمير، القيد والرتعة ومن يكن ضيف أمير المؤمنين يَسْمن.

- فكيف ترى قبّتي هذه؟

---

* سورة ص، آية: 35.

ـ أرى قبة ما بُني لأحدٍ مثلها، إلا أن بها عيباً فإن أَمَّنني الأمير أخبرته.

ـ قل آمِناً.

ـ بنِيَتْ في غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم، فما لما لا يتمتع فيه من طيبٍ ولذة.

ـ ردُّوه (إلى سجنه).

ـ أصلح الله الأمير، إن الحديد قد أكل لحمي وبرى عظمي.

ـ احملوه، فلما استقل به الرجال قال: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين﴾*. فقال: أنزلوه، فلما استوى على الأرض، قال: ﴿ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خيرُ المنزلين﴾**. قال جرّوه فلمّا جرّوه: ﴿بسم الله مُجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾*** قال: أطلقوا عنه.

*

كُتب على الدُّنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء. فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغرنكم شاهدُ الدنيا من غائب الآخرة، فطول الأمل يُقصّر الأجل.

*

أيها الناس،

من أعيا داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال ماضي عُمره قصَّرت عليه باقيه. إن للشيطان طيْفاً، وللسلطان سيفاً، فمن سقمت سريرته صحت عقوبتُه، ومن وضَعهُ ذنبهُ رفعه صَلبُهُ، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عليه الهلكة.

---

* سورة الزخرف، آية: 13.

** سورة المؤمنون، آية: 29.

*** سورة هود، آية:41.

ومن سبقت بادرته، فقد سبق بدنَهُ سفكُ دمه. وإني أنذركم ثم لا أُنظركم،
وأحذركم ثم لا أعذركم، وأتوعدكم ثم لا أغفر،
إنما أفسدَكم وهْن ولائكم، ومن استرخَى لَبَبُهُ ساء أدبه.
إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني سيفي.
فقائمه بيدي، ونجادُه في عُنقي، وذُبابه قلادة من عصاني.
والله لا آمر أحدكم أن يَدْخَل من أحد أبواب المسجد فيدخل من الباب الآخر إلا ضربْتُ عنقه.

*

يا أهل العراق*، إن الشيطان استبطنكم فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء،
وجرى منكم مجرى الدم، وأفضى إلى الأضلاع والأمخاخ،
فحَشا ما هنالك شِقاقاً ونفاقاً،
ثمُّ أربَعَ فيه فَعَشَّشَ وباضَ فيه ففرخ، واتخذتموه دليلاً تتابعونه، وقائداً تطاوعونه، ومؤمَّراً تستأمرونه.

فما الذي أرجوهُ منكم يا أهل العراق؟ وما الذي أراقبُ بكم؟ وما الذي أنتظر فيكم؟

إن بُعثتُم إلى ثغوركم جبنتم، وإن آمنتُم أو خِفتم نافقتم.

لا تجْزون بحسنة، ولا تشكرون نعمة.

يا أهل العراق! هل استنبحكم نابح، أو استخفكم ناكث، أو استنفركم عاص، إلا تابعتموه أو بايعتموه وآويتموه وكفيتموه؟

يا أهل العراق! هل شغب شاغِب، أو نعبَ ناعب، أو دبَى كاذب، إلا كنتم أنصارَهُ وأشياعه؟

---

* من خطبة للحجّاج في أهل العراق.

وأنتم يا أهل الشام: إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها القذَر، ويباعِدُ عنها الحَجر، ويُكنُّها من المطر، ويحميها من الضِّباب ويحرسها من الذئاب.

*

أبو المنذر يَعلى بن مخلّد*

يا حجاج**، إنما يرحمُ الله من عبادهِ الرُّحماء.

أشهَدُ أنك قرين فرعون وهامان، لسوء سيرتك، وتركِ مِلتك، وتنكبِكَ عن قَصْد الحق وسنَن المحجّة.

قتلت صالحيْ الناس فأفنيتَهم، وأبَرْتَ عِترةَ التابعين فتبرَتَهُم، وأطعْتَ المخلوق في معصية الخالق. هرقت الدماء. وضربْتَ الأبشار، وسُسْتَ سياسةَ متكبّرٍ جبّار، لا الدّين أبقيْتَ ولا الدُّنيا أدركت.

أعزَزْتَ بني مروان وأذللت نفسك، وعَمْرتَ دورهم وأخربْتَ دارك، فاليومَ لا يُنْجونك ولا يُغيثونك.

لقد كنت لهذه الأمةِ اهتماماً واغتماماً، وعناءً وبلاءً، فالحمدُ لله الذي أراحَها بموتك، وأعطاها مناها بخزيك.

*

---

* من العلماء المعاصرين للحجّاج.

** يخاطب الحجاج في مرضه.

نافع بن الأزرق*

(...) أما بعد، فقد أتاني كتابك، تعظني فيه وتذكرني، وتنصَحُ لي وتزجرني،
وتصِف ما كنتَ عليه من الحق، وما كنت أوثرهُ من الصواب. وأنا أسأل الله جل وعز، أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتّبِعُون أحسنه،
وعبْتَ عليَّ ما دِنْت به من إكفار القَعد، وقتل الأطفال واستحلال الأمانة، فسأفسِّرُ لك ذلك.
أما هؤلاء القَعد فليس كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين، لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً.
وهؤلاء قد فقُهوا في الدين، وقرؤوا القرآن، والطريقُ لهم نهجٌ واضح. وقد عَرفْتَ ما قال الله عزَّ وجل في من كان مْثِلهم، إذ قالوا: ﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾** فقيل لهم: ﴿ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها﴾*** وقال: ﴿فرحَ المخلفون بمقعدهم خِلاف رسول الله﴾****. وقال: ﴿وجاءَ

---

* له نسبت الأزارقة: فرقة من الخوارج. وهو هنا يرد على رسالة نجدة بن عامر الذي خرج عليه مخالفاً له في الرأي.

** سورة النساء، آية: 97.

*** سورة النساء، آية: 97.

**** سورة التوبة: 81

المعـذِّرون مـن الأعـراب لِيُـؤذَن لهـم﴾* فخبّـر بتعـذيرهم وأنهـم كـذبُوا الله ورسـوله، وقـال ﴿وسيُصـيب الـذين كفـروا مـنهم عـذاب ألـيم﴾** فـانظر إلـى أسمائهم وسماتهم.

وأما أمـر الأطفال فـإن نبـي الله نُوحـاً عليـه السـلام، كـان أعلـمَ بـالله، يـا نجدة، مني ومنك، فقال: ﴿رَبِّ لا تذَر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يُضلوا عبادكَ ولا يَلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾*** فسماهم بالكفر، وهم أطفال، وقبل أن يُولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا نكون نقولـه فـي قومنا، والله يقول: ﴿أكفّاركم خير من أولئك أم لكم براءة فـي الزُّبر﴾****. وهؤلاء كمشركي العرب لا نقبلُ منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا، فإن الله عز وجل أحلّ لنا أموالهم، كما أحلّ لنا دماءهم،

فدماؤهم حلال طلق، وأموالهم فيئٌ للمسلمين.

فاتقِ الله وراجع نفسك، فإنه لا عُذرَ لك الا بالتَوبة. ولن يسعك خذلاننا، والقعود عنا، وتَرْك ما نهجناه لك عن طريقتنا ومقالتنا.

والسلام على من أقرّ بالحق وعَمِل به.

*

---

* سورة التوبة، آية: 90.

** سورة التوبة، آية: 90.

*** سورة نوح، آية: 26 وآية 27.

**** سورة القمر، آية 43.

خالد بن عبد الله القسري*

إلى كم يغلب باطلنا حقكم، أما آن لربكم أن يغضبَ لكم؟

*

إيه يا فرزدق، كأنيٍّ بك قد قلت: آتي الحائك ابن الحائك، فأخدعَه عن مَالِه إن أعطاني أو أذمّهُ إن منعني.
فأنا حائك ابن حائك، ولست أعطيك شيئاً، فاذمُمني كيف شئت.**

*

بلغني ما أنكرتُم من أخذي عدوَّ أمير المؤمنين ومَنْ حاربه.
واللهِ لو أمرني أميرُ المؤمنين أن أنقُضَ هذه الكعبة حجراً حجراً لنقضتها.
والله لأميرُ المؤمنين أكرمُ على الله من أنبيائه.***

*

لو رأيتم المعروف رجُلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرُّ الناظرين ويفوقُ العالمين، ولو رأيتمُ البخل رجلاً رأيتموهُ مُشوَّهاً قبيحاً تنفُر منه القلوب وتغضي عنه الأبصار.

*

يُحمد الجود ما لم يَسْبقه مسألة وما لم يتبعْهُ منٌّ، ولم يُرد به قصور، ووافق موضع الحاجة.

*

---

* كان والياً لهشام بن عبد الملك وأخيه الوليد.

** خاطب به الفرزدق الشاعر المشهور.

*** أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك والكلام موجه لأهل مكة.

سليمان بن عبد الملك*

أكلنا الطيّبَ، ولبسنا الليّن، وركبنا الفَارِهَ، وامتطيْنا العذراء، فلم يَبْقَ من لذّتي إلا صديقٌ أطرح بيني وبينه مَئُونَةَ التحفّظ.

*

- قبّح اللهُ رجُلاً أجرّك رسنَه**، وأشركك في أمانتهِ.

- رأيتني، والأمر لك، وَهوَ عني مُدْبر. ولو رأيتني، والأمرُ علي مُقبِل لاستكبرْتَ مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استحقرت.

- أترى الحجاجَ استقرَّ في قَعْر الجحيم؟

- لا تقُل ذلك، فإن الحجاج وطّأ لكم المنابر، وأذلَّ لكم الجبابر. وهو يجئ يوم القيامة، عن يمين أبيكَ ويَسَارِ أخيك فحْيث كانا، كان.

*

---

* توفي سنة 96 هـ.

** يخاطب سليمان يزيد بن مسلم وكان مَوْلى للحجاج. ومعنى العبارة: جَعلك تجرُّه، أي ولاك في أمره. والمعروف أن سليمان كان عدواً لدوداً للحجاج.

قتيبة بن مسلم*

(...) إنه رجلٌ عظيم الكِبْر** ومن عظم كبره، اشتدَّ عجبُه، ومن أعجب برأيه لم يُشاور كفيّا ولم يُؤامِر نصيحاً.

ومن تبجّح بالإعجاب، وفخر بالاستبداد كانَ من الصُّنْع بعيداً، ومن الخذلانِ قريباً.

والخطأ مع الجماعةِ خير من الصّواب مع الفُرقة.

ومن تكبّر على عدوّهِ حقّره، وإذا حَقره تهاون بأمره. ومن تهاونَ بأمر عدوِّه، ووثِق بأمر قُوَّتهِ، وسكن إلى جميع عُدتهِ، قلّ احتراسهُ.

ومن قلَّ احتراسهُ، كثُرَ عثارُه. وما رأيتُ عظيماً تكبّرَ على صاحبِ حرب قط، إلا كانَ منكوباً ومهزوماً ومخذولاً.

وإنما النفس تسمح بالعناية على قدْرِ الحاجة، وتتحفّظ على قدْرِ الخوف، وتطمعُ على قدرِ السبب.

*

إنّ الحريصَ يَستعجل الذِّلّة قبل إدراك البُغْية.

*

---

* كان والياً للحجاج على خراسان، ومقاتِلاً للترك، فتح فتوحاتٍ واسعة. قتل سنة 97 هـ.

** يتكلم عن خصائص القيادة.

عمر بن عبد العزيز*

ـ ما نقِمتُم علينا؟**

ـ ما نقِمنا عليك في سيرتِك. وإنك لتجري بالعَدْلِ والإحسان. ولكن بيننا وبينك أمر. إن أعطيتناه فنحن منك، وأنتَ مِنا، وإن مَنعتناهُ، فلست مِنا، ولسْنا منك.

ـ ما هو؟

ـ رأيناك خالفْتَ أعمالَ أهْلِ بَيْتِك، وسميتها المظالم، وسلكتَ غير سبيلهم. فإن زَعمْتَ أنك على هُدى وهم على ضلال، فالعَنهم وتبرأ منهم. فهذا الذي يجمع بيننا وبيْنَك أو يُفرِّق.

ـ إني قد علمِت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدُنْيا، ولكن أردتُم الآخرة، وأخطأتم طريقها. وإني سائلكم عن أمور، فباللهِ لتصدُقُنِّي عنها. أرأيتما أبا بكرٍ وعُمر أليْسا من أسلافكم، ومن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة؟

ـ بلى.

ـ فهل علمتُم أن أبا بكر، حين قُبِض رسول الله (ص) وارتدتِ العَرب، قاتَلهم، فسفك الدِّماء، وأخذ الأموال، وسبى الذّراري؟

ـ نعم.

ـ فهل علمتُم أن عُمَر، حين قام بعد أبي بكر، ردّ تِلك السبايا إلى أصحابها؟

---

* توفي سنة 101 هـ.

** جاءه وفد من الخوارج فجرى بينهما هذا الحوار.

ـ نعم.

ـ فهل برئ عُمَر من أبي بكر.

ـ لا.

ـ أفرأيتم أهْلَ النهروان؟ أليسوا أسلافكم ومَنْ تتوَلون وتشهدون لهم بالنجاة.

ـ بلى.

ـ فهل علمتم أن أهْلَ الكوفةِ، حين خرجوا إليهم، كفُّوا أيديَهم فلم يسفكوا دَماً، ولم يخيفوا آمِناً، ولم يأخذوا مالاً؟

ـ نعم.

ـ فهل علمتُم أن أهلَ البصرة حين خرجُوا إليهم مع الشيباني وعبد الله بن وهب الرّاسبي وأصحابه، استعرضوا الناس، يقتلونهم ولقُوا عبد الله بن خباب بن الأرتّ، صاحب رسول الله، فقتلوه، وقتلوا جاريته، ثم صَبحوا حياً من أحياءِ العرب، فاستعرضوهم، فقتلوا الرّجال، والنساء والأطفال، حتى جَعلوا يُلقون الصبيان في قدُور الأقِط وهي تفور؟

ـ قد كان ذلك.

ـ فهل تبرأ أهل البصرةِ من أهل الكوفة وأهْل الكوفةِ من أهل البصرة؟

ـ لا.

ـ فهل تبرؤون أنتم من إحدى الطائِفتين؟

ـ لا.

ـ أرأيتم الدين واحِداً أم اثنين؟

ـ واحِداً.

ـ فهل يسَعكم شيء فيه يَعْجُز عني؟

- لا.

- فكيف وَسِعكم أن توليْتم أبا بكر وعُمر، وتولّى أحدهما صاحبه، وتوَليتُم أهلَ البَصْرةِ، وأهلَ الكوفة، وتولى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء، والفروج، والأموال، ولا يَسعُني في ما زعمتم، إلا لعْن أهلِ بيتي ، والتبرُّؤ منهم.

أرأيتم لعنَ أهلِ الذنوب فريضة مفروضة، لا بُد منها، فإن كانت كذلك، فأخبرني أيها المتكلم، متى عَهدك بلعْنِ فرعون؟

- ما أذكرُ متى لعنتُه.

- وَيحْكَ، لم لا تلعن فِرعون، وهو أخبث الخلق، ويَسَعُني في ما زَعِمْت لعْنُ أهل بيتي، والتبرُّؤ منهم. وَيحكم. إنكم قوم جُهّال. يأمن عندكم من خاف من رسول الله، ويخاف عندكم من أمِن عندَه.

*

- ألا توصي يا أمير المؤمنين![*]

- فيمَ أوصي؟ فواللهِ، إنْ لي من مال.

- هذه مائة ألفٍ، فمر بها، في ما أحببت.

- أو تقبلَ؟

- نعم.

- تُرَدُّ على من أخِذتْ مِنهُ ظلماً.

- يرحمك الله. لقد ألنْتَ مِنا قلوباً قاسيةً، وأبْقَيْت لنا في الصَالحين ذِكراً.

*

لو جاءت كل أمةٍ بخبيثِها، وجئنا بالحجاج لزدْنا عليهم.

*

---

[*] حوار بين مسلمة بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز في مرضهِ الذي مات فيه.

لو كنْتُ في قتلة الحُسيَنْ، وأمُرْتُ بدخولِ الجنة، ما فَعَلتُ، حياءً أن تقع عليَّ، عَيْنا محمد.

*

ما أطاعني الناس في ما أردْتُ من الحق، حتى بسطتُ لهم طرَفاً من الدُّنيا.

*

– لِمَ لا تنام؟
– إن نمت في الليل، ضيّعْتُ نفسي. وإن نِمْتُ في النهار، ضيّعتُ الرّعية.*

*

بعث** الله محمداً رحمةً ولم يبعثهُ عذاباً، إلى كافةِ الناس. ثم اختار له ما عندَهُ فقبضَه إليه وترك لهم نهراً شُرْبُهُم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم وَليَ عمر فعَمِل على عَمَلِ صاحبه. فلما وَلِيَ عثمان اشتقَّ من ذلك النَهر نهْراً، ثم وَلِيَ معاوية فشقَّ منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشقُّ منه يزيدُ ومروان وعبد الملك والوليدُ وسليمان حتى أفضَى الأمرُ إليَّ، وقد يَبِسَ النهرُ الأعظم، ولن يَرْوى أصحابُ النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه.

قالت عمّتهُ: إذا كانت هذه مقالتكَ فلسْتُ بذاكرةٍ لك شيْئاً.

*

ـ ممن أنت؟
ـ من أهل الحجاز.

---

* جوابه عن سؤال من سأله: لِمَ لا تنام؟

** زارته عمتهُ فاطمة بنت مروان ليرُدّ على بني أميّة ما أخذه منهم من المظالم فخاطبها.

- من أيِّهم؟

- من أهلِ المدينة.

- من أيِّهم؟

- من قريش.

- من أيِّ قريش؟

- من بني هاشم.

- من أيِّ بني هاشم.

- مَوْلى علي.

- قال من عليّ؟ فسكتُّ، قال: مَنْ؟ فقُلتُ: ابن أبي طالب. قال: وأنا والله مولى علي.*

*

- لِمَ عَزلْتَني؟

- بلغني أن كلامك، أكثر من كلام الخَصْمين إذا تحاكما إليك.**

*

من استوعبَ الحلال كله، تاقَت نفسه إلى الحرام.

*

اللهم أعطني من الدُّنيا ما تكفني بهِ عن شهواتها، وتعصمني بهِ من فتْنَتها، وتُغْنيني به عن جميع أهلها.

*

---

* حوار عمر بن عبد العزيز مع رجل زاره.

** جوابه إلى قاضٍ عزله.

ـ يا غلام!* ليتكلم من هو أسنُّ منك.

ـ يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريْه: قلبه ولسانه. فإذا منح اللهُ عبده لِساناً لافِظا، وقلباً حافظاً، فقد أجادَ له الاختيار. ولو أنّ الأمورَ بالسنّ، لكان هاهنا من هوَ أحق بمجلسك منك.

ـ صدقت، تكلم فهذا السحرُ الحلال.

ـ يا أمير المؤمنين نحن وفْدُ التهنئة، لا وفد المرزئة. ولم تُقْدِمنا إليك رغبة ولا رهبة. لأنا قد أمِنّا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبْنا.

*

* غلام يتكلم مع الخليفة عمر بن عبد العزيز من وفد الحجاز الذي قدم إليه مهنّئاً.

الشعبي*

من أراد أن يكثر علمه،
فليجتنب مجالس قومه.

*

تعايش الناس زماناً بالدين، حتى ذهبَ الدين،
وتعايشوا بالمروءة حتى ذهبَتِ المروءة،
ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهبَ الحياء،
ثم تعايشوا بالرغبةِ والرّهبة.
وسيتعايشون بالجهالةِ زماناً طويلاً.

*

ـ ما كان اسم امرأةِ ابليس؟
ـ ذاك نِكاحٌ ما شهدناه.

*

ـ هل يؤكل الذبّان؟
ـ إذا اشتهيْتَ فكلْ.

*

---

* عامر بن شراحيل، أمُّه من سَبْي فارس، عُرِف بالمزُاح. كان أديباً قاصاً. مات 105 هـ. حوارات قصيرة مع أناس كانوا يتوجهون اليه بأسئلة.

ـ كيف المسحُ على اللحية؟
ـ خللها بأصابعك.
ـ أخافُ ألاّ تبُلّها.
ـ إن خفت، فانقعْها من أوّلِ الليْل.

*

ـ هل يجوز للمُحرم أن يحكَّ جسدَه؟
ـ نعم.
ـ مقدار كم؟
ـ حتى يبدو العظم.

*

ـ ...؟*
ـ لا أدري.
ـ أما تستحي أن تقول: لا أدري، وأنتَ فقيهُ العِراق.
ـ لكنّ الملائكة لم تستح، إذْ قالت: ﴿سبحانك لا عِلمَ لنا إلا ما علمتنا﴾**.

*

ـ هل كان الحجاجُ مؤمناً؟
ـ نعم، بالطاغوتِ، كافِراً بالله.

*

الكلام مصائد العقول.

*

---

* كان قد سُئل عن شيء لا يعرفه.
** سورة البقرة، آية: 32.

بنو أمية دنٌّ خلّ، أخرجَ الله منه زِقَّ عسل*.

*

لا تقدموا على أمر تخافون أن تقصِّروا دونه، فإن العاقِلَ يحجزهُ عن مراتبِ المتقدمين، ما يرى من فضائح الأولين المقصرين.

ولا تعدِوا أحداً عِدةً لا تستطيعون إنجازها، فإن العاقِل يحجزهُ عن الكذب ما يَرى من المذمةِ في الخلف.

ولا تُحدِّثوا بين الناس من تخافون تكذيبه، فإن العاقِلَ يُلزمهُ الصمتَ ما يرى من مذمّةِ التكذيب.

ولا تسألوا أحَداً من الناس تخافونَ مَنْعَه، فإن العاقِل يحجزه عما نالهُ السّائلون ما يرى من الدّناءةِ في الطمع.

*

الجاهِلُ حَصِر، والحكيم حاكم. ولم يعرف قَدْر الأبّهة من لم يجرّعْهُ الحِلمُ غُصَصَ الغيظ.

*

ما لقينا من عليٍّ رضيَ الله عنه: إن أحبَبْناهُ قُتِلنا، وإن أبغضناه كفرنا.

*

(...) والله ما علمته إلا آخِذا بثلاث، تاركاً لثلاث:
آخِذاً بُحسْنِ الحديث إذا حدّثَ،
وبُحسنِ الاستماع إذا حُدِّث،
وبأيسر المؤونة إذا خولف،
تاركاً لمجاوبةِ اللئيم ومماراة السفيه، ومنازعةِ اللجوج.**

*

---

* زقّ العسل هو عمر بن عبد العزيز.

** الكلام في عبد الملك بن مروان.

عمر بن أبي هبيرة*

اللهم إني أعوذ بكَ من جليس مُفْرٍ، وصديق مُطْرٍ، وعدوٍّ مُسْرٍ.

وأعوذ بك من أدبِ التجار، ومن أخلاقِ الصغار، ومن خُلطةِ كل محرم تصعبُ رياضته، وكل حريص يغرُّهُ حِرْصُه.

ونعوذُ باللهِ من صُحبةِ مَنْ غايتُهُ خاصّةُ نفسه.

وأستعيذ بالله ممن لا يلتمِسُ خالِصَ مودتك، إلا بالتأتي لمواقع شهوتك.

وأعوذُ باللهِ ممن يُسَاعدكَ في ساعَتكَ، ولا يفكر في حوادث غدك، ويبالي في أيِّ أقطارها نزلت، ومن أيِّ أعيانها سقطت، ولذلك قالوا: صاحبُ السّوء قِطعةٌ من النار.

*

اللهم إني أعوذُ بك من عَدُوٍّ يُسْري، ومن جليس يُغْري.

*

---

* ولي العراق في عهد عبد الملك سنة ستين هجرية وتوفي سنة 110 هـ.

الحسن البصري*

لا يستحق أحد حقيقة الإيمان، حتى لا يعيب الناس بعيب فيه، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم، حتى يصلح عيوب نفسه. فإذا فعل ذلك، لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي أن يصلحه. فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره.

*

– ما بالُ الناس يكرمون صاحبَ المال؟

– لأنّ عشيقهم عنده.**

*

الدّنيا تطلب الهاربَ منها وتهربُ من الطالب لها،

فإن أدركت الهاربَ منها جرحَتْه،

وإنْ أدركها الطالبُ لها قتلتهُ.

*

رُبَّ هالكٍ بالثّناء عليه،

وَمغرورٍ بالسّتْرِ عليه،

وَمسْتَدْرجٍ بالإحسانِ إليه.

*

---

* الزاهد والمتكلم، توفي سنة 110 هـ.

** حوار بين الحسن البصري ورجل.

إن لم تُطعِكَ نفسُكَ في ما تَحملها عليه مما تكره، فلا تُطعها في ما تحملك عليه مِما تَهْوى.

*

الصّدق أمانة، والكذب خيانة.

*

الإنصافُ راحةٌ، والإلحاحُ وقاحة.

*

التواني إضاعة والصّحة بِضاعة.

*

الحزم كياسَة، والأدب سياسة.

*

الرجال ثلاثة:
رجلٌ بنفسهِ، وآخر بلسانهِ، وآخرُ بمالهِ.

*

كنّا في أقوام يخزنونَ ألسنتهم، ويُنْفقِون أوراقَهم،
وبقينا في أقوام يخزنون أوراقهم، وينفقون ألسنتهم.

*

إذا خرجتَ من منزلكَ فلقيتَ مَن هو أسَنُّ منكَ فقل: هذا خيرٌ مِنّي، عبدَ الله قبلي.

وإذا لقيتَ مَن هو دُونَكَ في السنّ، فقل: هذا خيرٌ مني، عَصيتُ الله قبله.

وإذا لقيتَ مَن هو مثلكَ، فقل: هذا خيرٌ منّي، أعرف مِن نفسيَ ما لا أعرف منه.

*

اجعل الدّنيا كالقَنْطرة، تجوز عليها ولا تعمرُها.

*

ليس العجَبُ مِمن عطب كيف عطب، إنما العَجبُ مِمنْ نجا، كيف نَجَا؟

*

لا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين،*
ولا تَسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يَرقبُون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمّةً، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك.

ولا يُغُرَّنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤسك ويأكلون الطيباتِ في دُنياهم، بإذهاب طيباتِك.

ولا تنظرنَّ إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً، وأنتَ مأسورٌ في حبائلِ الموْت.

*

كان والله، سهماً صائباً من مرامي الله على عدوِّهِ، وربانيَّ هذه الأمة وذا فضِلها، وذا سابِقتها. ولم يكن بالنؤومةِ عن أمر الله، ولا بالملومةِ في دين الله، ولا بالسَّروقةِ لمال الله. ذلك عليُّ بن أبي طالب.

*

- ما تقول في الخوارج؟**
- هم أتباعُ دنيا.
- ومن أين قلت، وأحدهم يمشي في الرُّمح، حتى ينكسر فيه. ويخرج من أهلهِ وولده؟

---

* من نصيحة يقدمها للخليفة عمر بن عبد العزيز.

** حوار مع خارجيّ.

ـ حدثني عن السُّلطان. أيمنعُك من إقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة، والحج والعُمرة؟

ـ لا.

ـ فأراه، إنما مَنعَك الدُّنيا فقاتلتَهُ عليها.

*

رب محسودٍ على رجاء هو بلاؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومغبوطٍ بنعمةٍ هي داؤه.

*

حسبك من العِلم أن تخشى الله، وحسبُك من الجهْل أن تُعْجَب بعلمك.

*

ليس من المروءة أن يربَح الرجُلُ على أخيه.

*

لأن أقضي لأخ من أخواني حاجة أحبُّ إليّ من أصلّي ألف ركعة.

*

لو اتّعظنا بما علمنا، انتفعنا بما عملنا،
ولكننا عَلمنا علماً لزمتنا فيه الحجَة، وغفلنا غفلة من لا تخاف عليه النقمة.

*

اللهم لا تجعلني ممن إذا مَرِض ندِم، وإذا استغنى فُتِن وإذا افتقر حَزن.

*

بالقَبْر تُداوى الأمور ولا يُداوى بغيره.

*

الدُّنيا هي المحبوبة التي لا تُحِبُّ أبداً، الملزومة التي لا تلزَمُ أحداً، يوُفى لها فتغدر، ويُصدَّق لها فتكذب.

*

من وسعَ اللهُ عليه في ذاتِ يده، فلم يَخَفْ أن يكونَ ذلك مكراً من الله عز وجَلّ، فقد أمِن مخوفاً. ومَن ضيّق اللهُ عليه في ذاتِ يده فلم يَرْجِ أن يكون ذلك نظراً من الله فقد ضيع مأمولاً.

*

إن من أعظم نِعمَ الله على خَلقه أن خلق لهم النار تَحوشهُم إلى الجنة.

*

ذَمُّ الرجُل نفسه في العلانية، مدْح لها في السر.

*

من ازدادَ عِلماً فلم يزدَدْ زُهْداً، لم يزدَدْ من الله إلا بعداً.

*

الدُّنيا كلها غمٌّ. ما كان منها من سرور فهو ربْح.

*

لا مرْحباً بمن إن كنتُ غنياً أذهلني، وإن كنتُ فقيراً أتعبني.
لا أرضىَ له بسعيي سعياً، ولا بكدِّي له في الحياةِ كدّاً.
أشفق عليه من الفاقة بعد وفاتي، وأنا في حالٍ لا يَصِلُ إليَّ من همّه حُزن، ولا من فرحه سرور.*

*

كان لا يجهل، وإن جُهِلَ عليه حلُم. ولا يَظلم، وإن ظُلَمَ غَفَر، ولا يَبْخَل وإن بَخِلت الدُّنيا عليه صبر.**

*

أربعٌ قواصمُ للظهر: إمام تطيعهُ ويُضِلّك،
زوجة تأمنُها وتخونك،

* يردّ على كلّ من هنّأه بمولود جديد.

** الكلام في وصف عليّ بن أبي طالب.

وجارٌ إنْ علم خيراً سرّهُ أو شراً نشرَهُ،
وفقر حاضِرٌ لا يجد صاحبُه عنه شارداً.

*

ـ أعِنّي بأصحابك.
ـ من كان من أصحابي يريد الدُّنيا فلا حاجةَ لك فيه. ومن كان منهم يريد الآخرة فلا حاجةَ له قِبلك. ولكن عليك بذوي الأحساب، فإنَّهُم إن لم يتقوا استحيوا، وإن لم يستحيوا تكرَّموا.*

*

كن في الدُّنيا كالغريب الذي لا يجزَعُ من ذلها، ولا يُشارك أهْلها في عزها.
للناس حال وله حال أخرى. قد أهمّتْهُ نفسه، وعمِل لما بعد الموت،
فالناس منه في عافية، ونفسه منه في شُغل.

*

لا تزول قدمُ ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث:
شبابهِ فيمَ أبلاه؟
وعُمْره فيم أفناه؟
ومالِه من أين اكتسَبهُ وفيم أنفقه؟

*

من خافَ الله أخافَ الله منه كل شيء.

*

أهينوا الدُّنيا، فو اللهِ لأهنأ ما تكون حين تهينونها.

*

ـ من شرُّ الناس؟

---

* من حوار بينه وبين عمر بن عبد العزيز.

ـ الذي يرى أنه خيرهم.

*

(...) الإمام العادل قِوامُ كل مائل، وقَصْدُ كل جائر، ومفزعُ كل ملهوف.

كالراعي الشفيق على إبله يرتادُ لها أطيَبَ المرْعى، ويزودُها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ويكنّها من أذى الحرّ والقُرّ.

وكالأبِ الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعُلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدَّخِر لهم بعد مماتهِ.

وكالأم الشفيقة البَرَّة الرفيقة بولدها تسهَرُ بسهرهِ وتسكن بسكونه، ترضعهُ تارة وتفطمُهُ أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته.

وهو وصيّ اليتامى، وخازِنُ المساكين، يربي صغيَرهم ويموِّنُ كبيرهم.

والإمام العادل، كالقلب بين الجوارح، تصلحُ الجوارح بصلاحهِ وتفسدُ بفساده. فلا تكن في ما ملكك الله عز وجل كعبْدٍ ائتمنه سيدهُ واستحفظهُ ماله وعِيَاله، فبددَ المال، وشرّدَ العيال.

*

عاشر أهلك بأحسن أخلاقك، فإن الثواء فيهم قليل.

*

عزّ الشريف أدَبُهُ، وعزّ المؤمن استغناؤه عن الناس.

*

لا تشترينَّ عداوةَ رجل بمودة ألف رجل.

*

من زهدَ في الدُّنيا ملكها، ومن رغبَ فيها عبدها.

*

ما أحسن الرَّجل ناطقاً عالماً ومستمعاً واعياً، وخائفاً عاملاً.

*

بـعْ دنيـاك بآخرتـك تربحـهمـا ولا تبـع آخرتـك بـدنياك تخسـرهما جميعـاً. وإذا رأيت الناس في الخير فقاسِمْهُم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه.

طأِ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك،

واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطتَ من بطن أمك.

رحـمَ الله امـرأ نظـر فتفكّـر، وتفكّـر فـاعتبر، واعتبـر فأبصـر، وأَبْصَـر فأقصر.

*

ظهر الجفاء وقلتِ العلماء وعفت السنّة وشاعت البُدعة.

مالي أسمَعُ حسيساً ولا أرى أنيساً؟

ذهبَ الناس وبقيَ النسناس.

لو تكاشفتُم ما تدافنتُم.

تهاديتُم الأطباق ولم تتهاذُوا النصائح.

أَلا إن الحق قد أجْهدَ أهلهُ.

*

اللهم استعمل علينا أخيارنا، فأعظِم بها مُصيبةً ألا يُستجاب لنا.

وأعظم من ذلك أن يكون استجيبَ لنا، فيكون هؤلاء خيارنا.

*

ابن آدم أسيرُ الجوع، صريعُ العَطش.

*

لسانُ العاقِل من وراء قلبه، فإن عرض له القول نظر، فإن كان لـه أن يقول قال: وإن كان عليه القول أمسك.

ولسان الأحمق أمام قلبه، فإذا عرض له القول، قال له أو عليه.

*

إنما تعِظ مسترشداً ليفهم، أو جاهِلاً ليتعلم.

فأما من وضع سيفه وسوطه وقال: احذرني فمالك وله؟

*

إنما أنت عَددُ أيّامك، إذا مضى يوم مضى بعضك.

*

بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً.

*

إذا رأيْتَ الناس في الخير فنافِسهم فيه.

*

تَبقَى الأعمال قلائِدِ في أعناق بني آدم.

*

أنتم تسوقون الناس والسّاعةُ تسوقكم.*

*

أنتم كلَّ يوم تُرْذلون، فماذا تنتظرون؟

*

عدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك.

*

دعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم.

*

تُنفِق في شهواتك سرفاً، وتمنعُ في حقِّ الله درهماً!

*

---

* مخاطباً الحكّام.

لا تحقَرنَّ شيئاً من الخير وإن صَغُر،
فإنك إذا رأيته سرّك مكانه،
ولا تحقرنَّ شيئاً من الشر، وإن صَغُر، فإنك إذا رأيتَه ساءك مكانه.

*

ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدُّنيا ففضحها، فواللهِ ما وجَدَ ذو لبٍّ فرحاً.

*

إن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس ههنا شيء يغنيك، وإن كان يغنيك ما يكفيك، فالقليل من الدُّنيا يكفيك.

*

لا تعمل شيئاً من الحق رياءً، ولا تتركهُ حياءً.

*

كان أهلُ الدُّنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم، رغبةً في علمهم، فأصبحَ اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدُّنيا، رغبة في دنياهم،
فرغِبَ أهل الدُّنيا بدنياهم عنهم، وزهدُوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعهِ عندهم.

*

لا يزال العبد بخير ما كان له واعظٌ من نفسه.

*

ابن سيرين*

ـ هل ينقض الشعر الوضوء أم لا؟

ألا أصبَحت عرسُ الفرزدِق جامحاً

ولو رَضيَتْ رمْحَ استهِ لاستقرّتِ

الله أكبر.**

*

ـ رأيت أني وطئتُ ثمرة، فخرجَتْ منها فأرة؟

ـ تتزوج امرأةً صالحة، تلدُ بنتاً فاسقة.

*

ـ رأيت رجُلا عُرْياناً واقِفاً على مِزبلة، وبيدِهِ طنبورٌ يضرب به.

ـ لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا، إلا للحسَن البصري.***

*

ما رأيتُ على رجُل أحْسَنَ من فصاحة، ولا على امرأةٍ أحْسَنَ من شحم.

*

---

* محمد بن سيرين من التابعين، اشتُهر بالورع. كان حُجة في تفسير الأحلام.

** سُئل هذا السؤال وهو قائم يصلي. فقرأ الشعر وكبر متابعاً صلاته.

*** صدّق الحسن هذه الرؤيا فالمزبلة هي الدنيا. العُري التجرّد منها. الطنبور: المواعظ وكان الحسن واعِظاً.

محمد الباقر*

ـ أيدخِلُ أحدكم يَدهُ في كمّ صاحبه فيأخذ حاجته من الدنانير والدراهم؟
ـ لا.
ـ فلستم إذاً بإخوان!

*

إن الله خبّأ ثلاثةً في ثلاثة: خبأ رضاه في طاعته، فلا يحقرَنَّ من الطاعةِ شيئاً، فلعل رضاه فيه،
وخبّأ سخطه في معصيتهِ، فلا يحقرَن من المعاصي شيئاً، فلعل سخطه فيه.
وخبّأ أولياءه في خلقه، فلا تحقِرُنَّ أحداً فلعله ذلك الولي.

*

واللهِ ما بيننا وبين اللهِ قرابة، ولا لنا على اللهِ من حُجة، ولا نتقرب إليه إلا بالطاعة،
فمن كان منكم مطيعاً لله يعمل بطاعتهِ نفعَتْهُ ولايتُنا أهل البيت. ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا.
ويحكم لا تفتروا. ويحكم لاتفتروا.

*

اللهم أَعنّي على الدُّنيا بالغِنى، وعلى الآخرةِ بالعفو.

*

---

* محمد بن علي زين العابدين، لُقّب بالباقر، أي الجامع للعلم. ولد سنة 57 هـ وتوفي سنة 114 هـ. قال عنه الجاحظ: جمع محمد صلاحَ شأن الدُّنيا بحذافيرها في كلمتين، فقال: صلاحُ شأنِ التعايُشِ والتعاشر، مِثلُ مكيال، ثلثاه فِطنة وثلثه تغافُل.

جرير*

- من أشعر الناس؟
- ابن العشرين.**
- فما رأيك في ابني أبي سلمى؟***
- كان شعرهَما نيّراً يا أمير المؤمنين!
- فما تقول في امرئ القيس؟
- اتَخذَ الخبيثُ الشعرَ نعْلين، وأقسِم باللهِ لو أدركتهُ لرفعت ذَلاذِله.
- فما تقولُ في ذِي الرُّمة؟
- قَدَر من ظريف الشعر وغريبه وحَسَنهِ ما لم يقدِر عليه أحدٌ.
- فما تقولُ في الأخطل؟
- ما أخرجَ لِسانُ ابن النصرانية ما في صدرهِ من الشعر حتى مات.
- فما تقولُ في الفرزدق؟
- في يَده، واللهِ، يا أميرَ المؤمنين نَبْعة من الشعر قد قبض عليها.
- فما أراك أبْقَيْتَ لنفسك شيئاً!

- بلى والله، يا أمير المؤمنين! إني لمدينةُ الشعر التي منها يخرج وإليها يعود. نَسَبْتُ فأطربْتُ، وهجوْتُ فأرديْتُ، ومَدحْتُ فسنّيتُ وأرمَلتُ فأغزَرت ورجَزْتُ فأبحرتُ.

---

* جرير بن عطية الخطفي توفي سنة 111 هـ. في حوار مع عبد الملك أو ابنه الوليد.

** يريد طرفة بن العبد.

*** يريد الخليفة: زهيراً وابنه كعباً.

فأنا قلتُ ضروبَ الشعر كلها، وكل واحدٍ قال نوعاً منها.

ـ صَدَقت!

*

وهب بن منبه*

شبَّهَ جدِّي الدُّنيا بسبعة أشياء: شبّههَا بالماء المالح يَمِرُّ ولا يروي، ويضرُّ ولا ينفع،

وبالبَرْق الخُلّب يفِرُّ ولا ينفع،

وبسحابِ الصيف يَمُرُّ ولا ينفع،

وبظلِّ الغمام يَغُرُّ ويخذل،

وبزهرِ الربيع ينضُر ثم يصفر،

وبأحلام النائم يَرى الشرورَ في منامه، فإذا استيقظ لم يكن في يدهِ إلا الحسرة،

وبالفشل المشوبِ بالسُّمِّ الزُّعاف يغرُّ ويقتل.

*

* أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني تابعي من المشهورين بمعرفة أخبار الأوائل. توفي سنة 114 هـ.

أبو عبد الله الرياحي*

أخذتُ من الليثِ بسَالتَهُ،

ومن الحمارِ صبرَهُ،

ومن الخنزير حِرْصَهُ،

ومن الغُرابِ حِرْزَهُ،

ومن الثعلب روغانَهُ،

ومَن السنَّوْرِ ضَرَعَهُ،

ومن القِرْد حكايتَهُ،

ومن الكلب نُصْرتَهُ

ومن ابن آوى حذره.

ولقد تعلمتُ من القمر سيرَ الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين.

*

---

* من بني رياح في البصرة. توفي سنة 120 هـ.

زيد بن علي*

لا يُسأل العبد عن ثلاثٍ يوم الحساب: عمّا أنفقَ في مرضه، وعما أنفق في إفطارهِ، وعما أنفق في قِرى ضيفه.

*

اطلبْ ما يَعنيك ودَعْ ما لا يعنيك،
فإن في ترك ما لايعنيك دركاً لما يعنيك.
وإنما تقدمُ على ما قدّمتَ، ولست قادماً على ما أخرت،
فآثِر ما تلقاهُ غداً، على ما لا تراهُ أبداً.

*

ـ يا ابْنَ السوداء.
ـ ذلك لونها.
ـ يا بن النوبيّة.
ـ ذلك جنسُها.
ـ يا بْن الخبازة.
ـ تِلك حرفتُها.
ـ يا بن الفاجرة.
ـ إن كنتَ صادقاً فغفر الله لها، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

---

* زيد بن علي زين العابدين . أخو محمد الباقر . ولد سنة 79 هـ. تتلمذ على يد واصل بن عطاء. ثار على هشام بن عبد الملك فقُتل سنة 121 هـ.

- بل أنا كاذب. (قالها ثلاث مرات.*)

*

ليس شيء بخير من الخير إلا ثوابَه،
وليس شيء بشر من الشر إلا عقابه.
وكل شيء من الدُّنيا سماعُهُ أعظم من عِيانه،
وكل شيء من الآخرةِ عيانُه أعظمُ من سماعه.
فليكفكم من السماع العيان، ومن الغيْب الخبر.
إن الذي أُمِرْتُم به أوسَعُ مما نُهيتُم عنه، وما أحلَّ لكم أكثرُ مما حُرِّم عليكم. فذرُوا ما قلَّ لما كثُر، وما ضاق لما اتسع. فقد تُكفِّلَ لكم بالرزق، وأمِرتُم بالعمل. فلا يكونن المضمون لكم طلبُه أولى بكم من المفروض عليكم. مع أنه والله، قد اعترض الشك، ورحَل اليقين، حتى كأن الذي ضُمِنَ لكم قد فُرِضَ عليكم، وكأن الذي فُرِضَ عليكم قد وُضِع عنكم.
فبادروا العمل، وخافُوا بغتةَ الأجل،
فإنه لا يُرجى من رحمةِ الحياةِ ما يُرْجى من رحمة الرزّق.
فإنّ ما فات اليوم من الرزق يُرْجَى غداً زيادته، وما فاتَ أمس من العمر لم يُرْجَ اليوم رجعته.
الرجاءُ مع الجائي واليأس مع الماضي.

*

المروءة إنصافُ من دونك، والسموُّ إلى من فوقك، والجزاءُ بما أتى من خيرٍ أو شر.

*

الصَمْت أفضلُ أم الكلام؟
أخزى الله المُسَاكتة، فما أفسدها للِّسان وأجْلبَها للحَصر.

*

* حوار بينه وبين عبد الله بن الحسن في خلاف بينهما.

الزُّهري*

- من أين قدِمت؟**
- من مكة.
- فمن خلفت يسودُها؟
- عطاءً بن ابي رباح.
- مِنَ العَرب هو، أم من الموالي؟
- من الموالي.
- فيمَ سَادَهم؟
- بالدِّيانة.
- إنّ أهْلَ الدِّيانةِ والرِّواية، ليَنبْغي أن يسُودوا.
- فمن يسُودُ أهْلَ اليمن؟
- طاووس بن كيسان.
- مِن العرب هوُ، أم من الموالي؟
- من الموالي.
- فيِمَ سادهم؟
- بما سادَهم عطاء.

* محمد بن مسلم بن عبد الله، الزهري، القُرَشي، فقيه، راوٍ للحديث وأولُ من دوّنه، ولد سنة 58 هـ. توفي سنة 124 هـ.

** حِوار بين عبد الملك بن مروان والزُهري.

ـ فمن يسودُ أهلَ مصر؟

ـ يزيد بن ابي حبيب.

ـ من العَرب هو أم من الموالي؟

ـ من الموالي.

ـ من يسودُ أهلَ الشام؟

ـ مكحول.

ـ أمِنَ العرَب هو، أم من الموالي؟

ـ من الموالي. عبْدٌ نوبي أعتقتْهُ امرأة من هُذَيْل.

ـ فمن يسودُ أهْلَ الجزيرة؟

ـ ميمون بن مهران.

ـ أمنَ العَرب هو؟

ـ من الموالي.

ـ فمن يسودُ أهْلَ البَصْرة؟

ـ الحسَن البَصْري.

ـ أمِنَ العَرب هو؟

ـ من الموالي.

ـ ويْلك. فمن يسودُ أهل الكوفة؟

ـ ابراهيم النَخعِيّ.

ـ أمِنَ العرب؟

ـ مِنَ العَرب.

ـ ويلك، فرَّجْتَ عني. واللهِ ليسُودَنَّ الموالي العرب حتى يُخطبَ لها على المنابر، والعَربُ تحتها.

*

مسلمة بن عبد الملك*

- أمدَحتَ فلاناً؟**

- لقد فعلت.

- أو قد حَرَمك؟

- قد فَعَلَ.

- فهلا هجَوْتَه؟

- لم أفْعَلْ.

- ولِمَ؟

- لأني كنتُ أحقَّ بالهجاء مِنْهُ، إذْ رأيتُه مَوْضِعاً لمدْحي.

- اسألني.

- لا أفْعَل.

- ولم؟

- لأن كفك بالعطية، أجودُ من لِساني بالمسألة.***

*

ما حمدْتُ نفسي على ظفرٍ ابتدأتُه بعجز، ولا لمتُها على مكروهٍ ابتدأته بحزم.

*

---

* مات في عهد هشام أخيه.

** يريد رجلاً من أهله، والسؤال مُوجه للشاعر نُصَيْب.

*** قيل: أعجب به ووهبهُ ألف دينار.

الوليد بن يزيد*

- ما تقول في الشراب؟**
- عن أيِّهِ تسألني يا أمير المؤمنين؟
- ما تقول في الماء؟
- هُوَ قِوامُ البدن ويُشَاركني فيه الحمار.
- ما تقولُ في اللبن؟
- ما نظرتُ إليه، إلا استحييْتُ من أمي لطول إرضاعها إيّاهُ لي.
- ما تقولُ في الخمرة؟
- آه، صديقةُ روُحي.
- فأنت أيضاً صديقي. فاقعُدْ.
- ما أصْلَحُ الأمكنة للشُّرْب؟
- ما شربَ الناس على وجهٍ أحسَنَ من وجِهِ السماء وصَفو الهواء، وخضرةِ الكلأ، وسعةِ الفضاء، وقمر الشتاء.

*

* الوليد بن عبد الملك. قُتِل في البَخْراء في طرفِ الحجاز سنة 125 هـ. كان مُتهماً بالفِسق والمجون.

** يخاطب (شراعة بن الزندبُور) ظريف العراق، سمع به الوليد فاستحضرَهُ نديماً، وبينهما جرى هذا الحوار.

يزيد بن الوليد*

(...) ما خرجتُ أشَراً ولا بَطراً، ولا حِرْصاً على الدُّنيا، ولا رغبةً في الملك.

وما بي إطراءُ نَفْسي، وإني لظلوُمٌ لها.

ولقد خَسِرْتُ إن لم يَرْحمني ربي.

ولكن خرجتُ لما هُدِمَتْ معالِمُ الهُدى، وأطفئ نورُ التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحِل لكل حُرْمة، والراكبُ لكلّ بدْعة.

وإنه لابنُ عمي في النسب، وكِفئي في الحسب،

فلما رأيت ذلك، سألتُه أن لا يَكلِني إلى نفسي، ودَعَوتُ إلى ذلك من أصابني من أهل ولايتي، حتى أراح اللهُ منه العِباد، وطهّرَ منهِ البلاد.

*

* هو الذي قتل ابن عمه الوليد بن يزيد، لفِسقهِ. توفي سنة 126 هـ .

عبد اللّه بن معاوية بن ذي الجناحين*

ـ أمِثلُ هذا الأسود، يُعْطى مِثلَ هذا المال؟

ـ إن كان أسْودَ، فإن شِعْرَهُ أبيَض، وإن ثناءَهُ لعربي، ولقد استحق بما قال، أكثرَ مما نال.

وهل أعطيْتُهُ، إلا ثياباً تَبْلى، ومالاً يفنَى، ومطاياً تُنضَى، وأعطانا مَدحاً يُروى، وثناءً يبقى.**

*

(...) فقد عاقني الشكُّ في أمرك***، عن عزيمةِ الرأي فيك. ابتدأتني بلطف من غير خِبرة، ثم أعقبتني جفاءً من غير ذنب فأطمعَني أوّلك في إخائِك، وآيَسني آخِرُك من وفائك.

فلا أنا في اليَوم مُجمعٌ لك اطِّراحاً، ولا أنا في غدٍ وانتظاره مِنك على ثقة.

فسبحانَ من لو شاء، كشفَ بإيضاحِ الرأي في أمرك، عن عزيمة الشك فيك،

فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف.

*

---

* ابن أبي طالب. خرجَ في زمن مروان بن محمد، يدعو إلى عليّ الرِّضا من آل محمد. حبَسَهُ أبو مسلم. مات مسموماً عام 129 هـ.

** ذكر أن نُصيبا امتدح عبد الله فأعطاه خيلاً وإبلاً ودنانير ودراهم وأثاثاً، فعاتبه رجل كما هو وارد.

*** رسالة إلى رجل.

أبو حمزة الخارجي*

يا أهلَ المدينة،

إنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشَراً ولا بطراً، ولا عبثاً ولا لهواً،

ولا لدَوْلةِ مِلك نُريدُ أن نخوضَ فيه، ولا لثأرٍ قديم نيلَ مِنا. ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد أطفِئت، ومعالِمَ العَدْل قد عُطلت، وعُنِّفَ القائم بالحق، وقُتِلَ القائم بالقسط،

ضاقت علينا الأرض بما رَحُبَتْ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحُكم القرآن، فأجبنا دَاعي الله.

ومن لم يجب داعيَ الله، فليْسَ بمُعجز في الأرض. فأقبلنا من قبائل شتى. النفرُ مِنا على البعير الواحد، وعليه زادُهم، يتعاورون لحافاً واحداً. قليلون مُستضعفون في الأرض فآوانا الله، وأيدنا بنصره، فأصبحنا، واللهُ المحمودُ من أهل فضله ونعمته.

ثم لقينا رجالكم بقديد**، فدعوناهم إلى طاعةٍ الرَّحمن، وحُكم القرآن، فدعُونا إلى طاعة الشيطان، وحُكم مروان،

فشتان ما بين الغي والرَّشَد.

ثم أقبلوا يَزفِون ويُهرعون، قد ضربَ الشيطان فيهم بجِرانهِ وصدق إبليس عليهم ظنه.

---

* يحيى بن المختار بن عوف الأزدي الخارجي. قُتِل في معركة مع جيش مروان بن محمد في وادي القُرى سنة 131 هـ . من نُساك الإباضية وخطبائهم.

** اسم مكان.

وأقبل أنصارُ الله، عصائبَ وكتائبَ، بكل مهندّ ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتابُ منه المبُطلون.

وأيمُ الله يا أهل المدينة،

الناس منا ونحن منهم، إلا مشركاً عبّاد وثن، أو كافِراً من أهل الكتاب أو إماماً جائراً.

يا أهل المدينة!

بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: هم شباب أحداث، وأعرابٌ جُفاة. ويحكم، وهل كان أصحابُ رسول الله، إلا شباباً أحداثاً.

نعم والله إن أصحابي لشباب مكتهلون في شبابهم،

غضيضةٌ عن الشر أعيُنهم، ثقيلة عن الباطل أقدامُهم،

قد باعُوا أنفُساً تموت غداً، بأنفُس لا تموت أبداً،

قد خلطوا كلامهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم،

محنية أصلابُهم على أجزاء القرآن، كلما مرُّوا بآية خوفٍ شهقوا خوفاً من النار، وكلما مروا بآية رجاء، شَهَقوا شوقاً إلى الجنة.

وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتُضيت، وإلى الرماح وقد أشرعَتْ، وإلى السهام وقد فُوِّقت، وأرعدَتِ الكتيبة بصواعق الموت،

استخفّوا وعيدها عند وعيد الله، وانغمسوا فيها.

فطوبَى لهم وحسنُ مآب. فكم من عَيْنٍ في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله. وكم من يد قد أبينَتْ عن سَاعِدِها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً ساجداً في طاعةِ الله.

*

يا أهل المدينة:

أولكم خير أول، وآخركم شرُّ آخِر.

إنكم أطعتم قُراءكم وفقهاءكم، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين،

فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتاً غير أحياء، وما تشعرون.

ما أصحَّ أصلكم وما أسقَمَ فرعكم،

استعبدتكم الدُّنيا فأزلّتكم، والأمانيُّ فأضلّتكم.

فتحَ الله لكم بابَ الدّين فأغلقتموه، وأغلق لكم بابَ الدُّنيا ففتحتموه.

سراع إلى الفتنة بطاءٌ عن السُّنة، عُميٌ عن البرهان، صُمٌّ عن العرفان،

كان عددُ آبائكم قليلاً طيباً أما عددكم فكثير خبيث.

*

عبد الحميد الكاتب*

أكرموا الكتّاب فإن الله عزّ وجل أجرى أرزاق الخلق على أيديهم.

*

إن كان الوَحْي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بُلغاء الكتّاب.

*

القلمُ شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بَحرٌ لؤلؤهُ الحكمة.

*

خيرُ الكلام ما كان لفظهُ فحلاً ومَعناه بكراً.

*

حقٌّ مُوصلِ كتابي إليك، كحقّهِ عليَّ، إذ جعلك موضِعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزْتُ حاجته، فصدِّق أمله.**

*

(...) أُعطيْتَ من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها، أنفسَ منها في المنقلب وأرجحَ في الميزان وأسْنَى في العوض.***

*

جُعِلت الدُّنيا محفوفةً بالكره والسُّرور، وجُعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها فمن درّت له بحلاوتها، وساعده الحظُّ فيها، سكن إليها، ورضيَ بها،

---

* ابن يحيى. كاتب بني مروان. قال أبو جعفر المنصور: غلبنا بنو أمية بثلاثة: الحجاج، وعبد الحميد الكاتب، والمؤذن البعلبكي. قُتِل من قِبل السفاح سنة 132 هـ.

** توصية بشخص.

*** تعزية بامرأة من محظيّات هشام الخليفة الأموي.

وأقام عليها. ومنْ قَرَصَتْهُ بأظفارها، وعضّته بأنيابها قلاها نافِراً عنها، وذمّها ساخِطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها.

وقد كانت أذاقتنا أفاويق* استحليناها ثم جمحتْ بنا نافرةً، ورمحتْنا موليةً، فمَلُح عذبُها، وخشُن لينُها،

فأبعدتْنا عن الأوطان وفرّقتنا عن الإخوان،

فالدار نازحة والطير بارحة.

وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بُعداً، وإليكم صبابة ووجداً، فإن تمَّ البلية إلى أقصى مُدتها يكن آخِرَ العهد بكم وبنا.

وإن يلْحقنا ظفرٌ جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بُذل الإسار، والذلُّ شرُّ جار.**

*

دارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كلَّ ما أعطت، وتباعَدتْ مثل ما تقرّبت.

وأعقبت بالرّاحةِ نَصَباً وبالجذَل هماً، وبالأمن خوفاً، وبالعز ذُلّا، وبالجِدّةِ حاجة، وبالسرَّاء ضرّاءَ، وبالحياةِ موْتاً.

لا ترحمُ من استرحمها سالكة بنا سبيل من لا أوْبةَ له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء.***

*

إن النعمة إذا كالت بالعبد ممتدة أبطرته،

فأساء حَمْل الكرامة، واستثقل العافية ونسبَ ما هو فيه إلى حيلته، وحُسْنِ نبته ورهطه وعشيرته،

---

* هنا بمعنى أنواع أو ألوان من اللذة.

** من رسالة إلى أهله وكانوا يقيمون بالقرب من الرقة، عندما انهزم إلى فلسطين مع مروان بن محمد.

*** شكوى في أيام محنته.

وإذا نزلت به الغِير وانكشفت عمايةُ العَشَا عنه، ذلّ مُنقاداً وندم حسيراً.*

*

(...) فلا تُمكِّنوا ناصيةَ الدّولة العربية من يَدِ الفئة العجميّة.
(...) فسينضبُ السيل وتُمْحى آية الليل.**

*

فإن الفتنة تتشوّقُ لأهلها بآنقِ منظر، وأزينِ ملبس.
تجرُّ لهم أذيالها، وتعدهم تتابُعَ لذاتها،
حتى ترميَ بهم في حوْماتِ أمواجها مُسلِّمة لهم،
تعدهم الكذب وتمنّيهم الخُدَع، فإذا لزمهم عِضاضها، ونفر بهم شماسُها، تخلّتْ عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم مُعرضة. قد سُلبِوا أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحْصنِ معاقِل دُنياهم، من الغَنَاء البهيِّ منظره، الجميل أثره،
حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيجاف في التعب، وسوء المُنْقلب.

*

الظفر ظفران، أحدهما أعمُّ منفعة، وأبلغُ في حُسْنِ الذكر قالةً، وأحوطه سلامة، وأتمُّهُ عافية، وأعودهُ عاقِبة، وأحسنُه في الأمور مورداً، وأصحه في الرّواية حزْماً، وأسلمهُ عند العامة مصدراً،
ما نِيلَ ببسالةِ الجنود وحُسْن الحِيْلة ولُطْفِ المكيدة، ويُمن النقيبة.

*

(...) واعلَم أن جواسيسك وعيونك رُبّما صدقوك، ورُبما غشّوك، ورُبّما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشُّوا عدوك، وغشُّوك ونصحوا عدوك.

---

* صورة وصفية لبعض حالات الإنسان.

** النصيحة للعباسيين المعتمدين على الفرس.

وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه، فلا تبدُرَنَّ منك فرْطة وعقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظنِّ إلى من اتّهمْتَهُ على ذلك، وابسِطْ من آمالهم فيك.

*

- ما الذي خرّجك في البلاغة؟
- حفظ كلام الأصلع.*

*

لو كان المؤدِّبون** أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لُقِّنُوه إلهاماً من تِلقائهم ولم نُصِبْهُم تعلّمُوا شيئاً من غيرهم، لنحَلنَاهُم عِلمَ الغيب، ووضعناهم بمنزلةٍ قصَّر بها عنهم خالِقهُمْ المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيّتِهِ في فردانيّته وسابقِ لاهوتيّتهِ، احتجاجاً منه لتعقُّب في حكمه، وتثبُّتٍ في سلطانه وتنفيذ إرادته على سابقِ مشيئته. ولكن العالِمُ الموفّقُ للخير، المخصوص بالفضل، وبمزية العلم وصفوته، أدركهُ مُعَاناً عليه بلطف بحثه، وإذلال كنفه، وصِحة فهمه، وهجر سآمتِهِ.

*

اعلمْ أن للحكمة مسَالك تفضي مضايقُ أوائلها بمن أمّها سالِكاً، وركبَ أخطارها قاصِداً، إلى سَعَةِ عاقبتها، وأمْنِ سرْحها، وشرفِ عزّها، وأنها لا تُعاز بسُخْفِ الخفة، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة.

قد تلقّتْك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في طلبها. ولا تطاوُلٍ لمُناولةِ ذروتها، بل تأثّلْتَ منها أكرمَ نَبَعاتِها، واستخلَصْتَ

---

* الأصلع: علي بن أبي طالب.

** ولم نُصِبْهم تعلّموا شيئاً ... أي لو علمنا أنهم لم يأخذوا عن غيرهم بل كان ذلك منهم ... لنحلناهم علم الغيب.

أعتَق جواهرها. ثم سموْت إلى لبَابِ مُصَاحِها، وأحرزْت مُنْفِسَ ذخائرها، فاقتعد ما أحرزت ونافِسْ في ما أصبت.

*

كل أهوائك عدوٌّ لك يحاوِل هَلكتك، ويعترض غفلتك، فاحذرها مجانباً لها وتوقّها محترساً لها.

*

(...) عليك أن تملك* أمورك بالقصد، وتواري جندك بالإحسان، وتصون سِرّك بالكتمان وتداوي حِقدك بالإنصاف، وتذلّل نفسك بالعَدْل، وتحصِّنَ عيوبك بتقويم أوَدِك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه،

وأناتَك فوقِّها الملالَ وفوْتَ العمل،

ومضاعتكَ فدرِّعها رؤية النظر واكنُفْها بأناةِ الحِلم،

وخلْوتَك فاحْرسْهَا من الغفلة واعتماد الرَّاحة،

وصَمْتَك فانْفِ عنه عِيَّ اللفظ، وخَفْ سُوءَ القالة، واستماعَك فارْعهُ حُسْنَ التفهّم، وقوِّهِ بإشهاد الفكر،

وعطاءَك فامهَدْ له بيوتات الشرف وذوي الحسب،

وتحرّزْ فيه من السَّرف واستطالةِ البذخ وامتنانِ الصنيعة، وحياءَكَ فامنعْهُ من الخجل، وبلادةِ الحَصر،

وحِلْمَك فزِعْهُ عن التهاون وأحضِرْهُ قُوة الشكيمة،

وعقوبتَكَ فقصِّر بها عن الإفراط، وتعمّد بها أهل الاستحقاق،

وعَفوك فلا تُدخله في تعطيل الحقوق،

واستئناسَكَ فامنَعْ منه البذاءَ، لا تستفرغ قُوتَك ولا تستدعِ سآمتك،

* الكلام موجه إلى أيّ والٍ أو مسؤول.

وعزماتِك فانفِ عنها عجلة الرأي، ولجاجة الإقدام، وفَرحاتك فاشكمْها عن البطر، وقيّدها عن الزهوّ،

ورَوْعاتِك فحُطها من دَهشِ الرّأي، واستسلام الخضوع، وحذراتِكَ فامنعْها من الجُبْن واعمِد بها الحزم،

ورجاءَك فقيّدهُ بخوف الفائت، وامنعْهُ من أمنِ الطلب.

لا يغلبنَّ عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقتطعك دون الفكر، وتعلّم أنك، وإن خلوت بسرٍّ فألقيْت دونه ستورك، وأغلقت عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوف للعامّة، ظاهِرٌ عنك وإن استَتَرْتَ بُربما ولعلَّ.

*

(...) إياك أن يُفاضَ عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمِزاح والمضاحك التي يستخفُّ بها أهل البطالة، ويتسرّع نحوَها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهلُ الحسد مَقالاً لعَيْب يذيعونه وطعْناً في حق يجحدونه مع ما في ذلك من نقص الرأي، ودَرَنِ العِرْض، وهدم الشرف، وتأثيل الغَفْلة، وقُوةِ طباع السوء الكامنة في بني آدم ككمون النار في الحجر الصلد فإذا قُدِحَ لاحَ شررُهُ، وتلهّب وميضهُ، ووقَدَ تضرُّمه.

*

تعهّدْ مِنْ نفسك لطيفَ عيْبٍ لازمٍ لكثيرٍ من أهل السُّلطان والقدرة.

فمِن مُقلْقل شخصَهُ بكثرةِ الالتفات عن يمينه وشماله، تزدهيه الخفّة، ويُبْطرِهُ إجلابُ الرّجال حوله،

ومن مُقْبلٍ في موكبه على مُداعبةِ مُسايرِهِ بالمفاكهة له والتضاحك إليه، والإيجافِ في السّير مرحاً، وتحريك الجوارحِ متسرِّعاً، يخال أن ذلك أسرَعُ له وأحثُّ لمطيته،

فلتُحسِّن في ذلك هيئتك ولتُجمِّل فيه دَعتك،

وليقِلَّ على مُسايرك إقبالُك إلا وأنت مُطرقُ النّظر غير ملتفتٍ إلى محدِّث، ولا مُقبل عليه بوجهك في موكبك لمحادثته، ولا مُوجفٍ في السّير مقلقل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض،

فإن حُسْنَ مسايرة الوالي واتداعه في تلك الحالة دليل على كثير من عُيوب أمرهِ ومُستتر أحواله.

*

(...) إياك وأن يظهر منك تبرُّمٌ بطول مجلسك، أو تضجّرٌ ممن حضرك.

وعليك بالتثبّت عند سَوْرةِ الغضب، وحميّةِ الأنف وملالِ الصّبر في الأمر تستعجل به، والعَمل تأمرُ بإنفاذهِ،

فإن ذلك سخف شائن، وخِفّةٌ مُردية، وجهالةٌ بادية.

*

(...) خرجنا إلى الصيد* بأعْدى الجوارح، وأثقفِ الضّواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدّها أطرافاً وأطولها أعضاءً،

قد ثُقِّفت بحُسْن الأدب، وعُوِّدَتْ شِدةَ الطلب، وسَبرَت أعلام المواقف، وخبرتِ المجاثم،

مجبولة على ما عُوِّدت، ومقصورة على ما أُدِّبَتْ (...)

فلم تزل بأخفض سيْر، وأثقف طلب.

وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فربَتْ منه الأرض وزهَرَ البَقل، وسكن القتام من مُثَار السنابك ومتشعبات الأعاصير (...)

ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحكَ النُّوار، وانجلتْ الأبصار،

---

* يصف رحلة صيد.

فلم نرَ منظراً أحْسَنَ حُسْناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض،

والخيل تمرح بنا نشاطاً، وتجتذبنا أعنّتُها انبساطا.

ثم عدونا إلى أرضٍ وُصِفَ صيدها بالكثرة ورياحها بالنُّزْهة، فزلَّ واصفها عن الطريقة واعتمد بنا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نرَ صيْداً ولا عُشْباً ولا نُزْهةٍ ولا حُسْناً.

فجعلنا نسلك منها حزوناً، ووعوراً، وجدوباً، وقفْراً، حتى قصّر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النّصب.

*

(...) فجعلكم الله معْشر الكتّاب*، في أشرفِ الجهات، أهل الأدب والمروءة، والعِلم، والرواية،

بنصائحكم، يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمرُ بلادُهم. لا يستغني المِلك عنكم، ولا يوجَدُ كافٍ إلا منكم،

فموقعكم من الملوكِ، مَوْقِعُ أسماعهم، التي بها يَسْمعوُن، وأبصارهم التي بها يُبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون.

فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم، ولا نزعَ عنكم، ما أضفاهُ، مِنَ النِّعمةِ عليكم.

وليس أحد من أهلِ الصناعاتِ كلها، أحوجَ إلى اجتماعِ خلالِ الخير الحميدة، وخصالِ الفَضلِ المذكورة، المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب،

إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم.

فإن الكاتِبَ، يحتاجُ من نفسِه، ويحتاجُ منه صاحِبُه الذي يثق به في مُهماتِ أموره،

---

* رسالة إلى كاتب.

أن يكون حليماً في موضع الحِلم، فَهِماً في مَوضع الحكم، مِقداماً في مَوضع الإقدام، محجاماً في مَوضعِ الإحجام، مُؤثراً العَدْل والعفَاف والإنصاف، كتوماً للأسْرار، وفيّاً عند الشدائد، عالمِاً بما يأتي من النوازل.

يضعُ الأمورَ مواضِعَها، والطوارقَ أماكنها.

قد نظر في كل فنّ من فنونِ العِلم، فأحكمهُ، فإن لم يُحْكمهُ، أخذ بمقدار ما يكتفي به.

يَعرف بغريزةِ عقله، وحُسن أدَبِهِ وفضل تجربته، ما يَردُ عَليه، قبل ورُوده، وعَاقبة ما يَصْدُرُ عنه، قبل صُدُوره،

فيعِدُّ لكل أمر عُدّتَه وعتادَه ويهّيء لكل وَجه، هيئته وعادته.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيِّها ودَنيِّها، وسفسافِ الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مَفسَدَة للكتاب.

ونَزِّهوا صناعتكم عن الدناءات، واربأوا بأنفسكم عن السعايةِ والنميمة، وما فيه أهل الجهالات.

وإياكم، والكِبرَ والصلف والعظمة، فإنها عداوة من غير إحنة.

وإن نبا الزمان برَجُلٍ منكم، فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يَرْجِعَ إليه حاله، ويثوُبَ إليه أمرُه،

وإن أقعد أحدكم الكبر، عن مكسَبهِ ولِقاء إخوانه، فزوروه، وعظموه وشاوروهُ، واستَظهِروا بفضلِ تجربته، وقِدَم مَعْرفتهِ.

وليكن الرَّجلُ منكم، على من اصطنعه، واستظهرَ به، ليوم حاجتهِ إليه، أحفظ مِنه على وَلده وأخيه،

فإن عَرضت في الشغل محمدة، فلا يضيفُها إلا إلى صاحبه، وإن عُرضت مذمة، فليحملها هو من دونه.

وليحَذر السقطة والزلّة والمللَ عند تَغيُّرِ الحال،

فإن العَيْبَ، معشرَ الكتاب، أسرع إليكم مِنه الى الفِراء وهو لكم أفسد منه لها.

وقد علمتم أن الرّجلَ منكم إذا صَحِبهُ الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه،

فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، واحتماله، وصبْره، ونصيحته وكتمان سرِّه، وتدبير أمره، ما هو جزاءٌ لحقه، ويصدِّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه.

إذا وَليَ الرجُل منكم، أو صُيِّر له من أمر خلق الله وعيالِه أمرٌ،

فليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم مُنصفاً،

ثم ليكن بالعَدْل حاكماً، وللأشرافِ مُكرِّما، وللفيء موفِّراً وللبلاد عامراً، وللرعيةِ متألفاً، وعن إيذائهم متخلفاً.

وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً.

وإذا صحبَ أحدكم رجُلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرفَ حسنَها وقبيحها، أعانُه على ما يوافِقُهُ من الحَسَن، واحتالَ لصرفهِ عما يهواه من القبيح بألطفِ حيلة وأجمل وسيلة.

وقد علمتُم أن سائِس البهيمة، إذا كان بصيراً بسياستها، التمسَ معرفة أخلاقها،

فإن كانتْ رمُوحاً لم يُهِجها إذا ركبها،

وإن كانت شَبُوباً اتّقاها من قبل يديها،

وإن خافَ منها شروداً توقاها من ناحية رأسها،

وإن كانت حروناً قمع برفقٍ هواها في طريقها،

فإن استمرَّتْ عطفها يساراً فيسلُس له قيادُها.

والكاتبُ بفضل أدبه، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته، وتقويم أوَدِهِ، من سائِسِ البهيمة التي لا تحيرُ جواباً ولا تعرفُ صواباً، ولا تفهم خطاباً.

لا يجاوزَنَّ الرجلُ منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمهِ ومشربهِ وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حَقهِ.

استعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم، واحذروا متالِفَ السَّرف وسوءَ عاقبةِ الترف،

فإنهما يُعقبان الفقر ويُذلّانِ الرقاب.

*

(...) فإذا نظرتُ إلى شخصه* تحرك به وجدي، وظهر به سروري، وتعطفت عليه مني أنسة الولد، وتولت عني وحشة الوحدة،

فأنا به جَذِل في مغيبي ومشهدي.

أحَاوِلُ مَسَّ جسده بيدي في الظُّلم، وتارة أعانِقُهُ وأرشفُه.

ليس يعدِلهُ عندي عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب.

سرّني واهبُه على حين حاجتي، فشدّ به أزري وحمَّلني من شكره فيه ما قد آدني بثقل حِمْلِ النعم السالفة إليّ به المقرونةِ سراؤها في العَجب، بتاراتِ ما يُدركني به من رقة الشفقةِ عليه مخافة مجاذَبةِ المنايا إياه، ووجلاً من عواصفِ الأيام عليه.

*

في الخلاف ذهابُ كلِّ نِعمة، وتفرُّقُ كلِّ كرامة، ومحقُ كلِّ قِنية، وهلاك كلِّ سلامةٍ وألفة، وموتُ كلِّ عِزة وقوة، والدعاء بكلّ بلية، ومقارفة كلِّ ضلالة،

---

* قال هذا الكلام في أوّل مولود لأخ له.

واتباع كلِّ جهالة، وإحياء كلِّ بدعة، وإماتة كلِّ سنة، وإجلاب كلِّ ضرر على الأمة، وإدبار كلِّ منفعة وفناءُ كلِّ حق.

لا يزال بالمعصية والخلاف، دمٌ يراق بغير حقه، وطفل قد يُتِّم من أبيه، ومذلة قد دخلت، ونعمة قد زالت ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبتْ وسحْناء قد ظهرت، وأوتار قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر، وسبل قد قطعت وامرأة قد أُرملت، وعدد قد نقص، وبلايا قد عمت وشملت، وعدو قد شمت، ومنافق رفع إلى ما كان يؤمل رأسه، وعدو قويَ بعد ضعف، وعز بعد مذلة،

ورعية قد صاحت، وناعية قد ولولتْ، وحميم قد قتل حميمه، ومودة قد صارت عداوة، واجتماع مِنَ الأهواء قد عاد إلى فرقة وأرحام قد تقطعت.

*

إذا أراد الله إهلاك نملة أنبتَ لها جناحين.

*

خالِد بن صفوان*

(...) أتيَتُ ضيعتي لإبّان الغِراس وأوانِ العِمارة، فجُلت فيها جَولة حتى إذا صخدت الشمس، وأزمَعت بالرُّكود، مِلتُ إلى غُرفة لي هَفّافة، في حديقةٍ قد فُتِحت أبوابها، ونُفِحَ بالماء جوانبها، وفُرِشت أرضُها بألوانِ الرّياحين، من بين ضَمِران فائح، وأقحوانٍ زاهر، ووَرْدٍ ناضر.

ثم أتيتُ بخُبْزِ أرُزّ كأنه قِطعُ العقيق، وسَمك بُناني** بيض البطون، زُرق العيونِ، سوُدِ المتون، عِراض السُّرُد، غلاظ القَصَر، ودُقةٍ وخُلول، ومُرْيٍ وبُقول، ثم أتيِتُ برُطبٍ أصفَر، صافٍ غَير أكدر، لم تبتذله الأيدي، ولم يهشِمهُ كيلُ المكاييل.

*

لا تكون بليغاً حتى تكلم أمَتَك السوداء، في الليلةِ الظلماء، في الحاجةِ المهمة، بما تتكلم به في نادي قومك. فإنما اللسان عُضو إذا مرَّنْتَهُ مَرَن، وإذا أهملتَهُ خار، كاليدِ التي تُحسِّنُها بالممارسة، والبدَنِ الذي تقوِّيهِ برفع الحَجَر.

*

هشَمَتْك هاشم،*** وأمّتك أمية، وخزَمَتْك مخزوم، وأنتَ من عَبْدِ دارها، ومُنتَهى عارِها، تفتح لها الأبوابَ إذا أقبلتْ وتُغلقُها إذا أدْبَرتْ.

*

---

* من فصحاء العرب المشهورين، جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. أدرك خلافة السفاح. توفي سنة 133 هـ .

** بُناني: منسوب إلى بُنانة، محل في البصرة.

*** يهجو رجلاً.

تتقرى* عن قضبانِ اللجين، منظومةً باللؤلؤ الأبيض، وتصيرُ ذهباً أحمرَ منظوماً بالزّبرجد الأخضر، ثم تصيرُ عسَلاً في نِحاء معلقاً بالهواء، ثم تصيرُ وَرقاً في كيسِ الرِّجال.

*

- إنك جميل يا أبا صفوان.**
- كيف تقولين هذا، وما فيَّ عمودُ الجمال، ولا رداؤه، ولا بُرنسهُ.
- وما الجمال؟
- الطول، ولستُ بطويل، ورداؤهُ البياض، ولستُ بأبيض وبُرنسُه سوادُ الشعر، وأنا أشمط، ولكن قولي: إنك لمليح ظريف.

*

- ما منعك أن يكون عندك امرأة؟
- فابغني امرأة.
- أيَّ النساء تريد.
- بكراً كثيّب، وثيّباً كبكر. لا ضَرَعاً صغيرةً، ولا عجوزاً كبيرة. عاشت في نِعمْةٍ وأدركتْها حاجة. فخلقُ النعمةِ معها، وذُلُّ الحاجةِ فيها. وحسْبي من حَسَبِها أن تكون واسطةً في قومها. وحسْبي من جمالِها، أن تكونَ فخمةً من بعيد، مليحةً مِن قريب. إن عِشتُ أكرْمتُها، وإن مِتُّ ورثْتُها. لا ترفع رأسها إلى السماء رفعاً، ولا تضعهُ في الأرضِ وضعاً.
- يا أبا صفوان! الناس في طلب هذهِ منذ زمان حتى يبايعوها على الخلافة، فلا يقدرون عليها. فاسْلُ، فإنك حالِم.***

*

---

* يصف النخل.

** حِوار مع امرأة.

*** حِوار مع جعفر بن معاوية.

من لم يَبِنْ له سبَبُ دائه كثُرتْ ألوان دوائه.

*

إن جعلك الوالي أخاً فاجعلهُ سيداً، ولا يُحدثَنَّ لك الاستئناس به غفلة وتهاوناً.

*

ليست البلاغةُ بخفةِ اللسان ولا بكثرةِ الهذيان، ولكنها إصابةُ المعنى والقصد إلى الحجة.

*

قدِمْتَ فأعطيْتَ كلّاً بقسطه من وجهك وكرامتك، حتى كأنك لسْتَ من أحد أو حتى كأنك من كل أحد.*

*

سُئل عن أحبِّ إخوانه إليه فقال: من سدَّ خللي، وغفرَ زللي، وقبِلَ عِللي.

*

(...) ثم قام من بعده** أبو بكر، فانتضى السيوف من أغمادها، وأوقدَ النيران من شُعلها،
ثم ركب بأهل الحق أهلَ الباطل، فلم يبَرحْ يفصِل أوصالهم، ويسقي الأرض دماءهم،
حتى أدخلهم في الذي خرجوا عنه، وقرَّرَهُم بالذي نفرَوا منه.
ثم جاء بعده عمر بن الخطاب،
فمصّرَ الأمصار، وخلط الشدة باللين، وحَسَرَ عن ذراعيه وشمرَ عن ساقيْه

---

* خالد بن صفوان يخاطبُ والياً.

** من بعده: أي بعد النبي، من كلام خالد بن صفوان أمام الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وأعدّ للأمور أقرانها وللحرب آلتها،

ثُمَ والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظَلَّع.*

وأما أنتَ فإنك ابن الدُّنيا، ولدَتك ملوكها، وألقَمتك ثدْيَها،

فلما وُليتها ألقيتها حيث ألقاها الله.

فالحمدُ لله الذي جلا بك حوْبتَنا، وكشف بك كرْبَتنا.

امض ولا تلتفت فإنّه لا يذِلُّ على الحق شيء، ولا يعزُّ على الباطل شيء.

*

(...) أما أعظمهم** فخراً، وأبعدُهم ذِكراً، وأحسنُهم عُذْراً، وأسيرُهم مثلاً، وأقلهم غزَلاً، وأحلاهم عِللاً، الطامي إذا زخُر، والحَامِي إذا زأر، والسامي إذا خطر الذي إن هدر قال، وإن خطر صال،

الفصيحُ اللسان، الطويلُ العِنان، فالفرزدق.

وأما أحسنُهم نعتاً، وأمدحُهم بيْتاً، وأقلّهم فوتاً، الذي إن هجا وَضَع، وإن مَدحَ رفع، فالأخطل.

وأما أغزرهم بحراً، وأرقُّهم شِعْراً، وأهتكهم لعدوهِ سِتْراً، الأغرُّ الأبْلق، الذي إن طَلَبَ لم يُسْبَق، وإن طُلِبَ لم يُلحَق، فجرير.

وكلهم ذكيُّ الفؤاد، رفيعُ العماد، واري الزّناد.

*

---

* عندها قال له هشام بن عبد الملك وكان يسمعه: كذبْت.

** ابن صفوان يعطي رأيه في شعر الفرزدق والأخطل وجرير.

جعفر بن محمد*

سُئل ما طعمُ الماء، فقال: طعمُ الحياة.

*

يُهلك اللهُ سِتاً بست: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والتُجار بالخيانة، وأهل الرُّستاقِ بالجهل، والفقهاء بالحسد.

*

ريح الملائكة ريحُ الورد، وريحُ الأنبياء ريحُ السفرجل، وريحُ الحور ريحُ الآس.

*

من استغنى بالله، أحْوجَ اللهُ الناس إليه.

*

الناس أبناء الأرض إن أخصَبت أخصَبُوا، وإن أقحطت أقحطوا.

*

اللهم إنك للذي أنت له أهل من عفوك، أخقٌّ مني بالذي أنَا لهُ أهل من عقوبتك.

*

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنُفني بحفظك الذي لا يُرام، ولا أهلكُ وأنت رجائي فكم من نعمة أنعمتها عليّ، قلّ لك عندها شكري، فلم تحرِمني،
وكم من بلية ابتليْت بها قلَّ عندها صبري فلم تخذلني.

*

* جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر. توفي سنة 148 هجرية.

أربعة أشياء القليل منها كثير: النار، والعداوة، والفقر، والمرض.

*

- لا أجد بدّاً من النصاحة لك فاقْبلها إن شئت أوّلاً، يا أمير المؤمنين.
- وما ذاك؟
- إنه قد مضى لك ثلاثة أسلاف، أيّوب ابتُلي فصبر، وسليمان أُعطي فشكر، ويوسف قدر فغفرَ، فاقْتدِ بأيّهم شئت.
- لقد غفرت.*

*

لا تجاور ملكاً أو بحراً. فالملك يؤذيك والبحر لا يُرويك.

*

المدينة عشّ طار خياره وبقي شراره.**

*

صحبةُ عشرين يوماً، قرابة.

*

إذا أقبلت الدنيا على المرء أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبْته محاسن نفسه.

*

من أنصف من نفسه رُضي حكماً لغيره.

*

ما من شيء أسرّ إليّ من يد أتبعتها الأخرى، لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

*

---

* الكلام موجه إلى أبي جعفر المنصور.

** يقصد المدينة المنورّة.

ما يزال العزّ قلقاً حتى يأتي داراً قد استشعر أهلها اليأس مما في أيدي الناس، فيستوطنها.

*

البنات حسنات والبنون نِعمٌ، والحسناتُ يُثاب عليها، والنِّعم مسؤول عنها.

*

من استخفّ بك فأكرم نفسك عنه.

*

من أيقظ فتنة فهو أُكلها.

*

ما فتح عبدٌ على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر.

*

ثلاثة لا يزيد الله المرء المسلم بها إلا عزّاً: الصّفح عمّن ظلمه، والإعطاء لمن حرمه، والصّلة لمن قطعه.

*

مروءة الرجل في نفسه نسبٌ لعقبه وقبيلته.

*

خذ من حُسن الظنّ بطرف تروّح له قلبك وتروّح به أمرك.

*

مناغاة الصديق أعبث بالروح، وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق إلى الصّديق، ولا تفزع بحديث الصّديق إلى المعشوق.

*

لِنْ لمن يجفو، فقلّ من يصفو.

*

عبد الله بن الحسن *

ـ ما غمَّك يا بن رسول الله؟

ـ كيف لا أغتَمُّ وقد امتُحِنْتُ بأغلظ من محِنة ابراهيم خليل الله. ذاك أُمِرَ بذبح ابنه ليدخُل الجنة، وأنا مأخوذ بأن أحْضِرَ ابنيَّ ليُقتلا، فأدخل النار. **

*

يا بن عمٍّ، إذا أفرطتَ في قتل أكفائك فمن تُباهي بسلطانك؟ أو ما يكفيك منهم أن يروك غادياً رائحاً في ما يسرُّك ويسوءهم؟ ***

*

اعلم أنّ من أعظم الخطأ العجلة قبل الإمكان، والأناةَ بعد الفُرصةِ. احذَرِ الجاهلَ وإن كان لك ناصحاً كما تحذرُ عداوة العاقل إذا كان لك عدوًّا، فيوشِك الجاهل أن يورِّطك بمشورته في بعض اغترارك، فيسبق إليك مكرُ العاقل ومُوَرَّطُ الجاهل. وإياكَ ومعاداةَ الرّجال، فإنّه لا يعدمُك منهم مكرُ حليم ومفاجأة جاهل. ****

*

---

* الحسن بن علي، توفي سنة 140 هـ.

** الحادثة بينه وبين الخليفة المنصور وكان ولداه ضد الدعوة العباسية.

*** الكلام موجه إلى داود بن علي عم السفاح وكان قد أسرف في قتل بني أمية.

**** من وصية لولده.

عمر بن ذرّ*

ما مشيتُ بنهارٍ قَط إلا مَشَى خلفي**، ولا بليلٍ إلا مَشَى أمامي، ولا رَقِيَ سَطحاً وأنا تحته.

*

* عمر بن ذرّ بن عبد الله بن زرارة الحمداني المرهبي (... – 153 هـ)، من رجال الحديث، من أهل الكوفة.

** يشيرُ إلى ابنه.

الخليل بن أحمد الفراهيدي*

كنْ على مُدارَسَة ما في قلبك،
أحرصَ منك على حفظ ما في كتبك.
واجعلْ ما في كتبك رأسَ مالٍ، وما في صدركَ لِلنّفقة.

*

أحبّ أن أكون بيني وبين ربّي من أفاضلِ عباده،
وأكون بيني وبين الخليقة مِن أوْسطهم، وأكون بيني وبين نفسي من شَرّهم.

*

إذا خرجت من منزلي، لقيتُ أحدَ ثلاثة:
إمّا رجلاً أعلمَ مني بشيء، فذاك يوم فائدتي،
أو مثلي، فذاك يومُ مُذاكرتي،
أو دوني، فذاك يومُ ثوابي.

*

أكثِرْ من العلم لِتفهم، واخْتَرْ منه لِتَحفظ.

*

إذا أردت أن تعلمَ خطأ معلمك، فجالِس غيرَه.

*

* الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي (100- 170 هـ).

أثْقَل ساعاتي عليّ، ساعةٌ آكل فيها.

*

أنا أوّل مَنْ سَمّى الأوعية ظروفاً، وإنما قِيل للإنسان ظرْف، وهو ظريفٌ، لحفظهِ الأدب.

*

كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى عبد الله بن المقفع، وكان عبد الله يحبّ ذلك، فجمعهما عباد بن عباد المهلبي، فتحادثا ثلاثة أيامٍ ولياليهنّ، ثم افترقا. فقيل للخليل:

ـ كيف رأيت عبد الله؟

قال:

ـ ما رأيتُ مثله قط. وعلمه أكثرُ من عقله.

وقيل لابن المقفّع:

ـ كيف رأيت الخليل؟

فقال:

ـ ما رأيتُ مثله قط. وعقلهُ أكثر من علمه.

*

شيخ من المدينة*

الغناء من أكبر اللذاتِ، وأسرُّ للنفوس من جميع الشهوات.

يُحْيي القلب، ويزيد في العقل ويُسرُّ النَفس، ويَفْسَح في الرأي، ويتيسّر به العسير، وتفتح به الجيوش، ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفُسَهم عند استماعه،

ويُبرئ المرضى ومن ماتَ قلبهُ وعقله وبصرهُ،

ويزيدُ أهل الثروَة غِنى، وأهلَ الفقِرِ قناعة ورضا باستماعه، فيعزفون عن طلب الأموال.

من تمسَّكَ بهِ كان عالِماً ومن فارقهُ كان جاهِلاً، لأنهُ لا منزلةَ أرفعُ ولا شيء أحسَنُ منه فكيف يُستَصوَبُ تركه، ولا يستعان به؟

*

---

* قال الشيخ كلامه في مجلس جميلة المغنية المشهورة. كانت سيدة الغَناء في زمنها. وجميلة من مغنيات العصر الأموي. كان عمر بن ربيعة من مستمعيها وكذلك عبد الله بن جعفر.

عبد الله بن محمد بن علي*

إذا عَظُمت المقدِرة قلّت الشهوة.
وقلَّ تبرُّع إلا ومعه حقٌّ مضاع.

*

إذا كان الحِلمُ مفسدة كان العفو معْجزة.
والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

*

من شدّد نفّر، ومن لان تألّف، والتغافل من سجايا الكرام.

*

ما أعدكم شيئاً**، ولا أوعدكم إلا وفيت بالوعد والإيعاد. والله لأعملنَّ اللين حتى لا تنفع الشدة، ولأغمدنَّ سيفي إلا في إقامة حدٍّ أو بلوغ حق، ولأعطينَّ حتى أرى العطية ضياعاً ومنها:

لا نضيّع لأحدٍ منكم حقاً، ولا نجمِّركم في بعث، ولا نخاطر بكم في قتالٍ، ولا نبذلكم دون أنفسنا. والله شهيد عليَّ بالوفاء والاجتهاد، وعليكم بالسمع والطاعة.

*

الضغينة القديمة تولّد العداوة الممضّة وتحملُ على إظهار المسالمة، وتحتها الأفعى التي إذا تمكنت لم تبق.

*

---

* ابن عبد الله بن عباس. أول الخلفاء العباسيين. لُقّب بالسفاح توفي سنة 136 هـ.

** من خطبه.

لئن بقيتُ لأرفعنَّ منك وضيعاً، لا تطيف به السباع، ولا ينحطُّ عليه العقاب.*

*

---

* الكلام موجه إلى أبي بكر الهذلي وكان هذا الأخير يحدِّث السفاح بما يسرُّه.

عبد الله بن المقفع*

لست أقود جيشاً،
ولا أتقلد حرباً، ولا أشير بسفك دم.
عثرة الحرب لا تستقال، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان.**

*

القلبُ أسْرعُ تقلّباً من الطرْف.

*

الإصرارُ وِعاءٌ لِلذنوب.

*

مَن أهْلكَ نفسه في مَرْضاة غيره، عظمت جنايتُه.

*

أكثِر محادثةَ من يصدقُكَ عن عيوبك.

*

كنْ في الحْرِص على معرفة عيوبكَ، بمنزلة عدوّكَ في معرفة ذلك.

*

الهمُّ مَرَضُ العَقل.

*

---

* ابن داذويه، المقفّع. رماه خصومه بالزندقة. قتِل في عهد المنصور (أبو جعفر) سنة 142 هـ.

** مخاطباً عبد الله بن علي.

لا يتمّ حسنُ الكلام إلا بحسن العمل. كالمريض الذي علم دواءَ نفسه: فإذا هو لم يَتَداوَ بهِ، لم يُغْنهِ علِمه.

*

رأسُ العَقلِ المعرفة بما يكونُ وما لا يكون. وطيبُ النّفس حسْنُ الانصراف عَمّا لا سبيل إليه.

*

الظفَرُ بالحزم، والحَزْمُ بإجالة الرأي، والرأيُ بِتكرار النظر وبِتَحْصين الأسرار.

*

مِن أشدّ عيوب الإنسان خفاءُ عيوبهِ عليه. فإنّ من خَفِيَ عليه عيبهُ، خفيت عليه محَاسِنُ غيره.

*

أكثر محادثة من يصدقك عن عيوبك.

*

أقل ما لتاركِ الحسد في تركه،

أن يصرف عن نفسه عذاباً ليس بمدرك به حظاً، ولا غائظٍ به عدواً.

فإنا لم نرَ ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحاسد:

طول أسفٍ، ومحالفة كآبة، وشدة تحرّق.

ويكدّر على نفسه ما به من النّعمة فلا يجد لها طعماً، ولا يزال ساخطاً على من لا يترضاه،

ومتسخّطاً لما لن ينال فوقه،

فهو منغص المعيشة، دائم السّخطة، محروم الطلبة، لا بما قُسِمَ له يقنع، ولا على ما لم يُقسم له يغلب.

والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسّرور، منتفعاً به، مهملاً فيه إلى مدةٍ، ولا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص.

*

مَثَلُ قليل مضار السلطان* في جَنْبِ كثير منافعه، كمثلِ الغيث الذي هو سقيا الله، وبركة السماء، وحياة الأرض، ومَنْ عليها.

وقد يتأذى به السَّفْر، ويتداعى له البنيان، وتدرُّ سيوله فيهلك الناس والدواب، ويموج له البحر، وتكون فيه الصواعق. فلا يَمْتنِع الناس إذا نظروا، إلى آثار رحمة الله، في الأرض التي أحياها لهم، والنبات الذي أخرجه، والرزق الذي بسطه:

من أن يُعظِّموا نعمة ربهم، ويشكروها، ويُلغوا ذكر خواصّ البلايا، التي دخلت على خواصّ الخلق.

وكمثل الرياح التي يُرسلها الله، بُشْراً بين يديْ رحمته،

يسوق بها السحاب ويجعلها لقاحاً للأشجار، ورَوْحاً للعباد، ويتنسمون منها، ويتقلّبون فيها، وتجري مياههم وفلكهم، وتقِدُ نيرانهم بها.

وقد تُضِرُّ بكثير من الناس، في برِّهم وبحرهم، فيشكوها الشاكي، ويتأذّى بها المتأذِّي،

فلا يزيلها ذلك عن منْزِلتها التي جعلها الله بها، وقدّرها سبباً لقوام عباده، وتمام نعمته.

ومثل الشتاء والصيف، والليل والنهار، وما فيها من قليل المضار، وكثير المنافع،

ولو أن الدنيا، كانت كلها سواءً، وكانت نعماؤها من غير كدّ وميسورها من غير معسور،

---

* يتحدّث عن السلطان.

لكانت الدنيا، إذاً، هي الجنة التي لا يشوب مسرتها مكروه.

*

(...) ومما يُنظر فيه لصلاح أهل الجُند، أن لا يولَّى أحدٌ منهم شيئاً من الخراج،

فإن ولاية الخراج، مفسدة للمقاتلة. ولم يزل الناس، يتحامون ذلك منهم، وينتحونه عنهم،

لأنهم أهل دالّة، ودعوى بلاء.

وإذا كان جلّاباً للدراهم والدنانير، اجترأ عليهما.

وإذا وقع في الخيانة، صار كل أمره مدْخولاً: نصيحته أو طاعته،

مع أن ولاية الخراج، داعية إلى ذلةٍ وعقوبةٍ وهوان،

وإنما منزلة المقاتِل، منزلة الكرامة واللطف.

*

(...) فإنا سمعنا فريقاً من الناس يقولون: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فبنوا قولهم هذا بناءً معوجّاً، فقالوا: إن أمرنا الإمامُ بمعصية الله، فهو أهلٌ أن يُعصى، وإن أمرنا الإمام بطاعة الله، فهو أهل أن يطاع.

فإذا كان الإمام يُعصى في المعصية، وكان غير الإمام يطاع في الطاعة، فالإمام ومَنْ سواه على حقِّ الطاعة سواء. وهذا قولٌ معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلعِ الطاعة، والذي فيه أمنيته لكي يكون الناس نظائر، ولا يقوم بأمرهم إمام، ولا يكون على عدوهم منهم ثِقل.

*

ثم لو أنَّ الدين جاء من الله، لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي والأمر وجميع ما هو وارد على الناس، وحادث فيهم، إلا جاء فيه بعزيمة،

لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيّقَ عليهم في دينهم، وأتاهم ما لم تتسع أسماعهم لاستماعه، ولا قلوبهم لفهمه، ولحارت عقولهم وألبابهم.

ولكانت لغواً لا يحتاجون إليها في شيء، ولا يعملونها إلا في أمرٍ قد أتى به تنزيل.

ولكن الله، منَّ عليهم بدينه الذي لم يكن يسعه رأيهم،

ثم جعل ما سِوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي، وجعل الرأي إلى ولاة الأمر ليس للناس في ذلك الأمر شيء،

إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة، والنصيحة بظهر الغيب.

*

أما من يدعي لزوم السنّة، فيجعل ما ليس سنّةً سُنّة حتى يبلغ به ذلك، إلى أن يسفك الدم الحرام، بغير بيّنةٍ ولا حجّة، على الأمر الذي يزعم أنه سنّة.

وإذا سُئلَ عن ذلك، لم يستطع أن يقول: هُرِيقَ فيه دمٌ على عهد رسول الله، أو أئمة الهدى من بعده.

وإذا قيل له: أيّ دمٍ سُفِكَ على هذه السنّة التي تزعمون؟

قال: فعل ذلك عبد الملك بن مروان، أو أمير من بعض أولئك الأمراء.

وإنما يأخذ بالرأي، فيبلغ به الاعتزام، على رأيه، أن يقول في الأمر الجسيم، من أمر المسلمين، قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين.

ثم لا يستوحش لانفراده بذلك، وإمضائه الحكم عليه، وهو مصر أنه رأي منه، لا يحتج بكتاب ولا سنّة.

*

تعلّمْ العلمَ ممن هو أعلم به منك، وعلّمه من أنت أعلم به منه.

فإذا فعلت ذلك علِمتَ ما جهلت، وحفظت ما علمت.

*

إني مخبرك عن صاحب لي،
كان أعظم الناس في عيني،
وكان رأس ما عظمه في عيني،
صغر الدنيا في عينيه.
كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهى ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وَجد،
وكان خارجاً من سلطان فَرْجه، فلا يدعو إلى ريبة، ولا يستخف رأياً.
وكان لا يأشَرُ عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة.

وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلَم، ولا يماري فيما عَلِم.

وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعةٍ.

وكان أكثر دهره صامتاً فإذا نطق بزّ القائلين. وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً فإذا جدّ الجدُّ، فهو الليث عادياً.

وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مِراء، ولا يُدلي بحجة، حتى يَرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله، حتى يَعلَم ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يَرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو منه النصيحة.

وكان لا يتبرم، ولا يتسخط ولا يتشكى، ولا يتشهّى.

وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه، دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

*

(...) فقائلهم باغٍ، وسامعهم عيّاب*.

سائلهم متعنت ومجيبهم متكلف.

وواعظهم غير محققٍ لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف.

ومستشيرهم غير موطِّن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه، ومصطبر للحق مما يسمع.

ومستشارهم غير مأمونٍ، على الغش والحسد، مهتاك للستر، مؤثِّر للهوى.

والأمين منهم، غير متحفظٍ من ائتمان الخونة.

والصدوق غير محترسٍ من حديث الكذبة.

وذو الدين غير متورِّعٍ عن تفريط الفجرة.

يتقارضون الثناء، ويترقبون الدول، ويعيبون بالهمز.

يكاد أحزمهم رأياً، يلفته عن رأيه أدنى الرضا، وأدنى السخط.

ويكاد أمتنهم عوداً أن تسحره الكلمة، وتسكِره اللحظة.

وقد ابتليت أن أكون قائلاً، وقد ابتليتم أن تكونوا سامعين.

ولا خير في القول، إلا ما انتُفِعَ به، ولا يُنْتفع إلا بالصدق،

ولا صِدْق، إلا مع الرأي،

ولا رأي إلا في موضعه وعند الحاجة إليه.

*

(...) أما سؤالكم عن الزمان، فإن الزمان الناس، والناس رجلان: والٍ، ومولّى عليه،

والأزمنة أربعة على اختلاف أحوال الناس.

---

* الكلام على الناس.

فخيار الأزمنة، ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم في الرد عنهم، والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم، والاختيار لحكامهم وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم في معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الحق لهم، والعدل في القسمة بينهم.

ثم الزمان الذي يليه: أن يصلح الإمام نفسه، ويفسد الناس ولا قوة، بالإمام، مع خذلان الرعية ومخالفتهم.

والزمان الثالث: صلاح الناس وفساد الوالي. وهذا دون الذي قبله، فإن لولاة الناس يداً في الخير، والشر، ومكاناً ليس لأحد. وقد عرفنا في ما يعتبَرُ به، أن ألف رجلٍ كلهم مُفْسِدٍ وأميرهم مُصلِح، أقل فساداً من ألف رجل، كلهم مصلح، وأميرهم مفسد، والوالي إلى أن يصلِح الله به الرعية أقرب من الرعية، إلى أن يُصلِح الله بهم الوالي.

وشر الزمان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية، وتلك كارثة، لم يتقادم عهد كونها ولم تقف عنكم آثارها.

*

(...) وإنما صاحب العلم، يقوم بالعمل، لينتفع به،

وإن لم يستعمِل ما يعلَم، لا يسمى عالِماً.

ولو أن رجلاً كان عالِماً بطريق مخوف ثم سلكه على عِلم به، سمّي جاهلاً،

ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواءً هجمت بها في ما هو أعرَف بضررها فيه، وأذاها، من ذلك السالك في الطريق المخوف، الذي قد جهله.

ومن ركب هواه، ورفض ما ينبغي أن يُعمل، بما جرّبه هو، أو أعلمه به غيره، كان كالمريض العالم، برديء الطعام والشراب، وجيده، وخفيفه وثقيله.

ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة، والتخلص من علته.

وأقل الناس عذراً، في اجتناب محمود الأفعال، وارتكاب مذمومها مَنْ أبصر ذلك وميزه، وعرف فضل بعضه على بعض.

كما إنّه لو أنّ رجلين، أحدهما بصير، والآخر أعمى، ساقهما الأجل إلى حفرةٍ فوقعا فيها، كانا إذا صارا في قاعها بمنزلةٍ واحدة،

غير أن البصير، أقل عذراً، عند الناس من الضرير.

*

(...) فلمّا تحرّزت من تصديق ما لا يكون*، ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في مهلكة،

عُدت إلى طلب الأديان، والتماس العدل منها.

فلم أجد عند أحدٍ ممن كلمته جواباً في ما سألته عنه فيها، ولم أر في ما كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي، أن أصدق به، ولا أن أتبعه.

فقلت لما لم أجد ثقةً آخذ منه الرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي، الذي وجدتهم عليه.

فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد،

لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقةً،

بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان، والمسألة عنها، وللنظر فيها،

فهجس في قلبي، وخطر على بالي، قرْبُ الأجل، وسرعة انقطاع الدنيا، واعتباط أهلها، وتخرّم الدهر حياتهم.

ففكرت في ذلك، فلما خفت من التردد والتحول رأيت أن لا أتعرض لما أتخوف منه المكروه،

---

* من مقدّمة كتاب «كليلة ودمنة» والكلام في الشكّ.

وأن أقتصر على عملٍ تشهد النفس، أنه يوافق كل الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل،

وطرحت نفسي عن المكروه والغضب والسرقة، والخيانة والكذب والبهتان والغيبة،

وأضمرت في نفسي أن لا أبغي على أحد ولا أكذِّب بالبعث ولا القيامة، ولا الثواب ولا العقاب.

وزايلت الأشرار بقلبي، وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدي.

ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين، ووجدت مكسبه، إذا أعان الله، يسيراً ووجدته يدل على الخير، ويشير بالنصح، فِعْل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه، بل يزداد جدةً وحُسناً، ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصِبَه،

ولا من الماء أن يغرِقه،

ولا من النار أن تحرقه،

ولا من اللصوص أن تسرقه،

ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزقه.

*

لا يُقْذَفَنّ في روعك أنك إن استشرت الرجال، ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فيقطعنّك ذاك عن المشاورة،

فإنك لا تريد الرأي للفخر به، ولكن للانتفاع به.

ولو أنك أردت الذكر، كان أحسنُ الذكر، عند الألباء، أن يقال: لا يتفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه.

*

ـ أي الأمم أعقل؟* قلنا: لعله أراد أصله من فارس، فقلنا: فارس.

ـ ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من المُلك، وغلبوا على كثيرٍ من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حِكَمٍ في نفوسهم.

ـ الروم.

ـ أصحاب صنعةٍ.

ـ فالصين.

ـ أصحاب طُرْفةٍ.

ـ فالهند.

ـ أصحاب فلسفةٍ

ـ فالسودان.

ـ شرُّ خلقِ الله.

ـ فالترك

ـ كلاب مختلسة.

ـ فالخزر.

ـ بقر سائمة.

ـ فقُلْ.

ـ العرب ـ فضحكنا،

ـ أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة: إن العرب قد حكمت على غير مثالٍ مثِّلَ لها، ولا آثارٍ أُثِرَت. أصحاب إبل وغنم، وسكان شعرٍ وإدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل

* قال شبيب بن شيبة (مع جماعة) سألنا عبد الله بن المقفع: أي الأمم أعقل؟ فكان هذا الحوار.

بمجهوده. ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله، فيكون قدوةً، ويفعله فيصير حجةً. ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح. أدّبتهم أنفسهم، ورفعتهم همتهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم.

*

عمل الرجل بما يعلم أنه خطأ، هوىً،

والهوى آفة العفاف. وتركه العمل بما يعلم أنه صواب، تهاون،

والتهاون آفة الدين. وإقدامه على ما لا يعلَم، أصواب هو أم خطأ، لجاج،

واللجاج آفة الرأي.

(...) فلينظر امرؤ أين يضع نفسه،

فإن لكل امرئٍ لم تدخل عليه آفة، نصيباً من اللب،

لا يحب أن له به الدنيا ثمناً.

وليس كل ذي نصيبٍ من اللب بمستوجبٍ أن يُسمى في ذوي الألباب،

ولا أن يوصف بصفاتهم.

فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلاً،

فليأخذ له عتاده، وليُعد له طول أيامه، وليؤثره على أهوائه، فإنه قد رام أمراً جسيماً، لا يصلح على الغفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الأثرة.

وليس كسائر أمور الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها، التي قد يدرك منها المتواني، ما يفوت المثابر،

ويصيب منها العاجز، ما يخطئ الحازم.

*

العاقل ينظر فيما يُؤثَر، فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه، فلا يجعل اتقاءه لغير الخوف، ولا رجاءه في غير المُدرك.

*

من نصب نفسه إماماً في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطُّعمة والرأي واللفظ والأخدان،

فيكون تعليمه بسيرته، أبلغ من تعليمه بلسانه.

فإنه كما أن كلام الحكمة يونِق الأسماع، فذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب،

ومعلِّم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال والتفضيل، من معلِّم الناس ومؤدبهم.

*

لا يمنعنك صِغر شأن امرئٍ من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً،

واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً،

فإن اللؤلؤة الفائقة لا تُهان لهوان غائصها الذي استخرجها.

*

لا يُستكمل علمُ الأشياء بالعقل الفرد.

*

من العلم أن تَعلم، بأنك لا تعلَم ما لا تُعلَّم.

*

حق العاقل أن يتخذ مرآتين،

فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه، فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها،

وينظر من الأخرى في محاسن الناس، فيحلِّيهم بها ويأخذ ما استطاع منها.

*

لا يوقعنّك بلاءٌ تخلّصت منه في آخر، لعلك لا تخلص منه.

*

الورع لا يَخْدَع، والأريب لا يُخدَع.

*

من حاول الأمور احتاج إلى ستٍّ:

الرأي والتوفيق،

والفرصة،

والأعوان،

والأدب والاجتهاد،

وهنَّ أزواج:

فالرأي والأدب زوج، لا يكمل الرأي بغير الأدب ولا يكمل الأدب بغير الرأي،

والأعوان والفرصة زوج، لا ينفع الأعوان إلا عند الفرصة ولا تنفع الفرصة إلا بحضور الأعوان.

والتوفيق والاجتهاد زوج، فالاجتهاد سبب التوفيق، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد.

*

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك، فإنما هو أحد رجلين:

إن كان رجلاً من إخوان الثقة، فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشرٍّ يكفه عنك، أو لعورة يسترها منك أو غائبة يطلع عليها لك.

وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك،

فبأي حقٍّ تقطعه عن الناس،

وتكلفه ألا يصاحب أو يجالس إلا من تهوى.

*

اللئام أصبر أجساداً،

والكرام أصبر نفوساً،
وليس الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وقاحاً على الضرب، أو رجله قويةً على المشي، أو يده قويةً على العمل.
فإنما هذه من صفات الحمير،
ولكن الصبر المحمود بأن يكون للنفس غلوباً،
وللأمور محتملاً،
وفي الضر متجملاً،
ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً،
وللحزم مؤثراً،
وللهوى تاركاً،
وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً،
ولنفسه على مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً،
ولبصره بعزمه منفِّذاً.

*

من العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبِّه ورأيه،
يرى المرأة من بعيد متلففةً في ثيابها،
فيصور لها في قلبه الحسن والجمال،
حتى تعلق بها نفسه، من غير رؤيةٍ ولا خبر مُخْبر.
ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمِّ الدمامة،
فلا يعظه ذلك ولا يقطعه عن أمثالها،
ولا يزال شغوفاً بما لم يذق،
حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأةٍ واحدة، لظنَّ لها شأناً، غير شأن ما ذاق،
وهذا هو الحمق والشقاء والسَّفه.

*

لا تجالسْ امرأً بغير طريقته،
فإنّك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم،
والعيّي بالبيان،
والجافي بالفقه،
لم تزد على أن تضيّع عقلك وتؤذي جليسك.

*

إن رأيتَ نفسكَ تصاغرتْ إليها الدنيا، أو دعتكَ إلى الزهادة فيها، على تعذّرٍ منها عليك،
فلا يغرنك ذلك من نفسك، على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة ولكنها ضجرٌ واستخذاء.
(...) ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا وهي مقبلةٌ عليك، فأسرع إلى إجابتها.

*

إنّي وجدت الأمور التي اختصَّ بها الإنسان، من بين سائر الحيوان، أربعة أشياء،
هي جماعُ ما في العالم،
وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل.
العلم والأدب والروية داخلةٌ في باب الحكمة،
والحِلْمُ والصبر والوقار، داخلة في باب العقل،
والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العدل،
وهذه هي المحاسن.
وأضدادها، وهي المساوئ.
فمتى كمُلتْ هذه في واحدٍ لم يخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من دنياه،

ولا إلى نقص في عقباه،
ولم يتأسف على ما لم يُعن التوفيق ببقائه،
ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه،
ولم يُدْهَش عند مكروه،
فالحكمة كنز لا يَفْنى على الإنفاق،
وذخيرة لا يُضرب لها بالإملاق،
وحُلة لا تخلقُ جدتها،
ولذة لا تصرَم مدتها.

*

من لم يقبل من ناصحه ما يثقل عليه، لم يُحمد رأيه، كالمريض الذي يَدع ما يبعث له الطبيب، ويَعمِد إلى ما يشتهيه،
وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة،
وخير الأعمال أحمدها عاقبةً،
وخير الثناء ما كان على لسان الأخيار، وخير الأخلاق أعْوَنُها على الورع.

*

ومن ذا الذي غالب القدر،
ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً فلم يبطر،
ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يُحْرَم،
ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلِمِ؟

*

كنتُ أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب،

فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء.

*

اصحب الصاحبَ إذا كان عاقلاً كريماً،

أو عاقلاً غير كريم،

أو كريماً غير عاقل.

فالعاقل الكريم كامل،

والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله،

والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك،

والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق.

*

لا شيء أضيع من مودةٍ تُمنَح من لا وفاء له،

وحباءٍ يصطنع عند من لا شكر له،

وأدبٍ يُحمَل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه،

وسرٍّ يستودَع عند من لا يحفظه.

فإن صحبة الأخيار تورث الخير،

وصحبة الأشرار تورث الشر،

كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً،

وإذا مرت بالنتن حملت نتناً.

*

لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه، كالمسك يُخبَأ ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح.

الرجل ذو المروءة يكرَم على غير مال، كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً،

والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنياً، كالكلب يهون على الناس وإن عسَّ وطوّف.

المودة بين الصالحين سريع اتصالها، بطيء انقطاعها كآنية الذهب التي هي بطيئة الانكسار، هينة الإعادة،

والمودة بين الأشرار، سريع انقطاعها، بطيء اتصالها، كآنية الفخار يكسرها أدنى شيء ولا وصْلَ لها.

*

لسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول،

وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل،

ولسنا بالكد في طلب المتاع، بأحق منا بالكد في طلب العلم.

*

لا يثبت دين المرء على حالةٍ واحدة أبداً، ولكنه لا يزال إما زائداً وإما ناقصاً.

*

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرِّغه للمهم،

وأن مالك لا يغني الناس كلهم فاختص به ذوي الحقوق... وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخَّ بها أهل الفضائل،

وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك، وإن دأبتَ فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك.

*

السلطان لا يقرِّب الرجال على قُرب آبائهم،
ولا يباعدهم لبعدهم،
ولكنه يُنْزِلهم على قدْر ما عند كل امرئ منهم في ما يُنتَفَع به.

*

إذا جُعِل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنقَ للمسمع.

*

الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم.

*

ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم،
وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريد الحق،
وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بك في العجز عن أهل الفضل،
وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة.

*

لا تخلطنَّ بالجدِّ هزلاً وبالهزل جداً،
فإنّك إن خلطتَ بالجدّ هزلاً هجّنته،
وإن خلطتَ بالهزل جداً كدّرته.

*

إيّاك أن تكافئ عداوة السرِّ بعداوة العلانية، وعداوة الخاصّة بعداوة العامة.

*

لا تعجّل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي.

*

كثرة المنُى تُخلق العقل، وتطرد القناعة، وتُفسد الحس.

*

الإفراط في التواضع يوجب المذلة، والإفراط في المؤانسة يوجب المهانة.

*

عمرو بن عبيد*

- ما البلاغة؟**

- ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصَّرك مواقع رشدك وعواقب غيّك.

- ليس هذا أريد.

- من لم يُحْسِن أن يَسكت، لم يُحسن أن يَستمِع، ومن لم يُحسن الاستماع، لم يحسن القول.

- ليس هذا أريد.

- كانوا يخافون، من فتنة القول، وسقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت، ومن سقطات الصمت.

- ليس هذا أريد.

- فكأنك تريد تخيُّرَ اللفظ، مع حُسْنِ الإفهام؟

- نعم.

*

---

* من شيوخ المعتزلة، وأحد الزهاد المشهورين. له أخبار مع الخليفة المنصور. توفي بمران سنة 144 هـ. رثاه المنصور. قالوا: لم يُسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

** كان قد سئل عن البلاغة.

ابن أبي ليلى*

ـ رأيتك قد فعلت عجباً!**

ـ ما هو؟

ـ رأيتك قد أخذت رمانةً من حمّالٍ وأعطيتها سائلاً.

ـ وإنك ممن يقول هذا القول؟ أما علمت أني أخذتها وكانت سيئة، وأعطيتها فكانت عشر حسنات.

ـ أما علمت أنك أخذتها، فكانت سيئة، وأعطيتها فلم تُقبل منك.

*

---

* محمد بن عبد الرحمن. وَليَ القضاء لبني أميّة ثم لبني العبّاس، كان فقيهاً مضيِّقاً بالرأي. توفي سنة 148 هـ.

** يحاور رجلاً سرق رمّانة.

الأعمش*

- يا بنية ما تنظرين في وجهي؟
- أتعجب من رضا أمي بك.

*

- أتشجُّ بعصاك رجلاً وأنت محرم؟
- إن من تمام الإحرام، شجَّ الجمَّال.**

*

- رأيناك تسرع الدخول في بابك ثم تسرع الخروج؟
- رأيتكم فأبغضتكم، فدخلت إلى من هو أبغض منكم فخرجت.

*

- أنتَ تكثِر الشك؟
- تلك محاماة عن اليقين.

*

---

* سليمان بن مهران الأسدي، ولد سنة 63 هـ. تابعي مشهور. عالم فقيه محدث، مات سنة 148 هـ.

** شجّ جمّالاً بعصاه في الإحرام وكان الجمال قد ضايقه.

أبو جعفر المنصور*

يا ابن هبيرة**،

إنك امرؤٌ، متعدٍّ طورك،

جارٍ في عنان غيِّك، يعدك الله ما هو مصدِّقه،

ويمنِّيك الشيطان بما هو مكذِّبه،

ويقرِّب ما الله مباعده، فرويداً يتم الكتاب أجله،

وقد ضربت مثلي ومثلك:

بلغني أن أسداً لقي خنزيراً، فقال الخنزير:

ـ قاتلني.

ـ لست لي بكفء، ولا نظير، ومتى فعلت الذي دعوتني إليه فقتلتك، قيل لي: قتلت خنزيراً، فلم أعتقد بذلك، فخراً ولا ذكراً. وإن نالني منك شيء كان سبةً علي.

ـ إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع، فأعلمتها أنك نكِلْت عني، وجبنت عن قتالي.

ـ احتمال عار كذبك خير من تلطخ شاربي بدمك.

*

أيها الناس لا تنفِّروا أطراف النعمة بقلة الشكر، فتحلَّ بكم النقمة.

---

* عبد الله بن محمد بن علي، بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. توفي سنة 158 هـ.

** رسالة كتبها إلى عمر بن هبيرة، أحد ولاة بني أمية، وكان قد تحدى المنصور في مبارزة.

ولا تسرُّوا غشّ الأئمة فإن أحداً لا يسرّ منكم، إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه، وطوالع نظره.

وإننا لا نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا.

ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه خبيئ هذا الغمد.

*

من صنع مثل ما صُنع إليه فقد كافأ،
ومن أضعف كان شكوراً،
ومن شكر كان كريماً.

*

لا تلتمس من غيرك شكر ما أسديته إلى نفسك.

*

ليس العاقل من يتحرّز من الأسر الذي يقع فيه، حتى يخرج منه،
إنما العاقل من يتحرز من الأمر الذي يخشاه، حتى لا يقع فيه.

*

عقوبة الحكماء التعريض، وعقوبة السفهاء التصريح.

*

(...) إنما أنا سلطان الله في أرضه،
أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وخازنه على فيئه، أعمل فيه بمشيئته وأقسمه بإرادته،
وقد جعلني الله عز وجل قفلاً عليه،
إذا شاء أن يفتحني فتحني وإن شاء أن يقفلني أقفلني.*

*

---

* من خطبة له بمكة.

إذا مدّ عدوّك يده إليك فاقطعْها إن أمكنك، وإلا فقبِّلها.

*

لو عرف إبليس أن أحداً بعد النبي أفضل من علي بن أبي طالب لأغرى الناس بنقضه وحطِّه من منزلته.

*

إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه،
وأمير المؤمنين مشفق عليك، فاكتف بالبلاغة.*

*

فكر العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه.

*

أقدر الناس على العقوبة أقدرهم على العفو،
وأعجز الناس من ظلم من هو دونه.

*

(...) إن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب،
تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير.
فقام فيها علي بن أبي طالب، فتلطخ،
فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه.
ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل. قد عُرِضت عليه الأموال فقبلها،

---

* جواب على رجل بليغ طلب منه مالاً.

فدسّ إليه معاوية: إني أجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه، فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه.

ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق، وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن، فخذلوه وأسلموه حتى قُتِل.

ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغرّوه، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه.

ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا،

وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها.

فنفونا من البلاد، فصرنا مرةً بالطائف،

ومرةً بالشام،

ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعةً وأنصاراً، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم.*

*

- صدق القائل: أجعْ كلبك يتبعك.

- كلّا. فربما يلوّح له غيرك برغيف، فيتبعه ويدعك.

منع خيرك يدعو إلى صحبة غيرك.

- صدقت.**

*

* يخاطب أهل خراسان.

** حوار بين المنصور وبعض جنده.

المهدي*

- يا هذا، هل أسأت إليك؟
- لا ولكني مللتك.
- أو لم أتولَّ منذ شهرين؟
- أو لم يكن في ذلك ما يُمَلّ؟ إني
لأملّ كنيتي، فأغيّرها في الشهر مرتين.**

*

إني قد وليتك ستر وجهي وكشفه،
فلا تجعل الستر بيني وبين خواصي سبب ضغنهم علي بقبح ردك، وعبوس وجهك، فإنهم أولى بالتقدمة.
وثنِّ بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا وصلوا فيه أعجلهم ضيقه عن التلبث، وحثك لهم عن التمكث.***

*

اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم،
واحفظ فينا دعوة نبينا،
وإن كنت أخذت العامة بذنبي،
فهذه ناصيتي بيدك.****

*

---

* محمد بن عبد الله المهدي ثالث الخلفاء العباسيين، توفي سنة 164 هـ.

** حوار بين المهدي ورجل.

*** يخاطب حاجبه.

**** دعاؤه عندما هبت ريح سوداء خاف منها الناس.

الهادي*

يَسُرّك وهو بليّة وفتنة،
ويحزنك وهو ثوابٌ ورحمة؟**

*

ـ يا سفيان*** تفرّ منا ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك. فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

ـ إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر يفرِّق بين الحق والباطل.

فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟

فقال له: اسكت ويلك، ما يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم. اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة، على أن لا يُعتَرض عليه في حكم.****

*

---

* موسى بن محمد المهدي بن المنصور. تولى الخلافة سنة 169 هـ. قتلته أمه الخيزران خنقاً بواسطة جواريها لأنه حاول منعها من التدخل في الحكم وقد خُنق عام 170 هـ. وكانت ولادته سنة 144 هـ.

** عبارة عزّى فيها رجلاً عن ابن له.

*** الكلام موجّه إلى سفيان الثوري.

**** قيل: إن سفيان الثوري ألقى العهد في دجلة ولم يعثَر عليه بعد ذلك.

محمد بن الليث*

(...) أنبئوني عمّا اجتمعت عليه النصرانية،** وذهبت إليه بهم المعاني، من تشقيق الكلام، وتعريف الكتب: أحروف تتعسفونها، أم لغة تعرفونها؟

فإن قالوا: إنهم بغير لغةٍ يتكلمون، فهم إذن قوم يلعبون.

وإن قالوا: إنهم يتكلمون بلغة معروفةٍ، ومعانٍ معلومةٍ،

فقل: أخبروني عن قولكم: أب وابن، أهما ما تعترف العقول من المنطق، ويقع في القلوب من المعنى، أم لا؟

فإن قالوا: لا ليس ذلك بالذي تذهب أوهام العباد إليه، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه،

إنما هو كقول الله، عز وجل في التوراة لإسرائيل: «وبكري» لا يعني ولادة الرحم، وكقول المسيح للحواريين: «أنتم إخوتي» لا يعني أخوة النسب،

فذلك قول، لا يجدون معه بداً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام، عبداً.

وإن قالوا: بل هو ما تجري به ألسن العباد، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة، والأبوة المعلومة، فليخبرونا متى كان الأب والداً والابن مولوداً؟ أقبل الولادة، أم بعدها؟

فإن قالوا: قبلها رجعوا عن القول الأول، بتثبيت الأبوة،

---

* أبو الربيع، محمد بن الليث، فقيه، مترسل، بليغ، واعظ. كتب للرشيد. توفي سنة 170 هـ.

** من رسالة كتبها ابن الليث بإيعاز من الرشيد إلى قسطنطين السادس، ملك الروم، (في الأب والابن وروح القدس).

إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام.

ولابد إذا سقطت الولادة المعروفة، وبطلت الأبوة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن، اسمان علّقا على غير معنى، ونَسَبان أضيفا على غير حق، فيقرون أن عيسى خلِقَ مثلهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم.

وإن قالوا: إنما كان الابن مولوداً، والأب والداً، بعد الولادة، فقد أقروا بأن الابن حدث مخلوق، وعبدٌ مربوب،

لقولهم: إنه لم يكن حتى وُلِد، ولم يُولد حتى خُلِق.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد ولكن بعضه أب، وبعضه ابن، وبعضه روح القدس،

فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم،

وقالوا في التبعيض بما هو كفرٌ قبلَهُم.

وإن قالوا: ليس مبعضاً ولا مجزّأً ولا محدوداً، ولا ثلاثة متباينين،

فإذاً هم قوم يلعبون. يقولون: الأب ابن، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل!

وهذا من أبين المحال، وأخلف مقال، وليس من المنطق، ما لا يوجد في لغة عربٍ ولا عجم، ولا لسان أمةٍ من الأمم.

وإنما أرسل الله عز وجل، كل نبيٍّ بلسان قومه، ليبين لهم، ولولا ذلك لما فهمت الأمم، مذاهب أقاويل الرسل، ولا معاني أحاديث الكتب،

فلا تطع الذي يلعبون بأنفسهم، ويتكلمون بغير لغتهم، ويقولون: الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وهذا محال في مجاري العقول، ومعاني الفعال.

واعلم أن الشيء، أصله واحد وأجزاؤه كثيرة،

كالإنسان هو أصل يجمعه جسم، وله أجزاء، تلزمها أسماء، ليس الأصل بالجزء، ولا الجزء بالأصل،

ولكن الجزء بعض الأصل، فإذا أردت الجزء قلت: يد الإنسان، وسمع الإنسان.

ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ، مبعض لما جاز هذا القول فيه، ولا دخل هذا المثل عليه.

وكذلك الشمس، الأصل واحد، وهي شمس، والأجزاء كثيرة وهي: عين الشمس، وضوء الشمس، وشعاع الشمس، ودقيقها وغليظها وحرورها، وأعلاها، وأسفلها. وأشباه ذلك.

فلئن قلت: سمّيت كل جزء، على حياله، من الأجزاء، إنساناً وكل جزءٍ من الشمس، دون أصله شمساً،

ونسبت فعل الأصل إلى بعض أجزائه،

وتركت أن تنسب الأصل فاعلاً، ببعض الأجزاء،

كما تقول: بسط الإنسان بيده، ومشى برجله، ونظر بعينه،

ثم ضربت ذلك لله عزَّ وجلَّ، مثلاً، وجعلت الله له قياساً، فقلت: الأصل واحد، وهو الله، والأجزاء كثيرة، وهي: أب وابن، وروح القدس،

وكل جزء منها إله على حياله ورب دون غيره،

لم تجد بداً من أنْ تلحق العين واليد والنفس، بالأب والابن وروح القدس،

فتكثِّر آلهتك وتحدِّ ربك، وتترك قولك: إن الله ليس محدوداً، ولا مجزأً ولا مبعضاً،

إلا أن يكون، إنما تريد، مذاهب الأسماء فتقول: المعنى واحد، وهو الله، والأسماء: أب وابن وروح القدس.

فإن كنت تقول هذا، وكنت إنما تعبد أسماءً،

فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول: إنها آلهة على حيالها، حتى تقول باسم: ارحمني وبثانٍ: اغفر لي.

فاتقوا الله، يا أهل الكتاب،

فإن الله عز وجل، ليس بأبٍ، ولا ابنٍ، ولا اسمٍ،

ولكن له الأسماء الحسنى، فادعوه بها،

وذروا الذين يلحدون في أسمائه،

سيجزون ما كانوا يعملون.

*

ابن السماك*

لولا ثلاث لم يقع حيف، ولم يسلَّ سيف:
لقمة أسوغ من لقمة،
ووجه أصبح من وجه،
وسلك أنعم من سلك.
وليس كل واحدٍ له هذه القوة، ولا فيه هذه المنة.
والإنسان بشر،
وبنيته متهافتة،
وطينته منتشرة.
وله عادة طالبة،
وحاجة هاتكة،
ونفس جموح،
وعين طموح،
وعقل طفيف،
ورأي ضعيف.
يهفو لأول ريح،
ويستحيل لأول بارق.

*

* أبو العباس محمد بن صبح الكوفي الزاهد الواعظ المشهور، توفي سنة 183 هـ بالكوفة.

الله المستعان على ألسنٍ تصف،
وقلوبٍ تعترف،
وأعمالٍ تختلف.

*

يدرك النمام بنميمته
ما لا يدركه الساحر بسحره.

*

الدنيا كالعروس المجلوة تشوفت لخطابها وفتنت بغرورها، فالعيون إليها ناظرة،
والقلوب عليها والهة،
والنفوس لها عاشقة،
وهي لأزواجها قاتلة.

*

لو قال العبد: يا رب لا ترزقني،
لقال الله: بل أرزقك على رغم أنفك، ليس لك خالق غيري، ولا رازق سواي،
إن لم أرزقك فمن يرزقك؟

*

من عرف الناس داراهم،
ومن جهلهم ماراهم،
ورأس المداراة ترك المماراة.

*

إنـي أتيتك في حاجة،

وإن الطالب والمطلوب منه عزيزان إن قضيت الحاجة، ذليلان إن لم تقضـها،

فاختر لنفسك عز البذل على ذل المنـع،

واختر لي عز النجح على ذل الرد.

*

- كيف سمعت كلامي؟

- حسن لولا أنك ترddه.

- أردده كي يفهمه من لم يفهمه.

- إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه مَن فهمه.

*

(...) إن أهل الزهد في الدنيا تعجلوا الراحة على أبدانهم مع يسير الحساب غداً عليهم.

وإن أهل الرغبة فيها تعجلوا التعب على أبدانهم مع ثقل الحساب غداً عليهم.

الرغبة تعب لصاحبها في الدنيا والآخرة.

*

رحمك الله* ما كان أعجب شأنك،

ألزمت نفسك الصبر حتى قومتها،

أجعتها وإنما تريد شبعها،

وأظمأتها إنما تريد رِيَّها.

* من رثائه لداوود الطائي، الزاهد المعروف.

أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه،

وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه.

أما كنت تشتهي من الطعام طيبه ومن الماء بارده،

ومن اللباس لينه؟ بلى.

فما أيسرَ ما ضيّعت،

وأحقر ما فعلت في جنب ما أمَّلْتَ.

كنت تسهر ليلك والناس نائمون،

وكنت تربح إذ الناس يخسرون.

*

هارون الرشيد*

لمّا دخَل الرّشيد منبج، قال لعبد الملك بن صالح:

ـ أهذا البلدُ منزلك؟

قال:

ـ هو لكَ، ولي بكَ.

ـ كيف بناؤكَ به؟

ـ دون منازلِ أهلي، وفوق منازلِ غيرهم.

ـ كيف صِفةُ مدينتكَ هذه؟

ـ عَذْبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء.

ـ كيف ليلها؟

ـ سَحَرٌ كله.

ـ صدقتَ، إنها طيبة.

ـ لكَ طابَت، وبكَ كملت، وأين بها عن الطيب، وهي تربة حمراء، وسنبلة سمراء، وشجرةٌ خضراء.

فَيافٍ فِيح، بين قَيْصومٍ وشيحْ.

*

---

* هارون الرشيد بن محمد المهدي ولد سنة 148 هـ. تولى الخلافة سنة 170 هـ. توفي سنة 193 هـ.

أطال الله يا أخي مدّتك، وأدام نعمتك،
والله ما منعني من إتيانك إلا التطير من عيادتك فاعذر أخاك، فوالله ما قلاك ولا سلاك، ولا استبدل بك سواك.*

*

(...) ونحن نعلم أن الشريف والسيد، والأديب والأريب قد تكون عنده العقيلة من بنات عمه، ونساء قومه، وأكفائه،
فتخطر عليه شهوته، وتملك عليه أمره،
وهي أقبح من السحر، وأسمج من القرد، وأهرّ من الكلب، وأشد تعدّياً من الليث العادي،
فيريد شراء جاريةٍ أو تزوج حرةٍ،
فلا يقدر على ذلك لمكانها،
حتى يستريح إلى مثل هذا من الفتيان ويغشى منزل أمثاله من الأحرار،
فيجعله سكنه، فيساعده على حاجته،
ويسعى له في ما يحب من لذته،
ويستره بمنزله.
اكتبوا في إطلاقه والسؤال عن حاله، فإنه كما ذكر عنه من الستر،
وكان صادقاً في ما حكى عن نفسه من الفعل،
أعين على مروءته، وأمن من روعته وعَرَف ما أمرنا به فيه.**

*

* كتاب منه إلى الفضل بن يحيى.

** قال هذا الكلام في رجل جعل بيته مكاناً لتسهيل الزواج بين المتحابين فوشي به إلى الخليفة مع اتهام له بالفساد فلما ثبت له براءته جاء بهذا الرد على الناس.

أما بعد، فقد كان لكم ذنب،
وكان لنا عتب.
وكان منك اصطلام،
وكان منا انتقام.
وعندي بعد هذا،
التنفيس عن المكروبين،
والتفريج عن المغمومين،
والإحسان إلى المحسنين،
والتغمد لإساءة المسيئين.
وألا يكفر لكم بلاء،
ولا يُحبس عنكم عطاء،
وعلي بذلك الوفاء.*

*

يا عبد الملك، أنت أحفظ منا،
ونحن أعقل منك.
لا تعلّمنا في ملإٍ،
ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلاء.
واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال،
فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزد.
وإياك والبدار إلى تصديقنا،
أو شدة العجب بما يكون منا

---

* يخاطب قوماً.

وعلّمنا من العلم ما نحتاج إليه، على عتبات المنابر،

وفي أعطاف الخطب،

وفواصل المخاطبات.

ودعنا من رواية حوشيٍّ الكلام، وغرائب الأشعار. وإياك وإطالة الحديث،

إلا أن نستدعي ذلك منك،

ومتى رأيتنا صادفين عن الحق فأرجعنا إليه ما استطعت، من غير تقريرٍ بالخطأ، ولا إضجارٍ بطول الترداد.*

*

---

* الكلام موجه إلى عبد الملك بن قريب (الأصمعي) المتوفى سنة 216 هـ. قال الأصمعي: أنا إلى حفظ هذا الكلام أحوج مني إلى كثير من البِرّ.

يحيى بن خالد البرمكي*

ما تَقَرب إليَّ مَن أعطاني فوق حقّي.

*

انظروا في سائر العلوم، فإنّ من جهل شيئاً عاداه، وأكره أن تكونوا أعداءً لشيءٍ من العلوم.

*

ما رأيت أحداً إلا هبتُه حتى يتكلم. فإذا تكلم كان بين اثنتين: بين أن تزيد هيبتُه، أو تضمحل.

*

اكتبوا أحسنَ ما تسمعون، واحفظوا أحسنَ ما تكتبون، وتحدّثوا بأحسنِ ما تحفظون.

*

مَن بلغَ رتبةً فتاه بها، خَبَّر أنَّ محله دونَها.

*

المواعيدُ شِبَاكُ الكِرام، يصيدون بها مَحامِدَ الإخوان.

*

ما أحدٌ رأى في ولده، ما أحب، إلا رأى في نفسه ما يكره.

*

خيرٌ لمن اسْتَغْنى عن السلطان ألا يفتقر إليه، فإنّ ذلك ألذُّ له في دنياه، وأسْلَمُ له في آخرته.

*

---

* ينتمي إلى أسرة البرامكة في زمن هارون ابن الرشيد في العصر العباسي الأول.

أبو العاص محمد بن عبد الوهاب*

(...) فإن جلوسك إلى الأصمعي،

وعُجبك بسَهل بن هارون، واسترجاحك إسماعيل بن غزوان، وطعنك على مويس بن عمران، وخلطتك بابن مشارك، واختلافك إلى ابن أبي التوأم،** وإكثارك من ذكر المال وإصطلاحه، والقيام عليه، واصطناعه،

وإطنابك في وصف الترويج والتثمير وحسن التعهد والتوفير، دليل على خبيئ سوء،

وشاهدٌ على عيبٍ وإدبار،

بعد أن كنت، تستثقل ذكرهم، وتستشنع فعلهم، وتتعجب من مذهبهم، وتسرف في ذمهم.

وفي استحسان رواية الأصمعي في أن أكثر أهل النار، النساء والفقراء،

وأن أكثر أهل الجنة، البله والأغنياء،

وأن أرباب الدثور، هم الذين ذهبوا بالأجور،

برهان على صحة حكمنا عليك، ودليل على صواب رأينا فيك.

الحمد لله الذي لم يمتني،

حتى أرانيك وكيلاً في مالك،

وأجيراً لوارثك.

---

* سري من سراة البصرة ذكره صاحب الأغاني والجاحظ في البخلاء. والرسالة في ذم البخل.

** الأسماء المذكورة معروفة في العصر العباسي وأصحابها مزامنون للجاحظ.

وأما انت فقد تعجلت الفقر قبل أوانه، وصرت كالمجلود، في غير لذة.

وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله،

ورأى المكروه في عياله،

وظهر فقره وشمت به عدوه، على أكثر من انصراف المؤنسين عنه، وعلى بغض عياله،

وعلى خشونة الملبس، وجشوبة المأكل؟

ألا إنَّ المنفق، قد ربح المحمدة، وتمتع بالنعمة، ولم يعطل المقدرة ووفى كل خصلة من هذه حقها، ووفر عليها نصيبها. والممسك معذَّب بحصر نفسه، وبالكد لغيره مع لزوم الحجة، وسقوط الهمة، والتعرض للذم والإهانة. ومع تحكيم المرة السوداء في نفسه وتسليطها على عرضه، وتمكينها من عيشه وسرور قلبه.

ولقد سرى إليك عرق، ولقد دخل أعراقك جور. ولقد عمل فيها قادح، ولقد غالها غول.

(...) ولم نر الأمة أبغضت جواداً قط، ولا حقرته، بل أحبته وأعظمته، وأعظمت من أجله رهطه.

ولا وجدناهم أبغضوا جواداً، لمجاوزته حد الجود إلى السرف، ولا حقرته، بل وجدناهم يتعلمون مناقبه، ويتدارسون محاسنه، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجميل، ما لم يفعله.

ونحلوه من غرائب الكرم، ما لم يكن يبلغه.

ولذلك زعموا: أن الثناء في الدنيا، يضاعَف كما تضاعَف الحسنات في الآخرة. نعم. وحتى أضافوا إليه كل مديحٍ شارد، وكل معروفٍ مجهول الصاحب؛

ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم، للبخيل على ضد هذه الصفة وعلى خلاف هذا المذهب،

وجدناهم يبغضونه مرةً،

ويحقرونه مرةً،

ويبغضون بفضل بغضه ولده،

ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه،

ويضيفون إليه من نوادر اللؤم ما لم يبلغه ومن غرائب البخل ما لم يفعله،

وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء،

بقدر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثناء.

وعلى أنّا لا نجد الجوائح إلى أموال الأسخياء، أسرع منها إلى أموال البخلاء،

وما رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقل.

والبخيل عند الناس، ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط. فقد يستحقّ عندهم اسم البخيل من لا يدع لنفسه هوىً إلا ركبه، ولا حاجةً إلا قضاها، ولا شهوةً إلا ركبها، وبلغ فيها غايته. وإنما يقع عليه اسم البخيل إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر، ونوّه بالذكر، وادخر الأجر.

وقد يعلِّق البخيل على نفسه من المؤن، ويلزمها من الكلف، ويتخذ من الجواري والخدم، ومن الدواب والحشم، ومن الآنية العجيبة، ومن البزة الفاخرة والشارة الحسنة، ما يربي على نفقة السخي المثري ويضعُف على جود الجواد الكريم،

فيذهب ماله وهو مذموم ويتغير حاله وهو ملوم.

*

الأمين*

أيها الناس، يا بني العباس،
إن المنون مرصد ذوي الأنفاس، حتم من الله لا يدفَع حلوله ولا ينكر نزوله،
فارتجعوا قلوبكم من الحزن على الماضي إلى السرور بالباقي،
تجزون ثواب الصابرين، وتعطَون أجور الشاكرين.

*

الناس جميعاً آمنون إلا أصحاب الأهواء.

*

قال لكاتبه: دع الإطناب والزم الإيجاز،
فإن للإيجاز إفهاماً،
كما أن مع الإسهاب استبهاماً.

*

إن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور وكشف الحُرم،
ولست آمن أن يطمع في هذا الأمر السحيق البعيد،
لشتات ألفتنا، واختلاف كلمتنا،
وقد رضيت أن تكتب لي أماناً، لأخرجَ إلى أخي به،
فإن تفضّل عليّ فأهْلٌ لذلك وإن قتلني فمروة كسَرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة،
ولأن تفترسني السَّبُع أحبُّ إليَّ من أن تَنْبحني الكلاب.**

*

---

* محمد بن هارون الرشيد ولد سنة 170 هـ. وبويع له بالخلافة سنة 193 هـ وقتل سنة 198 هـ.

** كتاب أرسله إلى طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون.

بشر بن المعتمر*

(...) خذ من نفسك، ساعة نشاطك** وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة، أكرم جوهراً وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع،

وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل لفظٍ شريف ومعنىً بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك، مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة، والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة.

ومهما أخطأك، لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه، ونجم عن معدنه.

فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلةٍ، وتعصّى عليك بعد إجالة الفكرة،

فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك،

فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق.

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغلٍ عرض ومن غير طول إهمال، فعليك بالتحول، من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك.

---

* هو زعيم فرقة البشرية من المعتزلة، ومن وجوه المتكلمين، وأفاضل علماء المعتزلة. توفي سنة 210 هـ.

** درسٌ في الكتابة.

فإنك لم تشتهه ولم تتازع إليه، إلا وبينكما نسب،
والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله.
وإن كانت المشاكلة، قد تكون في طبقات،
فإن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة،
ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع المحبة والشهوة.

*

لأن يكون أبو الهذيل* لا يعلم، وهو عند الناس يعلم أحب إليه من أن يَعلم، وهو عند الناس، لا يعلم.

ولأن يكون من السفلة، وهو عند الناس من العلية أحب إليه من أن يكون من العلية، وهو عند الناس من السفلة.

ولأن يكون نبيل المنظر، سخيف المخبَر أحب إليه من أن يكون نبيل المخبَر، سخيف المنظر.

وهو بالنفاق أشد عجباً منه بالإخلاص، ولَباطلٌ مقبول أحب إليه من حقٍّ مدفوع.

*

إذا كان العقل تسعة أجزاء، احتاج إلى جزء من الجهل، ليقوم على الأمور،

فإن العاقل أبداً متوانٍ متوقف، مترقب، متخوف.

*

* الكلام على أبو هذيل العلّاف أحد متكلّمي المعتزلة. كانا مختلفين في الرأي.

سهل بن هارون*

(...) كانوا يقولون:** إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً، فإنه، إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

وأول العيب، أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى مرشداً، وأن تغري بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم.

ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما اخطأنا سبيل حُسن النية، في ما بيننا وبينكم.

ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم، إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهرنا به في الآفاق دونكم.

عبتم عليَّ قولي: من لم يَعرِف مواقع الشرف في الموجود والرخيص، لم يَعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي.

وعبتموني حين ختمت على سدٍّ عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهةٍ نفيسةٍ، ومن رطبةٍ غريبة على عبدٍ نهمٍ وصبيٍّ جشعٍ، وأمةٍ لكعاء، وزوجةٍ خرقاء.

---

* أبو عمرو، أصله من «دست ميسان = دستيمسان» من بلاد فارس جاء إلى البصرة، فاتصل بعلمائها، ثم اتصل بالمأمون، وتولى خزانة الحكمة «دار الكتب». توفي سنة 215 هـ.

** مختارات من رسالة كتبها إلى بني عمته آل راهبون دفاعاً عن البخل، وكانوا قد رموه به.

وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة، أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل،

التابعُ والمتبوع، والسيد والمسود،

كما لا تستوي مواضعهم في المجالس،

ومواقع أسمائهم في العنوانات،

وما يُستقبلون به من التحيات.

وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف؟

وعبتموني بخصف النعال،

وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى، وأوطأ وأقوى، وأنفى للكبر وأشبه بالنسك.

وعبتموني حين قلت: لا يغترّن أحدكم بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يرى نحوه، أكثر ذريته، فيدعوه ذلك إلى إخراج ما له من يديه، وتحويله إلى مِلْكِ غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه،

فلعله يكون معمراً وهو لا يدري، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يُرزق الولد على اليأس،

أو تخنو عليه بعض مخبآت الدهور، مما لا يطرأ على البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده،

ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه.

وعبتموني بأن قلت: إن كسب الحلال، يضمن الإنفاق في الحلال،

وإن الخبيث ينزع إلى الخبيث،

وإن الطيب يدعو إلى الطيب،

وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق،

وإن الإنفاق في الحقوق حجاب دون الهوى.

وعبتموني حين زعمت أني أقدِّم المال على العلم،

لأن المال به يفاد العلم، وبه تقوَّم النفوس، قبل أن تعرِف فضل العلم،

فهو أصل، والأصل أحق بالتفضيل من الفرع.

وعبتموني حين قلت:

إن فضل الغنى على القوت، إنما هو، كفضل الآلة، تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عدةً.

وقد قال الحضين بن منذر*:

وددت لو أن لي مثل أحدٍ ذهباً، لا أنتفع منه بشيء،

قيل: فما ينفعك من ذلك؟

قال: لكثرة من كان يخدمني عليه، لأن المال مخدوم.

وقد قال بعض الحكماء:

عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك منه، إلا أنه عزٌّ في قلبك، وذلٌّ في قلب عدوك، لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع فيه عظيماً.

فلستم عليَّ تردون، ولا رأيي تفندون. فقدّموا النظر، قبل العزم وتذكروا ما عليكم، قبل أن تذكروا ما لكم.

*

---

* الحضين بن منذر: صاحب راية الإمام علي بصفين.

عمرو بن سعدة*

(...) فإنك** ممن إذا غرس سقى،
وإذا أسس بنى،
ليستتمَّ تشييد أسِّه،
ويجتني ثمار غرسه.
وثناؤك عندي قد شارف الدروس،
وغرسك مُشْفٍ على اليبوس،
فتدارك بناء ما أسست وسقْي ما غرست.

*

إن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنةً وفساداً.

*

النفس بالصديق آنس منها بالعشيق.

*

الودّ أعطف من الرحم.

*

ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما أو فضل أحدهما.

*

---

* اتخذه المأمون جليساً ومستشاراً حتى قيل كان عنده بمرتبة وزير. توفي في عهد المأمون سنة 217 هـ. عرف بحكمته وبلاغته.

** كتاب إلى الحسن بن سهل أحد وزراء المأمون.

إخوان السّوء كشجر النار يحرقُ بعضه بعضاً.

*

العتاب حياة المودّة.

*

القريب بعيد بعداوته، والبعيد قريب بمودته.

*

لا تأمنن عدوك وإن كان مقهوراً،
واحذره وإن كان مفقوداً،
فإن حدّ السيف فيه وإن كان مغموداً.

*

لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفؤاده عليهما،
ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطرائك في وجهك،
فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب، سريعاً إلى الذم.

*

عروة وعفراء*

قبل أن يهلك حزام ترك ابنه عروة صغيراً في حجر عمِّه عقال بن مُهاجر. وكانت عفراء تِرْباً لعُروةَ، يلعبان جميعاً، ويكونان معاً، حتى ألف كل واحد منهما صاحِبَه إلفاً شديداً. وكان عِقال يقول لعُروة، لمِا يرَى من إلفِهما: أبشِرْ، فإن عفراءَ امرأتك.

فكانا كذلك حتى لحِقت عفراءُ بالنساء، ولحِقَ عُروةُ بالرجال. فأتَى عُروةُ عمّةً له يقال لها: هِندُ بنتَ مُهاجر، فشكا إليها مابهِ من حُبِّ عفراء، وقال لها: يا عمةُ، إني لأكلمك وأنا منك مُسْتح، ولكن لم أفعل هذا حتى ضِقْتُ ذرعاً بما أنا فيه.

فذهبتْ عمتُه إلى أخيها فقالت له: يا أخي قد أتيتُك في حاجة، أحِبُّ أن تُحسِنَ فيها الردَّ، فإن الله يأجُرك بصلةِ رحمك، في ما أسألك.

فقال لها: قولي، فلن تسألي حاجة إلا ردَدْتكِ بها. قالت: تزوِّج عُروةَ ابن أخيك، بابنتك عفراء. فقال: ما عنه مذهَب، ولا هُوَ دون رجُلٍ يُرغبُ فيه، ولا بنا عنه رغبة.

ولكنه ليس بذي مال، وليسَت عليه عَجَلة. فطابَتْ نفسُ عروة، وسكن بعض السكون.

---

* أثبت هذا النص للتعرف على الأسلوب الروائي في العصر الأموي، بالإضافة إلى الموقف الذي وقفه زوج عفراء من عروة، وعروة بن حزام بن مُهاجِر بن ضبة بن عبد كبير بن عُذرة.

وكانت أمُّها سيئة الرأي فيه، تريدُ لابنتها ذا مالٍ ووفر، وكانَتْ عُرضةً لذلك، كمالاً وجمالاً.*

فلما تكاملت سِنُّهُ، وبلغَ أشدَّه، عرفَ أن رجُلاً من قومه، ذا يسَار ومال كثير يخطبها.

فأتى عمَّه فقال: يا عمّ، قد عرفت حقي وقرابتي، وأني وَلدُك ورُبِّيتُ في حجرك وقد بلغني أن رجُلاً يخطب عفراء، فإن أسعفتَهُ بطلبَتهِ قتلتني وسفكتَ دمي فأنشدُك الله، ورحمي وحقي.

فرقَّ له وقال: يا بُنيَّ أنتَ مُعْدِم، وحالنُا قريبة من حالك، ولستُ مخرجها إلى سواك، وأمُّها قد أبَتْ أن تزوِّجها الا بمَهر غال، فاضطربْ واسترزق.

فجاء إلى أمها فلاطفها وداراها، فأبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر وبعد أن يسوق شطرَهُ إليها، فوعدها بذلك.

وصارَ في ليلة رحيله إلى عفراء، فجلس عندها ليلة، هُوَ، وجواري الحي، يتحدَّثون حتى أصبحوا،

ثم ودَّعها ودّعَ الحيَّ وشدَّ على راحلته، وصحِبَهُ في طريقه فتيان من بني هلالِ ابنِ عامر كانا يألفانِهِ، وكان حيّاهُما متجاوريْن، وكان في طول سفره ساهياً يكلمانه فلا يفهم، فِكرةً، في عفراء، حتىَّ يُرَدَّ القولُ عليه مراراً،

حتى قدِمَ على ابن عمه، فلقِيَهُ وعرّفَهُ حالهُ وما قدِمَ له، فوصَلهُ وكساه، وأعطاه مائةً من الإبل، فانصرف بها إلى أهله.

وقدْ كان رجُل من أهل الشام، من أسياد بني أميَّة نَزَل في حيٍّ عفراء، فنَحرَ ووهبَ وأطعم، وكانَ ذا مالٍ عظيم، فرأى عفراء، وكان منزله قريباً من منزلهم، فأعجبته وخطبَها إلى أبيها، فاعتذرَ إليه وقال:

---

* أي أن عفراء تستحق ذلك لكمالها وجمالها.

قد سميتها الى ابن أخ لي يعدِلُها عندي، وما إليها لغيره من سبيل.

فقالَ لـه: إنـي أرغبُكَ فـي المهر، فقال: لا حاجَـةَ لـي بذلك. فعدَل إلـى أمها، فوافق عندها قُبولاً، لبذلـهِ ورغبـةً فـي مالـه، فأجابتْـهُ ووعدتـه، وجاءت إلى عِقالٍ، فآذَتْه، وصَخِبَت معه وقالتْ:

أيُّ خيرٍ فـي عُروة، حتـىَّ تحبَس ابنتـي عليـه وقد جاءها الغنـيُّ يطـرقُ عليها بابها؟ واللهِ ما نـدْري أعُروةٌ حـيٌّ أم ميت؟ وهل ينقلبُ إليك بخير، أم لا؟ فتكونُ قد حَرْمتَ ابنتك خيراً حاضِراً ورزْقاً سنياً، فلم تَزَلْ بـهِ، حتـى قال لها: فإن عادَ لي خاطِباً أجبتُه.

فوجَّهَتْ إليه أن عُدْ إليه خاطِباً، فلما كانَ من غدٍ نحرَ جُزُراً عِدَّة وأطعَم ووهبَ وجمعَ الحيَّ معه على طعامه، وفيهم أبو عفراء.

فلما طَعِموا أعاد القول في الخطبة، فأجابَه وزوجهُ، وساق إليه المهر، وحُوِّلت إليه عفراء.

فلما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام فيهم ثلاثاً، ثم ارتحلَ بها إلـى الشّام.

وعَمَدَ أبوها إلى قبر عتيق فجدّدَهُ وسوّاهُ، وسأل الحي كِتْمانَ أمرها.

وقَدِمَ عُروة بعد أيام، فنعاها أبوها إليه، وذهبَ به إلى ذلك القبر.

فمكث يختلف إليه أياماً، وهو مُضنى هالك، حتى جاءتـهُ جارية من الحيّ، فأخبرتهُ الخبر.

فتركهم وركب بعض إبله، وأخذ معه زاداً ونفقة، ورحَل إلى الشام فقَدِمها وسألَ عن الرُّجُل فأخْبِرَ به، ودُلّ عليه.

فقصده وانتسبَ لـه إلى عدنان، فأكرَمـهَ وأحسنَ ضيافته. فمكث أياماً، حتى أنِسوُا به، ثم قال لجارية لهم: هل لكِ في يَدٍ تُوْلينيِها؟ قالت: نعم. قال: تدْفعين خاتَمي هذا إلى مولاتك. فقالت:

سوءةً لك، أما تستحي لهذا القول؟ فأمسك عنها، ثمَ أعادَ عليها وقال لها: وْيحَك، هِي واللهِ بنتُ عَمي، وما أحد مِنا، إلا وهو أعزُّ على صاحبه من الناسِ جميعاً، فاطرحي هذا الخاتم في صبوحها،

فإذا أنكرَت عليك فقولي لها: اصطبحَ ضيفُك قبلك ولعلهُ سقط منه. فرقَّتِ الأمَة وفعلتْ ما أمرها به.

لما شربتْ عفراءُ اللبن، رأتِ الخاتَم فعرفَتْه، فشهقت. ثم قالت: اصدُقيني عن الخبر فصدقَتها. فلما جاء زوجُها قالت له: أتدري من ضيفك هذا؟ قال: نعم، فلان بن فلان للنسب الذي انتسبَ إليه عروة، فقالت:

كلا واللهِ يا هذا، بل عروة بن حزام ابن عمي، وقد كتم نفسهُ حياءً منك.

ثُم بعث اليه فدعاه، وعاتَبهُ على كتمانِه نفسَهُ إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتُك الله إن رمت هذا المكان أبداً.

وخرجَ وتركهُ مع عفراء يتحدثان، وأوْصَى خادماً له بالاستماع إليهما. فلما خَلَوَا، تشاكيا ما وجَدا بعد الفِراق، فطالتِ الشكوى، وهو يبكي أحرَّ بُكاء. ثم أتَتْهُ بشرابٍ، وسألتهُ أن يشرَبه، فقال: واللهِ ما دخَلَ جوفي حرامٌ قط، ولا ارتكبتهُ مُنذ كنت، ولو استحَللتُ حراماً لكنت قد استحَللتُه منك، فأنتِ حظيٍّ من الدُّنيا وقد ذهبْتِ مني، وذهَبْتُ بعدك فما أعيش.

وقد أجملَ هذا الرَجلُ الكريمُ وأحسن، وأنا مستح منه، وواللهِ لا أقِيمُ بعد علمه مكاني وإنيٍّ عالِمٌ أني أرحل إلى منيتي. فبكتْ وبكى، وانصرف.

فلما جاء زوجها أخبرهُ الخادم بما دارَ بينهما، فقال: يا عفراء، امنعي ابنَ عَمِّك من الخروج.

فقالت: لا يمتنع، هو والله أكرمُ وأشدُّ حياءً من أن يُقيم، بعدما جَرَى بينكما.

فدعاهُ فقال له: يا أخي، اتّقِ اللهَ في نفسك، فقد عَرفْتُ خبرك. وإنك إن رحَلت تلفت. والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً. وإن شئتَ لأفارقنّها

ولأنزلنَّ عنها لك. فجزاه خيراً وأثنى عليه. وقال: إنما كان الطمعُ فيها آفتي، والآن وقد يئست، وقد حَملتُ نفسي على اليأس، والصبر، فإن اليأسَ يُسْلي.

ولي أمور، ولا بُدّ لي من رُجوعي إليها، فإن وجدت من نفسي قوةً على ذلك، وإلا رجَعتُ إليكم وزرتكم حتى يقضي الله من أمري ما يشاء.

فزودوه، وأكرموه وشيعوه، فانصرف. فلما رحَل عنهم نُكس بعد صلاحه وتماثلهِ، وأصابَه غَشْي وخفقان، فكان كلما أغِميَ عليه، ألِقيَ على وجههِ خمارٌ لعفراء، زودته إيّاه، فيُفيق!

*

المأمون*

أما تستحي أيها الشيخ؟ تصلي لله قاعداً وتضربني قائماً.**

*

ما انفتق عليَّ فتق إلا وجدت سببه جور العمال.

*

أهل السوق سفلة،
والصناع أنذال،
والتجار بخلاء،
والكتّاب ملوكٌ على الناس.

*

قيل له: ليس في السرف شرف؛
فقال: ليس في الشرف سرف.

*

يا من لا يزول ملكه،
إرحمْ من قد زال مِلكُه.

*

سمع رجلاً يقول: قلبَ الله الدنيا، فقال: إذاً تستوي.

*

* عبد الله بن هارون الملقب بالمأمون ولد سنة 170 هـ . ولي الخلافة سنة 198 هـ وتوفي سنة 218 هـ. عصره عصر ازدهار الثقافة.

** قالها للكسائي وكان قد صلى قاعداً، وعندما غضب من المأمون قام إليه وضربه. كان مؤدباً له.

إنّ الله قد قطع عذر العجول بما مكَّنه من التثبت،
وأوجب عليه الحجة على القلق،
بما بصّره من فضل الأناة.

*

أنت رجل فيك خلّتان: السخاء والحياء،
فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك،
وأما الحياء فبلغ بك ما أنت عليه.*

*

من أراد أن يطيب عيشه فليدفع الأيام بالأيام.

*

الإرجاء دين الملوك.

*

إذا وضحت الحجة ثقل عليَّ استماع المنازعة فيها.

*

كتب إلى أهل الكوفة:
عيني تراكم، وقلبي يرعاكم،
وأنا مولٍّ عليكم ثقتي ورضاكم.

*

تمام النعمة أن تستتم بلزوم شكرها،
وأول منازل الشكر ألا يتوصل إلى معصية منعم بفضل نعمته.

*

* كلام قاله للواقدي المؤرخ المشهور وكان قد شكا إلى المأمون دينه.

لأن أقتدي بسيرة أنوشروان أحبّ إليَّ من أقتدي بسيرة عمر بن عبد العزيز،
لأن أنوشروان كان عنده أن الحق له،
وكان عند عمر أن الحق ليس له وأقام عليه.

*

ليس من توكل المرء إضاعته للحزم،
ولا من الحزم إضاعته للتوكل.

*

(...) وقد عرف أمير المؤمنين*، أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر من حشو الرعية، وسفلة العامة،

وممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له، بدلالة الله وهدايته،

ولا استفاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالةٍ بالله وعمىً عنه، وضلالةٍ عن حقيقة دينه، وتوحيده والإيمان به، ونكوبٍ عن واضحات أعلامه، ووجوب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه،

لضعف آرائهم، ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله، وبين ما أنزلَ من القرآن،

فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه،

وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾**.

---

* كان يقول بخلق القرآن، والرسالة أعلاه كتبها إلى إسحاق بن إبراهيم، وهو الذي استخلفه على بغداد، ليلزم الناس برأيه.

** سورة الزخرف، آية: 3.

فكل ما جعله الله قد خلقه،

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.*

وقال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ﴾** فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها،

وقال: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.*** فكل محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه.

(...) ثم هم الذين حاولوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة،

وفي كل فصل من كتاب الله، قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم،

ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن مَن سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزيناً بذلك عندهم، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم،

فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقُبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغَل دينهم، ونغل أديمهم، وفساد نياتهم ويقينهم،

---

* سورة الأنعام، آية: 1.

** سورة طه، آية: 99.

*** سورة هود، آية: 1.

وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أَن لا يِقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾*، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.**

*

ومما بينه أمير المؤمنين*** برويته، وطالعه بفكره، فتبين عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكَفه وضرره،

ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً باقياً عندهم، واشتباهه على كثيرٍ منهم، حتى حسُنَ عندهم، وتزين في عقولهم، ألا يكون مخلوقاً،

فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله، الذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته، من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يُبلغ أولها، ولا يدرك مداها،

وكان كل شيء من دونه خلقاً من خلقه، وحدثاً هو المُحْدِث له، وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه.

*

لا يستطيع**** الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم،

---

* سورة الأعراف، آية: 169.

** سورة محمد: 23، و24.

*** كتابة أخرى للمأمون في خلق القرآن.

**** أحمد بن أبي داوود يروي هذا الحديث عن المأمون... وصف أحمد هذا بأنه القاضي السري العظيم وأنه بعيد الهمة واسع المروءة صرف حياته في قضاء حوائج الناس. توفي بالفالج سنة 240 هـ.

ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم.

وذلك أنهم يرون ظاهر حرمةٍ وخدمةٍ واجتهادٍ ونصيحة، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً حتى لا يزال الرجل يقول:

ما أوقع به إلا رغبةً في ماله، أو رغبةً في بعض ما لا تجود النفوس به.

ولعل الحسد والملال، وشهوة الاستبدال، اشتركت في ذلك. وهناك خيانات في صلب الملك، أو في بعض الحرم،

فلا يستطيع الملِك أن يكشف للعامة موضع العورة في المُلك، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب.

ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة.

*

أحمد بن يوسف الكاتب*

(...) نشكرك** على الإسلام، فأنت القائم به الداعي له، والناصر لحقه،

أم نشكرك على الأمصار، فأنت المفتتح لممتنعها عنوةً، والمتطوِّل على أهلها بالرحمة، بعدما هيجت منك سورة الغضب، فأطفأت نارها وأخمدت لهبها.

أم نشكرك على العوام،

فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السَّعة والرفاهة وعدلت بينهم بالإنصاف،

وتوليت دونهم النصب وآثرتهم بالراحة.

أم نشكرك على الأحكام والسنن فأنت الذي أنهجت سبيلها، فأوجبت فرضها ونافست في أهلها.

*

قد استبطأك الإغفال، وأبطرك الإهمال،

فما تصحب قولك فعلاً، ولا تتبع وعدك إنجازاً.***

*

---

* يخاطب عاملاً للمأمون وهو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب. تولى ديوان الإنشاء في عهد المأمون. كان من سراة عصره. توفي سنة 213 هـ.

** يخاطب المأمون.

*** يخاطب عاملاً للمأمون.

ويصف رجلاً:

لا يصيب إلا محظياً، ولا يحسن إلا ناسياً، ولا ينفق إلا كارهاً، ولا ينصف إلا صاغراً.

*

يعتذر من أحد أخلائه:

لي ذنوب إن عددتها جلت، وإن ضممتها إلى فضلك حسنت. إن عقابك بالحلم عني، أبلغ من أمرك بالانتصاف مني.

*

إلى صديق:

هذا يوم رقّت حواشيه، وبدتْ تباشير الحبور فيه،
والمرء بأخيه كثير وبمساعدته جدير.
وأنت قطب السرور، ونظام الأمور،
فلا تتأخر فنقِلّ، ولا تنفرد عنا فنذلّ.

*

العتابي*

سحائب وعدك قد أبرقت،

فليكن وبلها سالماً من جوائح المطل.**

*

أجمل في الطلب وإياك والإلحاح،

فإنه ربما مل المطلوب منه حتى يستخف بالطالب.

*

- يا أمير المؤمنين، لو قُسم هذا البر على أهل مِنىً وعرفات لوسعهم، فإنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك.

- سل حاجتك.

- يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة.***

*

إن جليسه لطيب، عشرته لأطرب من الإبل على الحداء، ومن الثمل على الغناء.****

*

---

* العتابي هو كلثوم بن عمرو العتابي التغلبي من شعراء الدولة العباسية كما أن له باعاً طويلاً في النثر. توفي سنة 220 هـ.

** كلام يطلب به شيئاً من بعض أهل السلطان.

*** حوار بين المأمون والعتابي الذي وفد على المأمون مسترفداً.

**** يمدح رجلاً.

ـ ما البلاغة؟

ـ كل من بلغك عن حاجته، وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ.

ـ فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟

ـ أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه، أو يفتل أصابعه أو يكثر التفاته.

*

البلاغة إظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق.

*

الإخوان ثلاثة أصناف:

فرع بائن من أصله، وأصل متصل بفرعه، وفرع ليس له أصل.

فأما الفرع البائن من أصله فإخاءٌ بُني على مودة، ثم انقطعت فحفظ على ذمام الصحبة.

وأما الأصل المتصل بفرعه، فإخاء أصله الكرم، وأغصانه التقوى.

وأما الفرع الذي لا أصل له، فالممّوه الظاهر الذي ليس له باطن.

*

ما رأيت الراحة إلا مع الخلوة، ولا الأنس إلا مع الوحشة.

*

ـ ما أرى بلاغتك إلا شاردةً عنك!

ـ لما تناولت القلم تداعت عليَّ المعاني من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه،

ثم أجتني لك أحسنها.*

*

* بين العتابي ورجل طلب إليه أن يضع له رسالة فتمهل العتابي متعللاً بما ذكره.

ببكاء القلم تبتسم الكتب.

*

الأقلام مطايا الفطن.

*

تأتَّيْنا إفاقتك من سكرتك،
وترقبنا انتباهك من رقدتك،
وصبرنا على تجرُّعِ الغيظ فيك،
حتى بان لنا اليأس من خيرك.

وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك. فها أنا قد عرفتك حقّ معرفتك في تعدِّيك لطورك، واطِّراحك حقَّ من غلط في اختيارك.

*

لا يخبر عن فضل المرء أصدقُ من تَركهِ تزكيةَ نفسه.

*

إن عشيرك مَن أحسن عشرتك، وإن عمّك من عمّكَ خيره.
وإن قريبك من قرُب منك نفعه.
وإن أخفّ الناس عندك أخفهم ثقلاً عليك.

*

إبراهيم النظام*

(...) النار** اسم للحر والضياء،

فإذا قالوا:

أحرقت أو سخنت فإنما الإحراق والتسخين، لأحد هذين الجنسين المتداخلين، وهو الحر دون الضياء.

وزعم*** أن الحر جوهر صعّاد، وإنما اختلفا، ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً، بين جواهرهما، لأنهما متى صارا من العالم العلوي إلى مكان، صار أحدهما فوق صاحبه.

ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتون، وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارة، ولم نجدها مضيئة، لأن في الأرض، وفي الماء الذي قد لابس الأرض، حراً كثيراً، وتداخلاً متشابكاً، وليس فيهما ضياء.

وقد كان حر النار هيج تلك الحرارة، فأظهرها، ولم يكن هناك ضياء من ملابس، فهيجه الضياء وأظهره. كما اتصل الحر بالحر، فأزاله من موضعه، وأبرزه من مكانه،

فلذلك وجدنا أرض الأتون، وحيطانها وهواها حارة، ولم نجدها مضيئة.

---

* أبو إسحاق إبراهيم بن سيار. من ولد العبيد. من أهل البصرة. سمي نظاماً لأنه كان نظاماً للكلام المنثور، والشعر الموزون. لا يُعرف تاريخ ميلاده ولكن وفاته عام 221 هـ.

** يتكلم عن النار راداً على بعض معارضيه.

*** المعارض.

والدليل على أن في الحجر والعود ناراً، مع اختلاف الجهات، أنه يلزم أن من أنكر ذلك، أن يزعم أنه ليس في السمسم دهن، ولا في الزيتون زيت.

ومن قال ذلك، لزمه أن يقول:

أن ليس في الإنسان دم (...) وكان ليس بين من أنكر، أن يكون الصبر مُرَّ الجوهر، والعسل حلو الجوهر، قبل أن يذاقا، وبين من أنكر كون الزيت، في السمسم والزيتون، قبل أن يعصرا، فرق.

وإن زعم الزاعم:

أن الحلاوة والمرارة عرضان، والزيت والخل جوهر، وإذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل، وحموضة الخل، وهما طعمان، لزمه مثل ذلك في ألوانهما، فيزعم أن سواد السبج وبياض الثلج، وحمرة العصفر، وصفرة الذهب، وخضرة البقل، إنما تحدث عند رؤية الإنسان لها، وإن كانت المعاينة والمقابلة، غير عاملتين في تلك الجواهر.

فإذا قاس ذلك المتكلم في لون الجسم بعد طعمه، وفي طوله وعرضه، وصورته بعد رائحته، وفي خفته، وثقل وزنه، كما قاس في رخاوته وصلابته، فقد دخل في باب الجهالات، ولحق بالذين زعموا:

أن القربة ليس فيها ماء، وإن وجدوها باللمس ثقيلة وإنما تخلّق عند حلّ رباطها.

وكذلك فليقولوا في الشمس والقمر، والكواكب والجبال، إذا غابت عن أبصارهم.

فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات، كان الذي هرب إليه، أشدَّ عليه.

فكان مثله كما يلي:

حُكي عن رجل أحدب، سقط في بئر، فذهبت حدبته، وحدثت له أدرة في خصيته، فهنأه رجل عن ذهاب حدبته. فقال:

الذي جاء، شر من الذي ذهب.*

*

الذهب لئيم، يدلك عليه مصيره إلى اللئام،

والشيء يقع على شكله، وينزع إلى جنسه.

*

جعت حتى أكلت الطين.** وما صرت إلى ذلك حتى قلبت قلبي، أتذكّر: هل بها*** رجل أصيب عنده غداءً أو عشاءً. فما قدرت عليه. وكان عليَّ جبّة وقمصان، فنزعت القميص الأسفل، فبعته بدريهمات، وقصدت إلى فرضة الأهواز، أريد قصبة الأهواز، وما أعرف بها أحداً.

وما كان ذلك، إلا شيئاً أخرجه الضجر، وبعض التعرض. فوافيت الفرضة، فلم أصب فيها سفينةً. فتطيرت من ذلك أيضاً، وإذا فيها حمولة، فقلت للملاح: تحملني؟ قال: نعم. قلت: ما اسمك؟ قال: داوداز، وهو بالفارسية، الشيطان، فتطيرت من ذلك. ثم ركبت معه، تصك الشمال وجهي، وتثير بالليل الصقيع على رأسي.

فلما قربنا من الفرضة، صحت: يا حمال! ومعي لحاف سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بد لمثلي منه،

فكان أول حمالٍ أجابني، أعور.

---

* نثبت هذا النص شاهداً على طريقة المتكلمين في كلامهم.

** رواية، ذكرها الجاحظ وقعت للنظام وحكاها بنفسه.

*** الضمير في (بها) يعود إلى البصرة وكان يقيم بها.

فقلت لبقارٍ كان واقفاً: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟

فلما أدناه من متاعي، إذا الثور أعضب القرن، فازددت طيرةً إلى طيرةٍ فقلت في نفسي: الرجوع أسلم لي.

ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين، فقلت: ومن لي بالموت؟ فلما صرت في الخان، وأنا جالس فيه، ومتاعي بين يدي، وأنا أقول: إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه سُرق. وإن جلست أحفظه، لم يكن لمجيئي إلى الأهواز وجه.

فبينا، أنا جالس، إذ سمعت قرع الباب، قلت: هذا خناق، أو عدو، أو رسول سلطان! ثم إني تحاملت، وفتحت الباب، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز يقول:

نحن وإن كنا اختلفنا في بعض المقالة، فإنا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية. وقد رأيتك حين مررت بي على حالٍ كرهتها منك. وما عرفتك حتى خبرني عنك، بعض من كان معي. وقال: ينبغي أن يكون قد نزعت بك حاجة، فإن شئت فأقم مكانك، شهراً أو شهرين، فعسى أن نبعث إليك، ببعض ما يكفيك زمناً من دهرك. وإن اشتهيت الرجوع، فهذه ثلاثون مثقالاً فخذها وانصرف، وأنت أحق من عُذر.

فهجم والله علي، أمر كاد ينقضني: أما واحدة، فأني لم أكن ملكت، قبل ذلك ثلاثين ديناراً، في جميع دهري.

والثانية: أنه لم يطل مقامي، وغيبتي عن وطني، وعن أصحابي. والثالثة: ما بيّن لي أن الطيرة باطل. وذلك أنه قد تتابع عليَّ منها ضروب، والواحدة منها كانت عندهم معطبة.

وعلى ذلك الاشتقاق، يعمل الذين يُعبِّرون الرؤيا.

*

شهدتُ أكثرَ هذه التَّجربةِ* التي كانت منهم في إسكار البهائمِ وَأصنافِ السباع، ولَقَدْ احتالَ أحدهم لأسد مقلَّم الأظفار يُنادي عليه: العجَب العجَب! حتَّى سقاَه وعرَف مقدارَه في الاحتمال، فزعمَ، أنّه لم يجِدْ في جميعِ الحيوان أملحَ سُكْرًا من الظَّبي.

ولولا أنَّه من الترفُّه لَكنتُ لا يزال عندي الظَّبيُ حتَّى أُسكِره وَأرى طرائفَ ما يكون منه.

*

* من حديث له في تجربة إسكار البهائم والسّباع.

إبراهيم بن المهدي*

زادك الله للحق قضاءً، وللشكر أداءً.

*

وليُّ الأمرِ محكّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى،
ومَن مدّ له في الأناة حسُن عنده الذنب،
وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب،
كما جعل كل ذي ذنبٍ دونك،
فإن عاقبت فحقك، وإن عفوت فبفضلك.**

*

أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عوّدته من العفو. فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فلا نظير لك.
فإن جرمي أعظم من أن أنطق فيه بعذر، وعفو أمير المؤمنين أجلُّ من أن يفي به شكر.***

*

البلاغة أن يكون معناك يُجلِّي عن مغزاك.

*

---

* أخو الرشيد ولد سنة 162 هـ. توفي سنة 224 هـ.
** كلام قاله للمأمون عندما ظفر به وكان قد خرج عليه.
*** الكلام أيضاً موجه للمأمون.

المعتصم*

ضِيمَ فصَبر، وسُلب فعَذر،

فليقابل بالشكر على صبره، وبالإحسان على عذره.**

*

إذا نُصِرَ الهوى بطل الرأي.

*

* محمد بن هارون الرشيد ولد سنة 179 هـ. تولى الخلافة سنة 218 هـ. توفي سنة 227 هـ. كان شجاعاً قوياً. بنى مدينة (سر من رأى).

** كلام قاله في الحسن بن سهل الذي سلم كل ضياعه للخليفة بأمر من الخليفة.

الواثق*

من اتبع هواه شرد عن الحق منهاجه،
والناصح من نصح نفسه، وذكر ما سلف من تفريطه،
فطهَّر من نيته،
وثاب من غفلته،
فورد أجله،
وقد فرغ من زاده لمعاده فكان من الفائزين.

*

إياك أن تريني وجهك**،
فإني لست آمن نفسي عليك.
ولك من قلبي مكان، ما أوثر أن يؤثِّر فيه ما يحيله عن صورته.
ولأن تكون بعيداً وأنا لك، خير من أن تكون قريباً وأنا عليك.
وأن لا تراني وأنا واثق بك، أنفع لك من أراك وأنا ظنين فيك.
وإذا صدقتك عما حنيت عليه ضلوعي من أمرك، فقد قضيت حقك في كفايتك. واستدمت به صفاء ضميرك،
ولو قرأت لي ألف كتابٍ بالورود، فلا تعمل عليه.
الزم فناء عزِّك،
واستنشق نسيم شوقي إليك، وتَطَعَّم حلاوة ثقتي بك.

*

---

* ابن هارون الرشيد العباسي. من خلفاء الدولة العباسية. وُلد ببغداد وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 227 هـ. مات سنة 232 هـ.

** من رسالة إلى أحد قواده طاهر بن الحسين.

محمد بن عبد الملك الزيات*

قلة نظرك لنفسك، حرمتْكَ سناءَ المنزلة،
وإغفالك حظّك من أعلى الدرجة.
وجهلك بقدر النعمة أحلّ بك اليأس والنقمة،
حتى صرت من قلة الأمل معتاضاً شدة الوجل،
ومن رجاء الغد متعوضاً يأس الأبد.
وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة،
وصرت معرَّضاً للرحمة بعد ما تكنّفتْك الغبطة.**

*

أما الجوار فنسب بين الحيطان،
وأما العطف والرقة فهما للنساء والصبيان.***

*

بالقلم تُزفُّ بنات العقول إلى خدور الكتب.

*

لا يتصور لك التّواني بصورة التوكل فتخلد إليه وتضيع الحزم.

*

توهمتك سهماً كافياً، فوجدتك رسماً عافياً، لا محامياً ولا وافياً.****

*

---

* ابن أبان بن حمزة من بلغاء الكتاب والشعراء. قتله المتوكل سنة 233 هـ.

** من رسالة كتبها إلى إبراهيم بن عباس الصولي.

*** من رسالة كتبها إلى إبراهيم بن عباس الصولي.

**** يخاطب أحد عماله.

ابن الراوندي*

إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه،

وأنه هو الذي يُعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب،

فإن كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر، فساقِط عنا النظر في حجته، وإجابة دعوته، إذ قد غنينا بما فيه العقل عنه،

وإن كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر، فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوّته.

*

إنه يلزم من يقول بالنبوة، أن ربهم أمر الرسول أن يعلمهم صوت العيدان، وإلا فمن أين يُعرف أن أمعاء الشاة إذا جفّت وعُلِّقت على خشبة فضربت، جاء منها صوت طيب.

*

* ابن الراوِنْدي أو «الريوندي» أبو الحسين بن يحيى ابن اسحاق: معتزلي سابق، اتُّهم بالزّندقة. وُلد في أوائل القرن الثالث الهجري، وتختلف المصادر في ذكر تاريخ وفاته، فيقول بعضها إنه توفي في منتصف القرن الثالث الهجري بالغاً من العمر 36 عاماً أو 40 عاماً، ويقول بعضها الآخر إنه عمّر حتى نهاية القرن، ويُرجِّح المستشرق بول كراوس القول الأول على الثاني.

إن الأنبياء وقعوا بطلّسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب.

*

قال ابن الراوندي في شأن المعجزات:

إذا كان الواحد منا لم ينته به الحال إلى أن يتصفح العقول، والعادات، وأحوال الناس، في الأزمنة المختلفة، والأماكن المتباعدة،

ويعرف أنواع الحيل، ويفصل بينها وبين ما لا حيلة فيه،

أو يعرف طبائع الأجسام، وما تختص به من القوى واللطائف،

حتى يعلم ما الذي يمكن مما لا يمكن، وما الذي يبلغه الناس بالحيل، وما الذي يستحيل من ذلك فيهم، وما الذي يتأتى بطبائع الأجسام، وما الذي يتعذر، فما يدفع في المعجزات، التي وجه كونها معجزة، الجمع، والتفريق، والتحريك، والتسكين، والجذب، والدفع، وسائر ما يصح من العباد فعل مثله،

وأنهم وصلوا إليه بضرب من الحيل، لا يجب أن يظهر لنا ونعرفه كما لا يجب في حجر المغناطيس وغيره، مما يختص بجذب بعض الأجسام أن يعرفه كل عاقل؛

ولا يجب إذا ظفر بمعرفته أن يجوز كونه معجزاً، وكما في ذلك فيه، وفي سائر ما ظهر في العالم من الطلسمات وغيرها، فيجب أن لا يستنكر العاقل مثله؛

وإذا لم يستنكر كان ظهور مثل ذلك من الشبه، ولم يصح أن يكون دالاً على النبوة، وسلك هذه الطريقة من الشبهة.

*

بجناح عقلي وجدت في آفاق المعارف مطاراً، وأقمت لنفسي من المجد بمعرفة مُغيَّبات الأمور مناراً.

*

إن أكبر الكبائر في الرسالة إتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب،

حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً... فبأي تمييز له وأية فضيلة أوجبت استخدامك وما الدليل على حجة دعواه؟

*

الكندي*

أحسن الكلام ما كان صفو العقل من ناحية المعنى، وعفو الطبع من جهة التأليف، فيجتمع فيه صوابُ المراد وحلاوة الإيراد.

*

النظر في كتب الحكمة أعياد النفوس الناطقة.

*

لو أن رجلاً أفسد بيده واختياره أخسّ أعضائه، لكان مذموماً، ومن العقل بعيداً. فكيف بمن أفسد أشرفها، وهي التي تظهر منه القوى الحسّاسة والأفعال السائسة لبدنه أجمع . أعني: الدماغ! فإنَّ الحيّ يُحَدُّ بأنه حَسّاس متحرك حركة إرادية. والحسّ، في البدن أجمع، انبثاقه من الدماغ، وكذا جميع القوى النفسانية من الرويَّة المولّدة للإرادات والفكر. ومستعملو السُّكْر مدخلو الفساد على أدمغتهم. ومتى توالى السكر على بدن مَرِض دماغه واشتد ضعفه وبَعُد عن القوة المظهرة للأفعال الإرادية حتى يبطل عنها. فمَنْ أعدمُ لنفسه مِمّنْ كان سبباً لتلف حياته! والعجب أن يكون ذلك منهم وهم حُرَصاء على طول الحياة. فإذا كانت إرادتهم نقص الحياة، فكأنهم يريدون ما لا يريدون.

*

مَنْ صان لسانه أكْثَرَ أعوانه، وجعل جميع الناس إخوانه.

*

---

* أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران... بن الأشعث بن قيس. توفي سنة 252 هـ.

المسترسل مُوَقّى، والمحترس مُلقّى.

*

العبد حرٌّ ما قنع، والحرًّ عبدٌ ما طمع.

*

مَنْ مَلَكَ نفسه مَلَك المملكة العظمى، واستغنى عن المؤن. ومَنْ ملك المملكة العظمى أمنَ الأمْنَ الأعظم واستغنى عن المؤن. ومَنْ أمِنَ الأمْنَ الأعظم واستغنى عن المؤن في ملكه، ارتفع عنه الذم والهرم، ومَنْ ارتفع عنه الذم والهرم، حمِده كلّ أحد وطاب عيشه إلى الأبد. فينبغي ألا تقصّر في الحق عند كل أحد، وطلب عيش الأبد، إذ ليس أنفسُ منهما مطلباً.

*

مَنْ اتبع شيئاً اضطراراً فهو متعبِّد له. ومَنْ تعبّد لشيء فهو عبده.

*

غَرَض الشهوة اقتناء مشتهاها. وغَرَض الهرب أن لا يُوقع في ما يُهْرَب منه: والذي لا يخطئ غرض شهوته محظوظ. والذي لا يقع في ما يهرب منه سعيد.

*

مع كل مصيبة ألمٌ، ومع كل حسرةٍ ندمٌ.

*

مَنْ لم يكن حكيماً، لم يزل سقيماً.

*

مَنْ جهل، ذَلّ.

*

العلم غابر، والجهل دائر.

*

مَنْ أكثر المناكح لم يسلم من الفضائح.

*

من استشعر حلة العدل، استكمل زينة الفضل.

*

الحكمة إن كانت معطية كلَّ شيء حقاً، فهي حق؛ وهي أنْفَسُ الحق. فمن أعطته ذاتها، فقد أعطته أنفس الحق.

*

ليس كل مطلوب خارجٍ عنا بموجودٍ كلما طلب، ولا موجود منهُ عَقيْب شيء متى فُقِد.

*

رحمة العلماء إنما تكون من الشرّ، وضحك الجهال بالذل. وهاتان رذيلتان لأن الشرّ خاصّة لكل رذيلة، والذل لاحقة كل رذيلة.

*

أكمل الخساسة قلة الاستحياء من النفس. ومن فاته الاستحياء من نفسه لم تَفُتْه الرذائل. ومَنْ عَدم الاستحياء من نفسه، لم يعدم استحياء الناس من أخلاقه. ومن لم يصحب الاستحياء من نفسه، صحبته الآفات. ومَنْ لزم الاستحياء من نفسه، لزمته السلامة. ومَنْ لم يفته الاستحياء من نفسه، لم يلحقه الذم، لأن مع ركوب ما يستحيا منه الملامةُ والذم لكل من وجبت عليه الملامة. فمَن لم تلزمه الملامة، لم يلحقه ذم.

*

أثمن السلع الفضيلة. ولا حرب أجحف من الرذيلة.

*

من أتعبه الهرب من السيئات زماناً، ألبسه دوام الراحة في ظلال الحسنات أماناً.

*

ومن هرب من تعب البدن الزائل، لم يَنْجُ من تعب النفس اللازم القاتل.

*

من اتخذ العدل سُنّةً، كان له أحصن جُنّة.

*

من اتخذ الحكمة لجاماً، اتخذه الناس إماماً.

*

العار عدم العفة، والشَرَه أدنأ حرفة.

*

مَنْ صبا إلى الشهوات، أعقبته البليّات.

*

من ظهر زهده، اشتد أيده، ولم يَعْصه عبدُه، وسَعِدَ جَدُّه.

*

الزاهد هو الواحد.

*

من زهد في الدنيا، ملكها؛ ومن حرص عليها أهلكها.

*

من زهد في الدنيا لم تفته؛ ومَنْ حرص عليها أتعبته.

*

من اتخذ الحرص شعاراً، جرّعه الفوت مراراً.

*

من حَسُن قنوعه، دام ربيعه.

*

القنوع خيرٌ من الخضوع.

*

من باع الطمع باليأس، لم يَسْتَطِلْ عليه الناس.

*

مَنْ لزم الطمع، لزمه الجزع.

*

من لم يزل الطمع له راكباً، لم يزل الفقر له صاحباً.

*

من تولّج ضيق مسلك الحِلْم، أفضى به إلى سَعَة أوطان الأمن.

*

من كان الحلْم له وطناً، كان له العزُّ معقلاً.

*

من سكن عند الغضب لم يتحرك له العطب.

*

من أطاع الغضب عَصَتْه السلامة؛ ومن عَصَى الحِلْم أطاع الذل.

*

من فحش غضبه، هدم حسبه. ومن تقحم الغضب، اقتحم عليه الذم.

*

خوف ما لا نفع له مِنْ أخلاق من لا عقل له.

*

شُربُ السمّ أهون مِنْ تضمُّن الهمّ.

*

من اتبع الصبر، اتبعه النصر.

*

مَنْ حَسُن خلقه، طاب رزقه، ومَنْ ساء خلقه قلّ رزقه.

*

مَنْ حَسُن رفقه، عظم حقّه.

*

من رفق رتق، ومن خرق حُمق.

*

الخُرْق في الأعمال أدعى إلى الإقلال.

*

الفخر أصغر للقدْر.

*

من فخر فجر.

*

مَنْ رضي بحظوظ الناس، لم ينله اليأس.

*

مَنْ رضي بحظ غيره لم ير النقص في خيره.

*

الجود مورود غير موجود.

*

ما أقبح البخل بكل ذي عقل.

*

البخيل أبداً ذليل.

*

الأمانة ثوب الصيانة.

*

مَنْ لزم الوفاء لزمه الرضا.

*

مَنْ أطاع الوفاء، لم يَعْصِه الإخاء.

*

مَنْ ساس نفسه بالصدق، لم يجد لشيء فقداً.

*

مَن صدقت لهجته، ظهرت محجتّه.

*

من صدق نفسه، دام أنْسه.

*

من استطال على الإخوان، لم يصحبه إنسان.

*

مَنْ عَدِم الإخوان، أكثر ذمَّ الزمان. ومن أكثر ذمّ الزمان، لم يعدم الأحزان. ومن كثر من الأحزان لم يُعْتِبه الزمان. ومَنْ لم يُعْتبه الزمان، لزمه الهوان.

*

ومن حَسُن أنسه، كثر جنسه. وأخصّ الأجناس جنس الإيناس. ومن قَلَّ جنسه أهان نفسه.

*

الصَّلَف أنتن من الجيف.

مَنْ ظَهَر صَلَفه، بطلَ أنفه.

*

من جار عن القصد، تاه في الجهد.

*

العُجْبُ عمى.

*

مَنْ أعْجَبَ نَفْسَه، فقد فسد حسُّه. ومَنْ دخله العُجْبُ فقد لبسه الكذب. العجب أكذب، ومعرفة النفس أصوب. من لم يعجب بنفسه نصحها، ومَنْ أعجب بها فضحها.

*

من اقتحم الهزل، ارتطم في الجهل.

*

مَنْ هَذى، أذَى.

*

السعاية خزاية.

*

من سعى فقد هوى.

*

مَنْ كَسُلَ، هَزُلَ.

*

ـ مَنْ أقوى الناس؟

ـ أقواهم على نفسه.

ـ ومَنْ أشدّهم قوةً عليها؟

ـ مَنْ أمات شهوته، وذلّل غضبه حتى يصير له مركباً سلس القياد، ينال به الحقّ ويدفع به الباطل، غير مكترث في ذلك بالموت.

ـ فمن أحكم الناس؟

ـ أعرفهم بنفسه، وأشدهم احتمالاً للأدوية البشعة في رفع انتقامها.

ـ ومَنْ أعدل الناس؟

ـ مَنْ لزم الحق فلم يخرج عنه وعن العمل بما يوجبه الحق.

ـ ومَنْ أعَفُّ الناس؟

ـ من عَدَل في شهواته فلم يتناول منها شيئاً خارجاً عن ما بهِ الضرورة إلى تناوله في إقامة صورة الشخصية وإثمار مثْلنا على شريطة ناموس العقل وناموس الوضع.

*

ـ مَنْ أشقى الناس في دنياه؟

ـ مَنْ كانت إرادات نفسه اقتناء الخارجات عنه، فإنه في كل حالٍ يفوته به مطلوب، ويعوزه به محبوب. ومع كل فائتٍ حسرة، ومع كل مفقود مصيبة. وهذان يولدان الحزن والأسف اللذين هما ضد الفرح والاغتباط. والأضدادِ لا توافق في شيء: فمتى كان إنسانٌ حزيناً أسفاً، بطل فرحه واغتباطه. ومن كان حزيناً أسفاً، فهو نَكِدُ الحياة. ومن نكَدت حياته، فهو شقيّ في دنياه.

*

ـ مَنْ أحْسَنُ الناس صورةً؟

- أَلْبَسُهم للفضيلة الإنسانية.
- وما الفضيلة الإنسانية؟
- الحكمة والعدل والعفة والنجدة في كلٍّ.

*

رُبَّ لسانٍ خنثٍ أنتجَ لفظاً فحلاً.

*

الجوهرة النفيسة لا يشينُها سخافة غائصها، ولا دناءة بائعها.

*

اعتزلْ الشرَّ فإن الشر للشرير خُلِق.

*

من لم ينبسط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك.

*

إعْصَ الهوى وأطعْ من شئت.

*

لا تغترَّ بمالٍ وإن كثر.

*

لا تطلب الحاجة إلى كذوب فإنه يبعدها وهي قريبة.

*

لا تنجو مما تكره حتى تمتنع عن كثيرٍ مما تحب وتريد.

*

العاقل يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة. والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك.

*

يحتاج طالب العلم إلى ستة أشياء، حتى يكون فيلسوفاً، فإن نقصت لم يتم:

ذهن بارع، وعشق لازم، وصبر جميل، وروع خالٍ، وفاتح مفهم، ومدة طويلة.

*

إن الشيء إذا كان خبراً عن محسوس، لم يكن نقضه إلا بخبرٍ عن محسوس، ولا تصديقه إلا بخبرٍ عن محسوس.

*

يا بنيَّ

الأب ربّ،

والأخ فخّ،

والعم غمّ،

والخال وبالٌ،

والأقارب عقارب،

وقول: «لا» يصرف البلا،

وقول: «نعم» يزيل النعم.

والدينار محموم فإن صرفته مات،

والدرهم محبوس فإن أخرجته فرَّ.

*

من لم يكن حكيماً لم يزل سقيماً.

*

من شرف البخل أنك تقول: «لا» ورأسك إلى فوق،

ومن ذلِّ العطاء أنك تقول: «نعم» وأنت برأسك إلى أسفل.

*

ينبغي لنا ألا نستحي من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا.

فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق.

وليس ينبغي بخُس الحق، ولا تصغير قائله، ولا بالآتي به. ولا أحد بُخس بالحق، بل كلٌّ يشرِّفه الحق.

*

ينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلاً عمن أتى بكثير من الحق. إذ أشركونا في ثمار فكرهم، وسهلوا لنا المطالب الحقية الخفية، بما أفادونا من المقدمات المسهّلة لنا سبل الحق.

*

الفلسفة الأولى هي علم الحق الأول الذي هو علة كل حق.

*

الواحد الحق ليس هو شيئاً من المعقولات، ولا هو عنصر، ولا جنس، ولا نوع، ولا شخص ولا فصل، ولا خاصة، ولا عرض عام، ولا حركة، ولا نفس، ولا عقل، ولا كل، ولا جزء، ولا جميع، ولا بعض، ولا واحد بالإضافة إلى غيره. بل واحد مرسل، ولا يقبل التكثير، ولا هو المركب، ولا كثير، ولا واحد مما ذكرنا أنه موجود فيه أنواع جميع أنواع الواحد التي ذكرنا.

فالواحد الحق إذاً، لا ذو هيولى، ولا ذو صورة، ولا ذو كمية، ولا ذو كيفية، ولا ذو إضافة ولا موصوف بشيءٍ من باقي المعقولات. ولا ذو جنس، ولا ذو فصل، ولا ذو شخص، ولا ذو خاصة، ولا ذو عرضٍ عام،

ولا متحرك، ولا موصوف بشيء مما نفى أن يكون واحداً بالحقيقة، فهو إذاً وحدة فقط محض، أعني لا شيء غير وحدة، وكل واحد غيره فمتكثر.*

*

من الأنفس ما يفارق البدن وفيها دنس وأشياء خبيثة.

فمنها ما يصير إلى فلك القمر، فيقيم هناك مدةً من الزمان، فإذا تهذبت ونقيت. ارتفعت إلى فلك العطارد فتقيم هناك مدةً من الزمان.

فإذا تهذبت ونقيت ارتفعت إلى فلك كوكبٍ أعلى فتقيم في كل فلك مدةً من الزمان.

فإذا صارت إلى الفلك الأعلى ونقيت غاية النقاء وزالت أدناس الحس وخبثه منها ارتفعت إلى عالم العقل، وجازت الفلك وصارت في أجل محل وأشرفه، وصارت بحيث لا تخفى عليها خافية، وطابقت نور الباري، وصارت تعلم كل الأشياء، قليلها وكثيرها، كعلم الإنسان بإصبعه الواحدة، أو بظفره، أو بشعرةٍ من شعره، وصارت الأشياء كلها مكشوفةً بارزةً لها،

وفوض إليها الباري أشياء من سياسة العالم تلتذ بفعلها والتدبير لها.

*

الصورة النومية أحسن وأتقن من الصور المحسوسة، لأن مدركات الحواس مشوشة وغير دقيقة،

وتكون مدركات القوى النفسية العليا أكثر إتقاناً ونقاءً ووضوحاً.

*

* من رسالة الكندي للخليفة المعتصم الذي ولي الخلافة بين عام 218 هـ وعام 227 هـ.

أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي*

أُنْسُ الأنْسِ يَذْهب بوحشة الوحدة، ووحشة الوحدة تَذهب بأنْس الجماعة.

*

مَنْعُ الحافظ خيرٌ من عطاء المُضَيِّع.

*

الرجال يفيدون المال، والمالُ يفيد الرجال.

*

إذا أبصَرَتْ العينُ الشهوةَ، عميَ القلب عن الاختيار.

*

مَنْ نظر إلى الموت بعين أمله رآه بعيداً، ومَنْ نظر إليه بعين عقله وجده قريباً.

*

لا تتلبّس بالسلطان في أوقات اضطراب الأمور عليه، فإن البحر لا يكاد راكبه يَسْلَم في حال سكونه، فكيف مع رياحه واضطراب أمواجه!

*

العقل صفاء النفس، والجهل كدرها.

*

إن الله أضاف إلى كل مخلوق ضدّه ليدلَّ على الانفراد له وحْدَه.

*

---

* عُيِّنَ بأمر من الوزير علي بن عيسى وزيراً للبيمارستانات في بغداد سنة 302 هـ .

كرم الله لا ينقض حكمه؛ ولهذا لم تقع الإجابة لكل دعوة.

*

للطالب المنجح لذة الإدراك؛ وللطالب المُخْفِق راحة اليأس.

*

كما لا ينبت المطرُ الشديد في الصخر، كذلك لا ينتفع البليد بكثرة التعلّم.

*

مَنْ صَحِبَ السلطان فليصبر على قسوته كصبر الملّاح على ملوحة البحر.

*

نثر الأعراب

قيل لأعرابي:

ـ كيف حزنك على وَلدك؟

قال:

ـ ما تَرك همُّ الغَداةِ والعشاء لي حزناً.

ـ ما أذهبَ شبابك؟

ـ مَن طال أمده، وكثر ولده، وذهبَ جلدهُ، ذهب شبابهُ.

ـ ما أنحل جسمك؟

ـ سوء الغذاء، وجدوبة المرعى، واعتلاج الهموم في صدري.

*

مَنزل والله رحلت عنه رَبّات الخدور، وأقامت فيه أثافيّ القدور.

وقد اكتسى بالثبات، كأنه ألبس الحُلل، وكان أهله يعفون فيه آثار الرياح، فأصبحت الريح تعفو آثارهم. فالعهد قريب، والملتقى بعيد.

*

طُويت صحيفته*، وذهب رزقهُ.

فالبلاء مسرعٌ إليه، والعيش عنه قابض كفيه.

*

بلد كالتّرس، لا تمشى فيه الرياح إلا عابراتِ سبيل،

---

* يتحدث عن رجل.

ولا يمرّ فيها السَّفر إلا بأدل دليل.

*

إن مالك إن لم يكن لك، كنت له. وإن لم تُفنِه أفناك. فكلهُ قبل أن يأكلك.

*

يا بُني، لا تكن رأساً ولا تكن ذنباً.
فإن كنت رأساً فتهيأ للنطاح، وإن كنتَ ذنباً فتهيأ للنكاح.

*

يقتحمون الحرب، كأنهم يلقونها بنفوس أعدائهم.

*

وصف أعرابي امرأة فقيل له: ما بلغ من شدة حبك لها؟
قال: إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها ريح المسك.

*

خيرٌ من الحياة
ما إذا فقدتَه أبغضتَ لفقده الحياة.
وشرٌّ من الموت
ما إذا نزل بك أحببتَ لنزوله الموت.

*

ـ أما تَشْرب؟*
ـ لا أشربُ ما يشربُ عقلي.

*

* حوار بين أعرابيين.

ـ لم لا تَشْرَب؟*

ـ والله، لا أرضي عقلي مُجَمّعاً، فكيف أفَرّقه؟

*

الدّنيا دارُ بلاء والآخرة دار بقاء. فخذوا أيها الناسُ، لمقركم مِن مَمَرِّكم. ولا تهتكوا أستاركم عند مَن لا تخفى عليه أسراركم. ففي الدّنيا أحْيِيتم، ولغيرها خُلِقتُمْ.

*

ماؤها وَشَلٌ، وتَمْرُها دَقَل، ولِصُّها بطل. إن كان بها الكثيرُ جاعوا، وإن كان بها القليلُ ضاعوا.**

*

ـ لسْتَ بابْني!***

ـ واللهِ لأنا أشبَهُ بك مِنك بأبيك،

ولكنت أنْتَ على أمِّي أغيرَ من أبيك على أمِّك.

*

اللهم**** إن كان رزقي في السَّماء فأنْزلهُ، وإن كانْ في الأرض فأخرجْهُ،

وإن كانَ بعيداً فقرِّبْهُ، وإن كانَ قريباً فيسِّره، وإن كان قليلاً فكثره،

وإن كان كثيراً فبارِك فيه.

*

---

* حوار بين شخصين.

** وصف مدينة.

*** مشاتمة بين أعرابي وابنه.

**** دعاء أعرابي.

الحمد لله الذي أنْحل جِسْمَك، كما أخمَصْتَ بطني[*]؟

*

(...) النجوم زينة، وحراسة، وهداية.

*

اللهم إنك كفلتَ لنا الرِّزق، وأمَرْتنا بالعبادة،
فاكفِنا ما شغلتنا به، عما خلقْتنا له،
فإن ما عندنا يَفْنى، وما عندك يَبْقى.

*

ما يَغُرُّني حِلمُك، فإن عِنْدي من جَهْلك العجائب.[**]

*

- ما رأيْتَ من عجائب البحر؟
- سلامتي منه.

*

- ما أعدَدْتَ للبَرد؟
- شدّة الرِّعدةِ، وقرفصاء القِعدة، وذَرَب المَعِدة.

*

هَرِمَتْ بعدهم الدُّنيا.

*

هِيَ أحسَنُ مِن السماء، وأطيَبُ من الماء.[***]

*

---

[*] أعرابي يخاطب الهلال في سبع وعشرين من رمضان.

[**] أعرابي نظر إلى البحر فرآه هادئاً.

[***] يمدح امرأة.

إن عظيمَ حقك عليَّ، لا يذهبُ بصغير حقي عليك.
والذي تمتُّ بهِ إليّ، أمُتُّ بمثله إليك، ولسْتُ أزعُم أنّا سواء.ولكنني أقولُ:
لا يحقُّ لك الاعتداء.*

*

رأيتُني في ما أتعاطى من مَدْحك، كالمخُبرِ عن ضوءِ النهار الباهِر والقمرِ الزاهِر، الذي لا يَخْفَى على الناظِر.
فانصَرفْتُ مِنَ الثناء عليك، إلى الدُّعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى عِلم الناس بك.

*

مثِّل لنفسك مِثالَ ما استحسَنْتَ من غيرك، فاعْمَل به. وما استقبحْتَ من غيرك فاجتنبْهُ،
فإن المرْءَ لا يَرى عيبَ نفسه. ومن كانَت مودتُه بشرَهُ، وخالفَ ذلك فِعلهُ،
كان صديقُه مِنه على مِثْلِ الريح في تصرُّفها.
والغَدْرُ أقبحُ ما تعامل بهِ الناس. ومَن جمعَ الحِلم والسّخاء فقد أجادَ الحُلة.

*

إن حمَلتْ أثقلت، وإن مَشَتْ أبْعَدتْ، وإن نُحِرَتْ أشبعَتْ، وإن حُلِبَتْ أرْوَتْ**.

*

---

* أعرابي يعاتب أباه.

** الناقة.

ـ أما كان بطني لك وِعاءً، أما كان حِجري لك فِناءً، أما كان ثديي لك سقاءً؟

ـ أصبَحْتِ خطيبة، رَضِيَ الله عنك.*

*

اللهمَّ! إن لك عليَّ حقوقاً، فتصدَّق بها عليَّ، وللناسِ تبعاتٍ قِبلي، فتحملها عَني،

وقد أوجبْتَ لكلِّ ضَيْفٍ قِرىً وأنا ضَيْفك، فاجعَل قِراي هذه الليلة، الجنة.**

*

سأتخطى ذنْبكَ إلى عُذْرك، وإن كنت من أحَدِهما على شكّ، ومن الآخر على يقين.

ولكن ليتمَّ المعروف مِنّي إليك، ولتقومَ الحُجةُ لي عليك.***

*

واللهِ لقد رأيتها، فما رأيْتُ وراءها طائلاً،

كأنّ بَطنها قُرْبةٌ وكأن ثديّها دبَّة، وكأن إسْتَها رقعة،

وكأنَّ وجهها وجهُ ديك، نفشَ عَفْريَّتَهُ، يقاتِل، ديكاً.****

*

(...) إنك لمشُرفةُ الأذنين، جاحظةُ العَيْنين، ذاتُ خُلقٍ متضائِلٍ يُعجبك الباطِل،

إن شَبِعْتِ بَطرْت، وإن جُعتِ صَخبْتِ

---

* أعرابية حاورت ابنها.

** أعرابي في موسم الحج.

*** أعرابي يخاطب ابن عمه.

**** أعرابية تصف امرأة لم تجد عندها خيراً.

وإن رأيْتِ حسَناً دفَنتِه،
وإن رأيْتِ سيئاً أذَعتهِ،
تُكرمين من حَقَرك.
وتَحقُرْين من أكرَمك.*

*

ما فيها غير تَعبِ الأضراس، وخيبةُ الحنجرة.**

*

أصَبحْتُ تقيّدني الشعرة، وأعثُر في البَعرة، وقد أقام الدَّهر صَعَري، بعد أن أقَمْتُ صعرَه.***

*

- أتركبُ حراماً؟
- يركب الحرامَ من لا حلالَ له.****

*

الأعرابي: أصابتنا سنَة وعندي بضعُ عشرة بنْتاً.*****

الشيخ: أما السنة، فوَدِدْتُ، واللهِ، أن بينكم وبين السماء صفائح من حديد، ويكون سَيْلُها مِما يليني، فلا تقطر عليكم قطرة. وأما البنات، فليْتَ الله أضْعَفَهُنَّ أضعافاً كثيرة، وجَعلك بينهُن مقطوعَ اليدين والرِّجلين ليس لهُنّ كاسِب غيرك.

---

* أعرابي يصف زوجته.

** أعرابي يصف زوجته.

*** يصف الشيخوخة.

**** أعرابي استولى على ناقة ليست له.

***** أعرابي وشيخ من بني مروان.

– والله ما أدري ما أقول لك، ولكن أراك قبيح المنظر سيء الخُلق.

*

في كل عُضوٍ منها شمس طالعة.*

*

ما أدري ما أقول فيك، أأقول: رفَعك الله؟ فقد رفعك. أم أقول: نوّرك الله؟ فقد نوَّرك.

أم أقول: حسّنك الله؟ فقد حَسّنك. أم أقول: عمّرك الله؟ فقد عَمّرك.

ولكني أقول: جعلني الله فِداك.**

*

السعيدة منكن، من يتزوّجها ابن عمها، فيمهرها بتَيْسين وكلبين وعَيْرَيْن ورِحيَين،

فينُبُّ التيسان، ويَنْهق العَيْران، وينبح الكلبان، وتدور الرَّحيَان، فيعج الوادي.***

*

أما واللهِ، أيامَ شرخهِ، إذ كان ينكثُكِ كما يُنكتُ العظمُ من مُخه، لقد كنتِ له تبوعا، ومنِهُ سموعاً.

فلما لانَ منه ما كان شديداً، وأخلق مِنهُ ما كانَ جديداً، تغيرْتِ له.

وأيْمُ الله، لئن تَغَير مِنه البعض، لقد تغيَّر مِنكِ الكل.****

*

---

* أعرابي يصف امرأة

** أعرابي يخاطب القمر.

*** أعرابية تخاطب بنات عمها.

**** أعرابي اختلف مع زوجته فخاطبتها أخته بهذا الكلام.

وَيْحَك، إن فلاناً، وإن ضَحِك إليك، فإنّه يضحك منك.
ولئن أظهرَ الشفقةَ عليك، فإن عقاربَه تسري إليك.
فإن لم تتخذه عدوّك في علانيتك، فلا تجعلهْ صديقاً في سريرتك.*

*

من طال رشاؤهُ، كثر مَتْحُهُ.

*

الأمثال مَصَابيحُ الأقوال.

*

ـ أتمزجُها؟
ـ حسبُها ما شربَتْ من كَرْمِها.**

*

ـ إنَّ في الأيْر، يا قَوْمُ، عجباً فاحذروه.
ـ ما هو؟
ـ يأنَسُ إلى من لا يَعْرِف، ويستوحِشُ ممن يَعْرِف.

*

ـ هل تحدّثُك نفسُك بدخول الجنّة؟
ـ والله، ما شككتُ قط، أني سوف أخطو في رياضها، وأشربُ من حِياضِها، وأستظِلُّ بأشجارها، وآكلُ من ثمارها، وأتفيأ بظلالها، وأتَرشّفُ مِن قلالها، وأتمتّع بحورها، في غُرَفِها وقصورها.
ـ أبِحَسنةٍ قدَّمْتَها، أم بصالحةٍ أسلفْتَها؟

---

* نصيحة أعرابي لآخر.
** سأل رجل أعرابياً إن كان يمزج الخمرة.

ـ وأيُّ حسنةٍ أعلى شرفاً، وأعظمُ خطراً، من إيماني بالله؟*

*

رُب مخوفٍ يُنَال، ومرجُوٍّ لا يُنَال.

*

ألم أكن نَهيْتكُ، أن تُريق ماءَ وَجْهك، بمسألتكِ مَن لا ماءَ في وجْههِ.

*

ـ ما تقولون في عِيْسى؟
ـ قتلناهُ وصلبناه.
ـ لن تخرجوا من السجن حتى تدفَعُوا دِيّتَه.**

*

ـ لا يُتهم الله في قضائهِ.
ـ واللهِ، ما يُتَّهمُ غيرهُ، ولا ذهَب بابني سواه.***

*

ـ ما بالُ العَربِ سمّتْ أسَداً ونَمِراً، وكلباً؟ وسمّتْ عبيدها مُباركاً وسالمِاً؟
ـ لأنها سمّتْ أولادها لأعدائِها، وسمّتْ عبيدهَا لأنفسِها.****

*

ـ أمشتاقٌ إلى وطنك؟
ـ كيف لا أشتاقُ إلى رَمْلةٍ، كنْتُ جنين رُكامِها، ورضيعَ غَمامها؟

*

الصورةُ الظاهِرةُ، ترجمان الصُّورةِ الباطنة.

*

---

* أعرابي، وقد سُئل عن اعتقادهِ بدخول الجنة.

** حكم أعرابيٌّ البحريْن فجمع اليهود وخاطبهم بهذا الكلام.

*** مات ابن لأعرابي فجاءه مُعزٌّ فجرى بينهما الحِوار.

**** حوار بَيْن العُتْبي وأعرابي.

إن دَعتِ القلوبَ، لم تُبطئ عنها، وإن قتلتْ لم يُعْدَ عليها.*

*

ـ ما غُبنْتُ قط، حتى يُغبَنَ قومي.

ـ كيف ذلك؟

ـ لا أفعلُ شيئاً حتى أشاورَهم.

*

ـ أتريد أن تُصلب في مصلحةِ الأمة؟

ـ لا، ولكن أحبُّ أن تُصْلبَ الأمة في مصلحتي.**

*

ـ أتُخِمْتَ قط؟

ـ أمّا من طعامك وطعام أبيك، فلا.***

*

بالمداراة تستخرج الحيّة من جحرها،
وتستنزلُ الطائر من الهواء،
وتقنصُ الوَحْشَ من البيداء.

*

نُصح الصديق تأديب، ونُصح العدوّ تأنيب.

*

إنه لدرَكُ الطالب، ومنْجَى الهارب، وقيْدُ الرّهان، وزيْنُ الفِناء.****

*

---

* أعرابي يصف امرأة.

** الحوار مع أعرابي.

*** نصر بن السيار وأعرابي.

**** أعرابي يصف جواداً.

ـ أنا رجلٌ من الأعراب.

ـ لا عجبَ.

ـ إنّي أريد الحجّ.

ـ الطريقُ واسعة.

ـ ليْسَ معي نفقة.

ـ قد سقط عنك الحج.

ـ أيها الأمير جئتك مستجدياً لا مستفْتِياً.

*

ـ سألتك بالله أيها الأمير أن تضرب عُنقي.

ـ أمعتوهٌ أنت؟

ـ لا ورأسِ الأمير.

ـ فما الخَبرُ؟

ـ لي خصم ألدُّ وقد لزمني وألحّ وضيّق عليَّ وليس لي به طاقة.

ـ ومن خصمك؟

ـ الفقر.

ـ خُذْ ألفَ دينار، فإن عادَ إليك خَصْمُكَ متغشّماً، فأتنا متظلماً.*

*

ـ من كان أبا مثواك؟

ـ حاتم.

ـ كيف كان مبيتك عنده؟

ـ خير مبيْت، نحرَ لي ناقة، فأطعمني لحماً عبيطاً، وأسقاني الخمر، وعلف راحلتي وسرْت من عنده بخير حال.

---

* أعرابي وعبد الله بن جعفر .

- أنا حاتم وإنك لا تبرح حتى ترى ما وصفت ولكن ما حَملك على الكذب؟

- إن الناس كلهم يُثنون عليك بالجود، ولو ذكرْتُ شراً لكُذِّبْتُ.*

*

رأيتُني في ما أتعاطى من مَدْحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر الذي لا يخفى على الناظر. وأيْقنْتُ أني حيثُ انتهى بي القول، منسوب إلى العجز، مقصِّر عن الغاية فانصرفتُ عن الثناء عليك الى الدُّعاء لك، ووكلتُ الإخبارَ عنك إلى عِلم الناس بك.**

*

يا أبا جعفر هذه دجاجة لي، كنتُ أدَجّنها وأعلِفُها من قُوْتي، وألمسُها في آناء الليل فكأنما ألمسُ ابنتي.

زلّت عن كبدي، فنذرْتُ لله أن أدفنَها في أكرم بُقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك. (فضحك وكافأها).***

*

إني لآنَسُ بالوحشة، وأستريحُ الى الوحدة، ويطمئنُّ قلبي إلى هذا الوادي الموحش،

فأتذكرُ من عَهِدْتُ، فكأني أخاطِبُ أعيانَهم، وأتراءَى أشباحهم، وتتخيّلُ لي أنديةُ رجالهم وملاعِبُ وُلدانِهم، ومندى أموالهم.

*

---

* كان الأعرابي قد قضى ليلته في بيت حاتم دون أن يكترث به، جائعاً مقروراً، فلما كان السحر ركب راحلة فتقدمه حاتم متنكراً فجرى هذا الحوار.

** أعرابي يخاطب أميراً.

*** أعرابية وعبد الله بن جعفر.

أعرابي يدعو: اللهم إني أعوذ بك من سلطانٍ جائر، ونديم فاجر، وصديق غادر، وغريم ماكر، وقريب ناكر وشريك خائن، وحريفٍ مائن. وولد جان، وخادم هانٍ، وحاسدٍ محافظ، وجار مُلاحظ، ورفيق كسلان، وجليس وسنان، ووكيل ضعيف، ومركوب قطوف، وزوجة مبذّرة، ودارٍ ضيقة.

*

أكرمُ الناس عِشرةً مَنْ إن قَربَ مَنَح، أو بَعُدَ مدَح،
وإن ظُلم صفح، وإن ضُويق فسح، فمن ظفر به فقد أفلح.

*

اللهم إن كنت تعلمُ أنه كريمُ الجدَّيْن، سهْلُ الخدّين، فاغفر له وإلا فلا.

*

- هل لك أن أعلّمكَ سورةً من كتاب الله؟
- إني أحُسِن من كتاب الله ما إن عمِلتُ به كفاني.
- وما تُحسن؟
- أحْسِنُ سوُراً.
- اقرأ.

فقرأ الفاتحة، وقل هو الله أحد، وإنا أعطيناك الكوثر.

- اقرأ السورتين، يريد المعوّذتين.
- قدِمَ علي ابنُ عمٍّ فوهبتُهما له، ولستُ راجعاً بهبتي حتى ألقى الله.*

*

ابذل المودّةَ الصادقة تستفِد إخوانا، وتتخِذْ أعواناً،
فإن العداوة موجودة عتيدة والصداقةَ مستعزّة بعيدة. جنِّب كرامتك اللئام، فإنهم إن أحسنْتَ إليهم لم يشكروا، وإن نزلت شديدة لم يصبروا.

*

---

* حَضَريّ وأعرابي.

يا مَن فتق العقولَ بمعرفته، وأطلقَ الألسُنَ بحمده، وجَعل ما امتنَّ به من ذلك على خلقه، كَفاء لتأدية حقه،
لا تجعل للهوى على عقلي سبيلاً، ولا للباطل على عملي دليلاً.*

*

ـ ما حالُ ابن عُميْر؟

ـ على ما تُحبُّ. ملأ الأرضَ والحيَّ رجالاً ونساءً.

ـ فما حالُ أمِّ عُميْر؟

ـ صالحةٌ أيضاً.

ـ فما حالُ الدّار؟

ـ عامرةٌ بأهلها.

ـ وكلبنا إيقاع؟

ـ ملأ الحيَّ نُباحاً.

ـ فما حالُ جملي زريق.

ـ على ما يَسرُّك.

التفت الأعرابي إلى خادمه قائلاً: ارفع الطعام، والأعرابيُّ لما يشبع بعد، فأقبل عليه يسأله وقال:

ـ يا مُباركَ الناصية أعِد عليّ ما ذكرت.

ـ سلْ ما بدا لك.

ـ فما حالُ كلبي إيقاع؟

ـ مات.

ـ وما الذي أماته؟

---

* أعرابي يدعو.

ـ اختنق بعظمةٍ من عظام جَمِلك زريق.

ـ أو مات جملي زريق؟

ـ نعم.

ـ ما الذي أماته؟

ـ كثْرُ نَقْلِ الماء إلى قَبْر أمِّ عمير.

ـ أو ماتَتْ أمُّ عمير؟

ـ نعم.

ـ وما الذي أماتها؟

ـ كثرَةُ بكائها على عمير.

ـ أو مات عمير؟

ـ نعم.

ـ وما الذي أماتَهُ؟

ـ سقطت عليه الدار.

ـ أو سقطت الدار؟

ـ نعم

(فقام إليه بالعَصا ضارباً، فولّى منه هارباً).

*

ـ ما اسمك؟

ـ فيض.

ـ ابن مَنْ؟

ـ ابن الفرات.

ـ أبو مَنْ؟

- أبو بحر.

- ليس لنا أن نكلمك إلا في زورق.*

*

- السلام عليكم.

- قلتَ ما لا ينكر.

- خرجتُ من أهلي بغير زاد.

- ما ضمِنْتُ لأهلِك قِراك.

- أفتأذَنُ لي أن آتيَ ظِلّ بيتك.

- دونك الجبل يفيء عليك.

- أنا ابن حمامَة.

- انصرِف وكن ابنَ أيِّ طائر شئت.**

*

- يا أعرابي هل تعرف المغيرة بن شعبة؟

- نعم أعرفه أعورَ زانياً.

- هل تعرف الأشعثَ بن قيس؟

- نعم، ذلك رجل لا يَعْرى قومه.

- وكيف ذاك؟

- لأنه حائك ابن حائك.

- فهل تعرف جريرَ بن عبد الله؟

- وكيف لا أعرفُ رجُلاً لولاهُ ما عُرِفَتْ عشيرته.

قالوا له: قبّحك الله فإنك شرُّ جليس، فهل تُحِبُّ أن نُوقِرَ لك بعيرك هذا مالاً وتموتَ أكرمَ العرب؟

---

* حوار بين أعرابيين.

** بين أعرابي وإبراهيم بن هرمة وهو شاعر مشهور.

قال: فمن يُبْلغهُ أهلي إذَاً؟

*

ـ كيف تَجدُك؟
ـ أجدُ ما أشتهي، وأشتهي ما لا أجِد. وأنا في زمان، من جَادَ لم يَجِدْ ومن وجَدَ لم يَجُدْ.

*

رأيت عورات الناس بين أرجُلهم وعورة فلان بينَ فكيه.

*

سَمِع أعرابي يقول: أترى هذه الأعاجم تنكح نساءنا في الجنة؟
فقال له آخر: ذلك بأعمالهم الصالحة،
فقال: تُوطأ إذاً رقابُنا واللهِ قبل ذلك.

*

قال الأصمعي: عذلتُ أعرابياً في الكذب، فقال: واللهِ إني أسمعه من غيري، فيُدار بي من شهوته.

*

سُمِع أعرابيٌّ يقول في صلاته: اغفِر لي ولمحمد فقط، وأسألك تعجيل حسابي قبل أن يهلك الخلق.

*

خاطب أعرابي بعض اليهود فقال: ويلكم ألا تسلمون؟ ألا تأنفُون مما أنزل الله فِيكم وعيّركم به؟
قالوا: يا أعرابي، وماذا الذي أنزله فينا؟
قال: قوله ألا لعنة اللهِ على اليهود إخوة القرود.
قالوا: فإن الذي أنُزل فيكم أعظم من هذا.
قال: وما هو؟

قالوا قوله: و﴿الأعرابُ أشدُّ كفراً ونِفاقاً﴾*.
فقال: يا إخوتاه، مكذوب علينا وعليكم.

*

سُمِع أعرابي يقول: اللهُمّ اسقنا شمساً،
فقيل له: إنما يُقال هذا في الغيث،
قال: أنا إلى الشمس أعطش.

*

قيل لأعرابي: أيسرُّك أنك نبيّ؟
قال: لا.
قيل ولِمَ؟
قال: يطول سفري، وأهجرُ دار قومي وأنذر بالعذاب عشيرتي.

*

سمع أعرابيّ رجلاً يقرأ: ﴿وفي السماء رزقكم وما تُوعدون﴾**،
فقال: يا بن عَم، إنه لبعيد سحيق.

*

(...) دخلت بعد عيد الأضحى***، فإذا أنا بجمع عظيم عليهم أنواع الثياب من بيض وحمر وصفر، فكأنها زهر البستان، فقلت في نفسي: هذا العيد الذي يذكر أصحابنا أن الحضر يتزينون فيه.

ثم رجعت إلى عقلي فقلت: وأيّ عيد هو؟ وقد خرجت بعد الأضحى. فبينا أنا مبهوت، أفكر في أمري، إذ أخذ بيدي رجل منهم، فقال: ادخل يا أعرابي.

---

* سورة التوبة، آية:9.

** سورة الذاريات، آية: 51.

*** أعرابي مجهول يصف زيارته إلى المدينة.

فدخلت، فإذا بمجلس منضّد بالنضائد، موسّد بالوسائد، وفي صدره سرير، وعليه رجل جالس، والناس صموت عن يمينه وشماله. فقلت في نفسي: هذا الخليفة الذي يذكرون. فقبّلتُ الأرض وقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقيل: اسكت يا أعرابي، هذا عروس ونحن في عرسه. فهُيئ لي موضع في المجلس، فجلست فيه (...)

فقيل لي: مُدّ يدك يا أعرابي وكُل. فإذا هو ضرب من الخبز لا أعرفه. ثم قُدِّمت أنواع من الطعام حلوة وحامضة، وحارة وباردة، فأكلت. ثم بأوان فيها ماء أحمر، فجعلوا يصبون في أقداح ويشربون، فناولوني منه قدحاً. فقلت: أخاف أن يقتلني. فقالوا: يا أعرابي، إنه يهضم ما في بطنك، فشربته، فحدث في قلبي طرب لا أعرفه. وهممت أن أهشم الذي بجانبي. وأن أقول للآخر: يا ابن الزانية.

(...) ثم أقبلوا يضرعون إلى آخر ويرغبون إليه، فأتاهم بدابّة من خشب، عينها في صدرها، إذا فتلت أذنها تكلم فوها. فطرب كل من حضر، وطربت حتى تقدمت إليه، وقلت: يا سيدي، ما هذه الدّابة؟ فقال: يا أعرابي، هذه يُقال لها البَرْبَط. فقلت: آمنت بالله وبالبربط. ثم سقوني قدحاً آخر، فأخذتني نومة لم يوقظني منها إلا حرّ الشمس من الغد.

*

زعم بعضهم أن الكواكب لها صور كصور الخلق. ومنهم من يزعم أنها آهلة. وزعم آخرون أنها ملائكة. وقال قوم إنّ الكواكب والشمس والقمر تنشأ في المشرق وتبلى في المغرب ... وقرأت في كتاب الخرّمية أن الكواكب تنزع أرواح الخلائق وتسلمها إلى القمر، فذلك زيادة القمر، حتى إذا انتهى في الكمال والتمام، سلمها إلى من فوقه، ثم عاد في تسلم الأرواح من الكواكب حتى يعود ممتلئاً ... فاعتبرْ بهذه العجائب، واتّبعْ كتاب الله.

*

(...) وزعم وهب ابن مُنَبّه أن الشمس على عجلة لها ثلاثمئة وستون عروة، قد تعلق بكل عروة ملك من الملائكة يجرونها في السماء. وكذلك القمر، وعجلة القمر من نور الشمس.

*

(...) وقيل إن الشمس يضيء وجهها لأهل السماء وظهرها لأهل الأرض. قالوا: والشمس إذا هبطت من سماء إلى سماء، انفجر الصبح، حتى إذا انتهت إلى سماء الدنيا، أسفر.

*

(...) واختلفوا في السّواد الذي يُرى في وجه القمر، فروى المسلمون أنه لطخة ملك. ورووا أن القمر كان مثل الشمس، فلم يكن يعرف الليل من النهار. فأمر الله الملك أن يُمرّ جناحه عليه، فمحاهُ، فهو ما يُرى من السواد في وجهه. وحُكي عن ديموقريطس أن جسم القمر مستتير صلب، فيه سطوح وأودية وجبال، وزعم بعضهم أنه سحاب مستتير يلتهب. وقال قوم إنه عين صقيلة كالمرآة يقبل ضوءه من الشمس.

*

(...) واختلفوا في انقضاض الكواكب، فقال المسلمون: هو رجومٌ للشياطين، كما قال الله تعالى، وقلما ينكر الصور الروحانية في السماء إلا أهل التعطيل والإلحاد.

*

أبان بن عثمان وأعرابي*

ـ حياك الله يا خالي، حبيب ازدادَ حُبّاً. إني في طلب جمل مثل جملك منذُ زمان فلم أجدْهُ كما أشتهي بهذه الصفة، وهذه القامة، وهذا اللون، والصدر، والورك والأخفاف فالحمدُ لله الذي جعل ظفري به من عند من أحِبُّه ... أتبيعه؟

ـ نعم أيُّها الأمير!

ـ إني قد بذلتُ لك به مئة دينار.

وكان الجمل لا يساوي عشرة دنانير. فطمع الأعرابيُّ، وسُرَّ وانتفخ وبان السرور والطمع في وجهه.

فأقبلَ أبانُ على أشعَبَ ثم قال له: ويْلك يا أشعب، إن خالي هذا، من أهلِك وأقاربك ـ يعني في الطمع ـ فأوسع له مما عندك، فقال له: نعم بأبي أنت زيادة.

فقال له أبان: يا خالي، إنما زِدْتك في الثمن على بَصيرة. وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً، ولكن بذْلتُ لك مئة لِقلةِ النقد عندنا. وإني أعطيك به عُرُوضاً تُساوي مائة، فزاد طمعُ الأعرابي وقال: قد قبلتُ ذلك أيُّها الأمير.

فأسرَّ أبانُ إلى أشعب فأخرجَ شيئاً مُغطى فقال للأعرابي: هذه عَمامةُ خزٍّ للأمير، يشهدُ فيها الأعياد والجُمع، ويلقى فيها الخلفاء خمسون ديناراً، وهي خلق لا تساوي أربعة دراهم.

---

* أبان يحاورُ الأعرابي.

فقال أبان: ضعها بين يديه. وقال لتابع له أثبت قيمتها، فكتب ذلك. ووُضِعت العمامة بين يدي الأعرابي فكادَ يدخلُ بعضُه في بعض غيْظاً، ولم يقدِرْ على الكلام.

ثم قال: هاتِ قلنسوُتي، فأخرج قلنسوة طويلة خَلَقَةً، قد علاها الوسَخ والدُّهن وتخرقت، تساوي نِصفَ درهم، فقال: قوِّم، فقال: قلنسُوة الأمير، تعلو هامته، ويُصلِّي فيها الصلوات الخمس، ويجلس للحكم: ثلاثون ديناراً.

قال: أثبتْ، فأثبت ذلك. وُوضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي. فتربّد وجهه وجحظت عيناه، وهمَّ بالوثوب، ثم تماسك وهو متقلقل.

ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك، فأخرج خُفّين، خلقين قد نُقِبا وتقشّرا وتفتّتا،

فقال له: قوِّم فقال: خفّا الأمير يطأ بهما الرَّوضة، ويعلو بهما مِنبرَ النبيِّ. أربعون ديناراً، فقال: ضعهما بين يديه. فوضعهما. ثم قال للأعرابي: اضمُمْ إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: اذهب فخذ الجمل، وقال لآخر: امض مع الأعرابي. فاقبض منه ما بقيَ لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً.

فوثبَ الأعرابي: فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم ثم قال لأبان: أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت؟ قال: لا، قال: لم أدرك أباك عثمان. فأشترك والله في دمه إذ وَلدَ مثلك.

*

أقوال من كتاب «نثر الدر»*

المرأة إذا أحبّتك آذتْكَ، وإذا أبغضتْكَ خانَتْكَ،
فحبُّها أذى،
وبُغضُها داءٌ بلا دواء.

*

اثنان يهونُ عليهما كل شيء:
العالِمُ الذي يعرف العواقب،
والجاهل الذي يجهل ما هو فيه.

*

العالمُ يعرف الجاهل، لأنه كان جاهلاً،
والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالِماً.

*

الغِنى شرٌّ محبوب، والفقرُ مُلك ليس فيه محاسبة.

*

كل شيء يعزُّ إذا قلَّ، والعقل كلما كان أكثر كان أعزَّ وأغلى.

*

أسوأ الناس حالاً من اتّسعت معرفته، وبَعُدت هِمّتُه، وضاقت مقدرتُه.

*

---

* بعض هذه الأقوال لا يُعرف صاحبها.

ـ دُلني على من أجلِسُ إليه.
ـ تلك ضالَّة لا توجد.*

*

ظفرُ الكريم عفو، وعفو اللئيم عقوبة.

*

يُرْضي الكِرامَ الكلام، ويُصادُ اللئام بالمال، ويُسْبَى النبيلُ بالإعظام ويُستصلح السفلةُ بالهوان.**

*

اليأسُ من أعوانِ الصّبْر.

*

السكوتُ أفضلُ من النطق حتى يُحتاج إلى النُّطق.

*

العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل.

*

الحركة لِقاحُ الجدّ العقيم.***

*

ما ردَدْت أحداً عن حاجة إلا تبيَّنْتُ العزّ في قفاه والذلَّ في وجهي.

*

الحاسِدُ يرى زوال نِعمتك نعمة عليه.

*

---

* حوار بين الفضيل بن عياض وسفيان الثّوري.

** تُنسب إلى الإمام علي.

*** تُنسب إلى الإمام علي.

خيرُ الناس من لم تجرِّبْهُ، كما أن خيرَ الدُّر ما لم تثقبْهُ.

*

الكريمُ لا يلينُ على قسْر، ولا يقسو على يُسر.*

*

مِنك من نهاك، وليس منك من أغراك.

*

طولُ اللحيةِ أمانٌ من العقل.

*

اثنان يهون عليهما كل شيء: العالم الذي يعرف العواقب، والجاهل الذي يجهل ما هو فيه.

*

شرّ من الموت، ما إذا نزل تمنيت لنزوله الموت، وخير من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ لفقده الحياة.

*

صديقُ البخيل من لم يجرِّبه.

*

من ليس له دابّة كثرت ألوان دوابّه.

*

أوّلُ أمر العاقِل، آخِر أمرِ الجاهل.

*

الجزعُ من أعوان الزمان.

*

---

* تُنسب إلى الإمام علي.

أذَلُّ الناس معتذرٌ إلى لئيم.

*

اطلبوا المعيشة، فإن الفَقر أوّل ما يبدأ بدِين الانسان.

*

من وطئتهُ الأعيُن وطئته الأرجل.

*

من أمثال العرب

البسْ لكل حالةٍ لبوُسَها.

*

المرءُ توّاقٌ إلى ما لم ينَلْ.

*

بَقْلُ شَهْرٍ وشوْكُ دَهْر.

*

قُدّت سيورُه من أديمك.

*

ما خابَ من استخار.

*

كل عزيزٍ دخل تحت القُدْرةِ فهو ذليل.

*

غَنم من أدّبَتْه الحكمة.

*

الدنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها.

*

المرء ما عاش في تجربة.

*

من لم يُقدِّمهُ حزمٌ، أخّرَهُ عَجْز.

*

الحيف يدعو الى السيف.

*

من ضاق صدرُه اتسَع لِسَانُه.

*

ما أدركَ النَّمامُ ثأراً، ولا مَحَا عاراً.

*

حقٌّ يضر خير من باطلٍ يسرُّ.

*

ثمرة العلوم العمل بالمعلوم.

*

صداقة الجاهل تَعب.

*

عِلمٌ لا ينفع كدواءٍ لا ينجع.

*

من رجع في هبتهِ بالغَ في خسّته.

*

من عُرف بشيء نُسِب إليه.

*

إن سلمتَ من الأسد فلا تطمع في صَيْده.

*

أيْسَرُ شيءٍ الدّخول في العداوة، وأصعب شيء الخروج منها.

*

قبل الرّماية تُملأ الكنائن.

*

من رفعك فوق قدرك فاتّقِه.

*

من لم تصلحهُ الكرامة، أصلحه الهوان.

*

الماء على لينه يقطع الحجرَ على شدّته.

*

تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك.

*

ما أحِبُّ أخي إلا إذا كان لي صديقاً.

*

أشتات*

إذا رغبتَ بالمكارم فاجتنب المحارم.

*

لا تغترَّ بمودة الأمير إذا غشّك الوزير.

*

كنتَ لنا كلّك، فاجعلْ لنا بعضك، ولا ترض إلا بالكلّ منا لك.

*

اللسان أداة يظهرُ بها حُسن البيان، وظاهِرٌ يُخبر عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب،
وحاكِمٍ يُفْصَل به الخطاب، وناطِق يُردُّ به الجواب، وشافع تُدرك به الحاجة، وواصِف تُعرف به الحقائق، ومُعزٍّ يُنفَى به الحزن، ومؤنِس تَذهبُ به الوحشة، وواعظ ينْهى عن القبيح، ومُزيِّن يدْعُو إلى الحُسْن، وزارع يحرُث المودّة، وحاصِد يستأصِل الضغينة، وملْهٍ يونق الأسماع.

*

إنما الناس أحاديث، فإن استطعت أن تكون أحْسَنَهَم حديثاً فافعل.

*

* لبلغاء مجهولين وغير مجهولين وقد أحببت جمع هذه الأقوال لأنها بمعظمها مدرسة للقراء في فصاحتها وبلاغتها وهي تمثل جزءاً مهمّاً من «ديوان النثر العربي».

من لم يصبِرِ على كلمة سمع كلمات.*

*

ربَّ غيظ تجرعتُهُ مخافةَ ما هو أشد منه.**

*

لا تُجِب أخاك إلى شيء ضررُهُ عليك أعظم من منفعته له.***

*

إذا أرَدْت أن تُقْحِمَ عالمِاً فأحضره جاهِلاً.

*

إذا اتَّسعتِ المقدرة نَقَصَت الشهوة.

*

كل شرفٍ دونَهُ لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به.****

*

جُبلت القلوب على حُبّ من أحسن إليها وبُغض من أساء إليها.*****

*

أمران لا ينفكّان عن الكذب: كثرةُ المواعيد وشدّةُ الاعتذار.

*

أنْ لا تعلم ولا تعمل، خير من أن تعلم ولا تعمل.

*

---

* تُنسب إلى الأحنف.

** تُنسب إلى الأحنف.

*** تُنسب إلى علي بن الحسين.

**** تُنسب إلى عائشة.

***** تُنسب إلى عائشة.

من لم يعتبر بما رأى، لا يعتبر بما لا يرى.

*

المعصيةُ تورث المذلّة.

*

احذر القسوة فإنها رأس الخطايا.

*

كل زائدٍ ناقص، وكل قرين مفارَق، وكل غني محتاج،
وإن عَصفَتْ به الخيلاء، وأبطرهُ العجب، وصالَ على الأقران، فإنه مُزالٌ مُدبر، ومقهور مُيسَّر.
إن جاع سخط المحنةَ وإن شبع بطِرَ النعمة،
ترضيه اللمحةُ فيستشري مرحاً، وتغضبه الكلمة، فيستطير شفقاً حتى تنفسخ لذلك مُنّتُه وتنتقِضَ مريرته، وتضطربَ فريصتُه وتنتشر عليه حجته.
وَالعجبُ من لبيبٍ توبقهُ الحياطة، يُؤتى من الثقة ولا يشعر بالعاقبة،
إن أهمل عَمِي، وإن علم نسي،
كيف لم يتخذ الحق معقِلاً ينجيه والتوكّل ذائداً يحميه؟
أَعَميَ عن الدلائل ووضوحِ الحجة؟ أم آثرَ الخسيس على الأجَل النفيس؟
كيف توجَدَ هذه الصفة مع صحةِ العقيدة واعتدالِ الفطرة؟ وكيف يشير رائدُ العقل بإيثار القليل الفاني على الكثير الباقي؟

*

ـ إنك تكذبُ في الحديث.*
ـ وما عليك إذا كان الذي أريدُ فيه أحسَنَ منه. فواللهِ ما ينفعك صِدْقُه، ولا يضرك كذِبُه. وما يدورُ الأمرُ إلا على لفظٍ جيد، ومعنىً حسن،

---

* حوار بين رجلين.

ولكنك واللهِ لو أردْتَ ذلك، لتلجلج لسانك وذهبَ كلامك.

*

يكتبُ الرجُل أحسن ما سُمع ويحفظ أحسَنَ ما كتُب.

*

أعرابي: حرفٌ في قلبك خير من عشرة في طومارك.

*

معاوية: اسكتْ فواللهِ ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه، إلا وتداركت أكثرَ منه بلساني.*

*

كدَرُ الجماعة خيرٌ من صَفوِ الفُرقة.

*

يزيد الرقاشي: ليتنا لم نُخلق، وليْتنا إذا خُلقِنا لم نَعْصَ، وليتنا إذا عصينا لم نمت، وليتنا إذا بُعثنا لم نحاسَبْ، وليتنا إذا حوسبنا لم نُعذَّب وليتنا إذ عُذِّبنا لم نخلدْ.**

*

أبو الدرداء: من هوان الدُّنيا على الله أنه لا يُعصَى إلا فيها ولا يُنالَ ما عنده إلا بتركها.

*

الهيثم بن صالح: يا بُني، إذا أقللتَ من الكلام أكثرتَ من الصواب. وإذا أكثرت من الكلام أقللتَ من الصواب. قال: يا أبَهْ: فإن أنا أكثرتُ وأكثرتُ؟

---

* يخاطب مولى زياد ابن أبيه واسمه (سليم).

** الرقاشي: من الأشخاص الذين نقل عنهم الجاحظ في البيان والتبيين.

يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بُني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك.

*

من التوقّي ترك الإفراط في التوقّي.

*

قال ناسك: أنا لما لا أرجو، أرْجى مني لما أرْجو.

*

عثمان بن عروة بن الزبير: الشكرُ وإن قلَّ، ثمَن لكل نَوالٍ وإن حلّ.

*

واضعُ المعروف في غير أهله،
كالمُسْرِج في الشمس، والزارع في السبخ.

*

لا تصطنعْ إلى ثلاثةٍ معروفاً:
اللئيم، فإنه بمنزلة الأرض السَّبخة.
والفاحش، فإنه يرى الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه،
والأحمق، فإنهُ لا يعرفُ قدرَ ما أسديْتَ إليه.

*

الموتُ الفادِح، خير من اليأس الفاضح.

*

ازدحامُ الجواب مضلّةٌ للصواب.

*

ربَّ شيء تأخيرهُ خيرٌ من تقديمه وخميرُ الرأي خير من فطيره.

*

لا يعدِمنَّك من الجاهل كثرةُ الالتفات وسُرعة الجواب.

*

لا يلزمُني أن يُقبل قولي بل يلزمُني أن يكون صواباً.

*

إذا أقبلتِ الحكمة خدَمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات.

*

من قال فيك من الخير، ما لم يعلم، إذا رَضي، قال فيك من الشرِّ مثله إذا سخط.

*

إن الناس إذا قدِرُوا أن يقولوا، قدرُوا أن يفعلوا،
فاحترسْ من أن يقولوا، تسلمْ من أن يفعلوا.

*

جميعُ المكاره في الدُّنيا ضرْبان: ضرب فيه حِيلةٌ، فالاضطراب دواؤه، وضرْبٌ لا حيلة فيه، فالاصطبار شفاؤه.

*

الحيلةُ في ما لا حيلةَ فيه الصبر.

*

من اتبعَ الصبر، اتّبعهُ النصر.

*

مَثَل الأغنياء البخلاء كمثل البغال والحمير تحملُ الذهب والفضةَ وتعتلف بالتبنِ والشعير.

*

رُبَّ حرْبٍ شبّتْ من لفظة.

*

رُبَّ ضَنْكٍ أفضى إلى ساحة، وتعبٍ إلى راحة.

*

أصْعبُ ما على الإنسان معرفة نفسه.

*

لا رسُولَ كالدِّرْهم.

*

العَفوُ زكاةُ النفس.

*

الاحتمالُ مقبَرةُ العيوب.

*

الساكت بين النائم والأخرس.

*

إن حظ الرّجُلَ في أذُنه، لنفسه،
وحظهُ في لِسَانهِ لغيره.

*

بكلام مِثلك رُزق أهل الصمت المحبة.

*

أخافكم إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت.*

*

---

* قالها الأحنف لمعاوية.

الفهرس

هذا العمل يُخرج النثر من سلطان الشّعر، بحصر الدّلالة، ومن معاييره، بحيث يوضع النثر والوزن على طاولة واحدة هي الكتابة. ولا يعود التّفاضل يُلتمس إلا في مُستوى الكتابة، نثراً ووزناً.

في النّثر، كما يقدّمه هذا العمل، ما يُنهي فكرة النّموذج. وما يقدّم الارتباط العضويّ بالحياة والتجربة، على الذاكرة. وهذا يعني أنّ النّثر ثقافة، بالمعنى العميق والواسع لهذه الكلمة.

هكذا لا تقوم علاقته مع المجتمع على الحفظ، كما هي الحال في الشّعر، وإنّما تقوم على القراءة.

إلى القراءة، أدعوك، أيّها القارئ الصّديق.

بدايات